شَرْقُ الدَّائِري

خالد أحمد

@ketab_n

19.12.2014

رواية

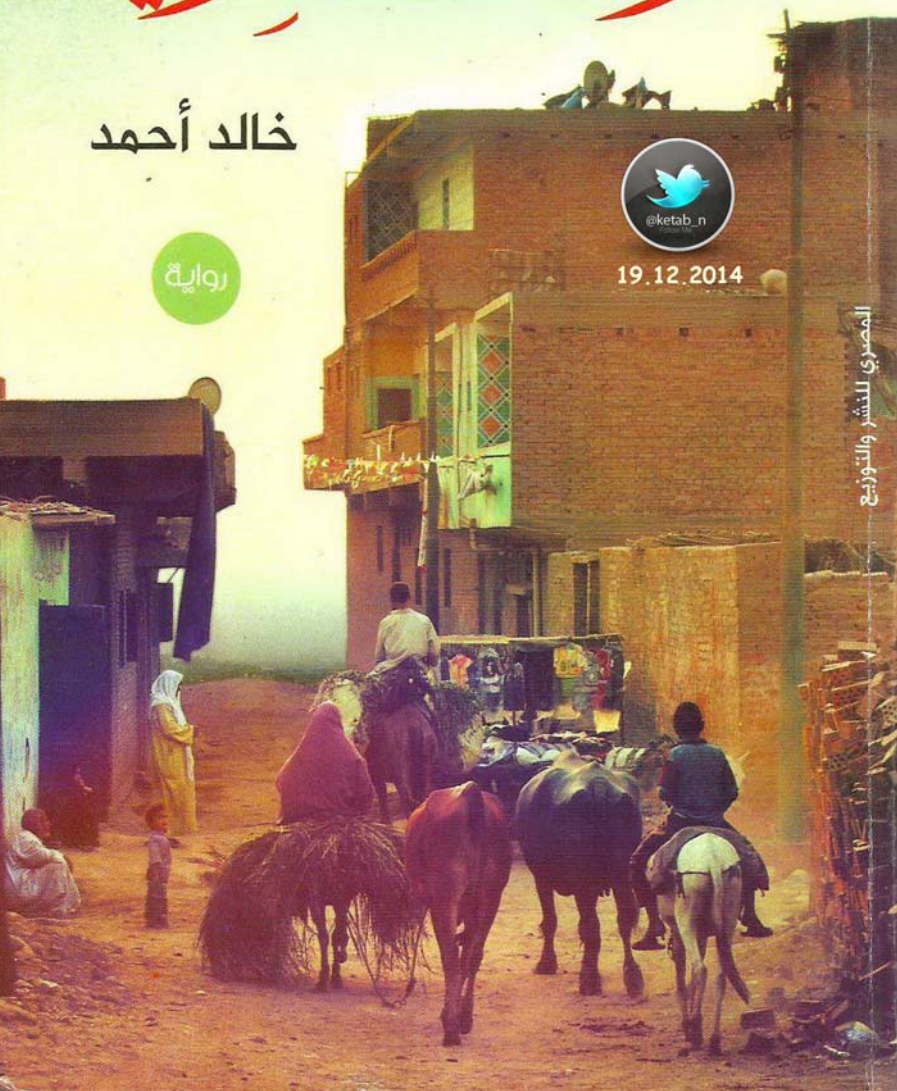

المصري للنشر والتوزيع

شَرْقُ الدَّائري

رواية

خالد أحمد

دار المصري للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

شَرْقُ الدَّائِري

Twitter: @ketab_n

شَرْقُ الدَّائري
خالد أحمد

تصميم الغلاف:
أحمد عاطف مجاهد

المراجعة اللغوية:
إيمان الدواخلي

الطبعة الأولى يناير ٢٠١٤

رقم الإيداع: 23077 /2013
ISBN: 978-977-6378-83-4

تم إنتاج هذا العمل بمنحة من المورد الثقافي

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: يوسف ناصف

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

Twitter: @ketab_n

ـ أعطوا لقيصر ما لقيصر،

وللإله..

ما للإله!

ـ فما الذي تعطي لنا؟!

ـ ماذا تبقى عندكم؟

ـ لم يبق شيء..

فاهنئوا.. طوبى لكم!

"نجيب سرور"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يوم شديد الحرارة، شارع رمسيس، من أمام جامع الفتح، شاب يركب دراجة مزودة بكاسيت، يحمل فوق رأسه مِشَنة، عليها عشرات الأرغفة البلدي، لا يترك الجرس المزعج من يده اليسرى، وبيده اليمنى يمسح العرق عن جبينه بورقة جديدة من فئة الخمسة جنيهات، ويقلد صوت اللمبي "ما توسع يابن آدم انت وهو

تصرخ في وجهه سيدة خمسينية، ترتدى جيبة سوداء، وبلوزة صفراء باهتة طويلة، تغطي نصف الجيبة، تحمل تحت إبطها حقيبة بنية، في يدها أكياس مملوءة بما لا يقل عن عشرة كيلوجرامات من الخضار، وفي اليد الأخرى طفلة تنظر خلفها وهي تمشي مطمئنة في يد جدتها، بما يسمح لها أن تعبر الطريق للأمام، بينما رأسها في الخلف تتأمل الكتكوت الأخضر، الذي يرقص مع كتاكيت لها ألوان أخرى، أمام الرجل ذي القميص الأحمر، وبنطلون الـ"بيجامه" الأزرق، والنظارة السميكة، الذي يغني "يعجبني كلك يا ولا كلك عاجبني" لعبد الباسط حمودة. يقطع أغنيته اهتمام طفل، فيخبر أباه "فرح الولاد بخمسة جنيه" لا يعيره الأب اهتماما، يتسمر الطفل مكانه، "طب فرحه باربعه جنيه يا بيه" يقولها دون أن يتخلى عن إيقاعه الموسيقي، كما لا يتخلى الأب عن صموده، والطفل عن عناده، "طب افرحهم انا وتعالى انت بيع يا بيه" بنفس اللحن، ثم يعود "مافيش معلم يا ولا هيحاسبني" لعبد الباسط حمودة،

Twitter: @ketab_n

بعد أن صفع الأب ذو الشارب الكثيف، والبنطلون البني، والشبشب الأسود الطفل، فأجبره على التخلي عن موقفه، كي يتمكنا من العبور قبل أن يغلق العسكر بوابة الرصيف.

يندفع العالم كله تجاه البوابة ليعبر الطريق، لكن بعد أن أشار الباشا، ذو النظارة الشمسية، والمقعد الوثير في السيارة المكيفة، برأسه للباشا الآخر الواقف تحت مظلة يدخن سيجارته الساخنة ذات الفلة الحمراء، رفع الأخير رأسه تجاه العسكر، كي يغلقوا البوابات على القطيع المندفع، ويمنعوهم من النزول للشارع.

نفذ الأمر عسكري منهك، ذو ياقة متآكلة، ونظرة شاردة مستكينة. أغلق البوابة، ووقف ببرود ليسمع اعتراض الجميع، الأب يصفع ابنه مجددا ويخبره: "أهو الحلوف قفلها"، وشاب يدعوه: "يا دفعه افتحها وانا أديك.. سندوتش مربى وفتاة في عباءة: "اوففف يعنى انت هتوقفنا في الحر ده ليه جتك القرف" وتختلط الأصوات، وكلها بنفس القدر من الغيظ والعجز، حين تلهب الشمس الرؤوس، فنرفع أوراقنا البيضاء في وجه السماء أن ارحمينا، لا سبيل لدينا للحياة سوى التنقل نهارا في ذلك الزحام، نُجفَف في ذلك القيظ، فتنزلق قطرات العرق ويجف اللسان، وتخور القوى، حينها أنسى الورق الذي بيدي، وانسى المشوار الذي أنا ذاهب إليه، أنسى كل شيء، ولا أرى أمامى سوى كوب عصير القصب الأخضر الفاتح، المثلج، ذي الرغوة.. أصبح بجنيه الآن، لكن لا مانع من المشي قليلا لتعويض خسارة الجنيه، الذي كنت سأدفعه للتوكتوك حين أصل إلى ذلك الشارع البعيد، الذي يبدو الآن كواحة أو حلم.

أرى به في ذلك التوقيت فتيات المدارس الإعدادية والثانوية في طريق عودتهن، وقد ضيقن الجيبة والخطوة، يحملن الحقائب فوق ظهورهن

Twitter: @ketab_n

والورد في أيديهن، ويظهر في الصوره شاب يقفز البنطلون داخل الكاوتش الكونفرز، ويشبط الكاب فوق شعره الكثيف المصفف بالجيل، وينتظر فتاه ترضى أو تبتسم، يتقدم خلفها ويبدأ في إقناعها بزيارته في المحل الذي يعمل به، أو اصطحابها إلى مكان فوق ماكينته الصينية، فيمر توك توك يصم الآذان بصوت المهرجان الجديد، قبل أن يختفى الصوت فجأه ويتعطل التوك توك فوق المطب، الذي صنعه الأهالي مؤخرا ليبطئ حركة المكن الصيني والتكاتك، التي اجتاحت منذ فتره ذلك الشارع الضيق الواصل ما بين الطريق الدائري والسوق.

حين تمر فوق الطريق الدائري، لن تلمحه.. فلا يوجد سلم قبله أو بعده، كما لا يوجد منزَل أو مطلع للسيارات حوله، ستراه فقط في يوم عصيب، انقلبت به قاطرة، على الأرجح كي تضطر للانتظار في هذه البقعة وقتا طويلا، يسمح لك برؤية ذلك الشيء المتعرج الصاعد نحو الأفق، ولن تدرك ما هو إلا أن كنت أحد أولئك الذين لم تمنحهم الحياة خيارا سوى العيش به أو بأحد أشباهه، المنتشرين في تلك المدينة القاهرة. شيء متعرج، كئيب، ومظلم، يبدو بلا نهاية.. أن دققت، سترى أن هناك مجموعة من البيوت والعشش.. وإن فتحت النافذة، رائحة عجيبة خليط من رائحة المجاري وعصير الطماطم ستملأ أنفك.

في زمن ليس ببعيد، كان يمكنني أن أتنقل بين شارعي والعالم الخارجي بحرية. أما الآن، وبعد أن حكم منطقتنا الرعاع، صار عليّ أن أختار الانتماء إلى شارعي أو إلى باقي العالم. وبعد أن لفظني باقي العالم، قررت العوده لذلك الشارع، ولم يعزنى سوى أن علاقتى برجب المجنون قد توطدت وكشفت أسرار ذلك الشارع.

يقول رجب أن ذلك المكان كان مزروعا بأكمله يوما من الأيام،

Twitter: @ketab_n

وكان بالإضافة للطريق الدائري والجهة الأخرى المزروعة، وكل المناطق المحيطة مملوكا للمصيلحية. إلا أن الآن لا ينمو زرع هنا، وكلما حاول أحدهم زراعة نبات ـ وهم قلائل من يحاولون زرع أي شيء سوى البانجو والنعناع ـ يذبل بعد أيام، بسبب إهمال من زرعه، أو يدهسه أحدهم في شجار، موجة حر خانقه، أو يقلعه طفلا يعبث.. ومن يهتم بزرع نبات من الاصل، في مكان تبدو فيه البيوت قبورا في لحظات الصمت، والألوان قاتمة كئيبة، وإن كانت خضراء وصفراء؟!

هنا الجميع يناضل من أجل البقاء على قيد الحياة.. حتى الأطفال يناضلون، وجميعهم باختلاف أعمارهم يخوضون معارك يومية، فإن كنت صبيا في "حراق" محل الكشري الوحيد، لسانك ثقيل، هادئ بطبعك، تحيا مع ستة أخوة، أب عاطل، وأم تبيع المناديل.. عليك أن تتعلم الصنعة بينما تجلب الأطباق، وتراقب الزبائن كي لا يفلت أحدهم دون الدفع.. تجلب المكونات من المخزن، تشعل النار وتتابعها، تقطع البصل.. وأن تفعل كل ذلك دون خطأ واحد، كي لا تصل يد المعلم إليك، والآن تجاوز تلاعب الزبائن، ومحاولات المعلم في سرقتك، والمتربصين بك ـ أولئك الذين يعلمون أن بجيبك شيئا ما ـ وفي النهاية تيقظ لابتزاز أبيك، وإن كنت شحاذًا تناضل كي تصل لمكان شبعان.. مكان بعيد يبدو على سكانه قدرة الدفع، فتتذلل لهم، وتتهرب من الشرطة والصبية الآخرين، الذين يشاركونك منطقة الشحاذة..

تعود لتواجه مثليي الجنس محبي الورعان، وإن كنت تعمل مع أبيك وأختك على عربة كارو، تجمع ورق الكرتون من القمامة لتعاود بيعه، تقضون كل ليلة في الشجار.. ثلاثتكم تشتبكون بالأيدي كل ليلة، وعليك دائما التهرب من لكمات الأب، أسلحة الاخت، بينما تراقب

Twitter: @ketab_n

الحمار العجوز، كي لا ينحرف بكم، وتصب سيلا من السباب على من ينجح في إيذائك. حين يأتيك الليل وتدرك انك تجاوزت اليوم، وتجلس على الرصيف لتشعل سيجارتك الأولى في حياتك، وترى أطفالا يلعبون بالبلي والحجارة، لا تغضب ولا تحقد عليهم، فأنت تدرك أنك على الطريق الصحيح للتخلص من الضعف والعجز، التخلص من ذلك الشيء الرديء، الطفولة هنا شيء مهين، حتى أن كنت ابنا لأحمد النجار.

رجب المخبول، صديقي الوحيد، هو الابن الوحيد لأحمد النجار، والآخر الذي لا أحد يعرف اسمه، لا أحد يعرف أباه الحقيقي؛ أما أحمد النجار، فهو قد عاش لزمن طويل سيد هذا المكان، جاءت أمه إلى هنا حين لم يكن هناك طريق، وكان عدد البيوت أقل بما لا يقارن بالآن.. جاءت تجر خلفها "فاطمة" وتحمل على كتفها أحمد، وثلاثتهم حفاة، يبحثون عن جد الأطفال، الذين تركهم أبوهم واختفى. بحثت لفترة، وحين وجدته تركتهم له، فلم يمانع رغم ضيق الحال، ثم ظهرت هي من جديد، حين كان أحمد يطارد الجراء بمحاذاة الترعة.. حين ينجح في أسر أحدها يقطع ذيله ويربطه بحبل، قبل أن يجبره الأطفال الأكبر سنا على التخلي عنه.. أو يصطاد الدبابير الخضراء من على العشب العالي حول ضفتي الترعة، يرتدي مريلته البنية، ويذهب برفقة أخته المتسلطة للمدرسة، يقضي فيها وقتا مملا ومحرج، قبل أن يعود لبيت جده، حيث يعيش الجد وزوجتيه مع ثلاثة من أبنائه، وأحمد، وفاطمة، وأحيانا تنضم أمهما.

أحمد النجار لم يكن ذلك الذي يغدر بك في لحظات خوفك، وليس هو من ينقذك، لم يكن من يستوقفك ليبحث داخل جيبك عن نقود، لكنه لم يكن ليمنع ذلك، هو من يستوقفك في مكان نائي، يتأملك، يكلمك بوقاحة وتعالٍ، يخرج سلاحا يحك به رأسه، ثم يتركك لترحل.. هو من

Twitter: @ketab_n

راقبك من بعيد وحين نظرت خلفك، نظر لعينيك مباشرة، تجهم، ولم يضحك.

كأنك استمتعت بنظرة الرعب في عيني حيوان كسير كدت أن تقتله وتركته ليحيا، افتعلت الغضب دفاعا عن مريلتك البنية في الطرق النائية، افتعلته دائما حتى صار ولعا، وهوسا، وإدمان. تطاردك في رأسك الذكريات والمشاهد وجوها خائفة، أسنانا دامية، عينا مفقأة، سلاحا أبيض يعكس الشمس على عينك، وبعينك لا ترى سوى دوائر ملونة تتداخل في خلفية سوداء، تتكاثف وتزيد ثم تختفي. افتعلت الغضب في البداية، وللآن لا تدري أن كان لك فيه إرادة أم لا، وكلما خليت لنفسك بعد جوانين أو ثلاثة يرتعش سبابتك، فيأتيك الإحساس المربك.

أدركت النهاية قبل أن تأتي بقليل، فاعترفت، لأن النهايات تبدو دائما كالنهايات، كل شيء من حولك ينذر بها، انقباض غير مبرر للقلب، عدم القدره على الضحك أو حتى افتعاله، شعور بالعجز، الوحدة، والرغبة في إلقاء اللوم على أحد. هي حقا نهاية، لذلك كل ما عليك أن تكمل، فقط استأنف، امض للأمام بالزمن، كي تصل للحظة منتظرة هي الذروة، أكثر اللحظات قسوة.. لا تتماسك، بل انهار، استمتع بالفشل وذق طعم الكآبة لحظات، أيام، شهور، ومن يدري قد يكون ذلك الشعور نعمة، شعور حقيقي سيأتيك بعد افتعال الغضب، والحب، والسعادة، بعد افتعال عمر كامل، بذكرياته كلها، دع روحك تتنفس، ولو عن طريق الكآبة.

Twitter: @ketab_n

١

لم يكن نجارا بالمعنى الحرفي.. كل ماكان لديه هو عدة مفكات ومنشار، يصلح أي شيء يقابله مقابل أي شيء تدفعه. حمل له "أحمد" عدته، حضر له الشاي واشترى السجائر، لم يدق مسمارا أو ينشر خشبا، لكنه أصبح أحمد النجار، كي يتميز عن باقي الأطفال، الذين يحملون جميعا أسماء كأحمد الحلاق، وأحمد العربجي، وأحمد الفرفور، فالكل هنا أحمد الـ.. لكن اسم النجار أصبح الأبرز، بعدما أثبت لسنوات أنه يحمل قدرا نادرا من العنف والغضب. لا يعرف سواه أن كل ذلك افتعالا، كي يتمكن من العيش، حين سخر منه الأطفال، بعد أن رأوا اخته المتسلطة تضربه وتجبره على الذهاب بدلا منها للسوق، لم ير في ذلك إساءة، فالإساءة التي وجهتها هي إليه أكثر ايلاما. إلا أن سكوته وتجاهله لهم جعل منه مثارا دائما للسخرية. يتخطى الباب ويخرج لحوش دار جده، حين يسمع أحدهم ينادي باسمه.. ينظر حوله، يرفع جلبابه قليلا، وينحني ليرى أن كان أحدهم مختبئا.. يجول حول البيت بحذر، وحين يتيقن أنها مزحة يعود تجاه الحوش، فينزل أحدهم بكفه على قفاه، ثم تنفجر الضحكات في طريق المدرسة ذهابا وعودة، أمام المعلم ـ فيضحك ـ في كل مكان يتكرر

Twitter: @ketab_n

الحادث، جده يتجاهل شكواه، أخته تخيفه، أمه تختفي أكثر مما تظهر، أعمامه بالكاد يعرفهم.. والغضب بدأ يعرفه، غصة في الحلق، وكراهية تنشأ مع كل استفزاز جديد، من طفل أحمق مدلل يكتفي أهله بإرساله للمدرسة، وبعضهم يرتدى بنطلون وفانلة وحذاء. هم أكبر سننا، وكل ما أراده أن يجعلهم يتوقفوا عن التسبب في ذلك الشعور غير المريح الذي يجعله يكره حياته، ويسقطه في أشياء لم يكن ليفعلها، مثل المقارنة بين حاله وحالهم، رغم تحذير جدتيه من كلمة "اشمعنى ، أو التمرد على أخته الوحيدة. عائدا من المدرسة، وحيدًا شاردًا، بعد أن انتقلت عدوى السخرية إلى الفصل، حين رأى التلاميذ أنه يكتب على ورقة استخدمت من قبل كقرطاس للطعمية، لأن لا كشكول لديه، سقط في المقارنة الممنوعة بينه وبين الأطفال الآخرين، وكيف أن كل منهم حين يتعرض لسخرية أو إساءة تمكن من ردها قولا أو عنفا، فاختار القول منهجا، لكنه فشل في نطق الأحرف مرتبة، مما زاد السخرية.

توقف النجار ـ المعلم ـ عن تدخين السجائر، وجلس أمام بيته بجوزة، جلب الصبي له الولعة من المقهى المجاور، وكان وجه أحدهم محترقا بالولعة هو أول مرحلة في اختياره العنف، كي يتمكن من العيش في أرض الرعاع.

* *

يبدو الشارع ـ الآن ـ رماديا في الليل، هادئ تماما، حين تراه عن بعد. وإن اقتربت، فتمهل، يقابلك في البدء ـ أن كنت سعيد الحظ ـ مجموعة شباب يدخنون.. سيتعجبون من قدومك ويختبرون أعصابك، شجاعتك، رجولتك، وقدرة الاحتمال؛ فإن تجاوزت كل الاختبارات

Twitter: @ketab_n

النفسية دون أن تسقط في أحد الخطئين: الضعف أو الثورة، ستمر. وبالداخل، بعد أن تترك الدائري خلفك، أول ما يقابلك على اليسار بيت قصير، له بوابه خضراء حديدية، يجلس في مدخله عجوز نحيل بجلباب مفتوح ورأس عارٍ، ممسكا بجوزة يمتصها وتمتصه، وعلى اليمين أطول البنايات في الشارع، تسعة طوابق، لا يسكن بها سوى ريهام العاهرة وأسرتين. مدخل البناية يرتفع عن الأرض أكثر من متر، لذا وضع سيد مصيلحي ـ وهو المالك ـ مجموعة من الحجارة والردش كي تتمكن من الصعود ـ أن أردت ـ لبرج اللؤلؤة. بعده، مجموعة من البيوت المتهالكة والعشش، لكل منها لون وشكل وارتفاع مختلف، أمام كل عتبة تجلس سيدة، تحدد شخصيتها من جلبابها ولونه، من فِعلها وصوتها، إما "مرة حِزن" في جلباب أسود قديم متسخ، تعد طعاما، تفلِّي أحد الأطفال، أو تشتبك مع أحد المارة.. أو جلبابٍ ملون، حديث لين مع الجارات، وساق بيضاء تلمع، صدر يشم الهواء "مرة مُلعب"، وبين الـ"حِزن" والـ"مُلعب" تقف نساء هذا المكان على مسافات مختلفة من النموذجين الكاملين، لكن جميعهن يشتركن في الحديث، البحث عن الطفل التائه، وتوقيت استخدام الماء الذي يصل بالكاد إلى صنبور ـ اثنين على الأكثر ـ في الصباح، وليلة وحيدة تقضيها هنا ستعرف جدول الاستحمام، حيث يتبادلوَنه بشكل دوري بين البيوت، ثم بين الأسر المشتركة في حمام، وبهذا ـ أن أردت ـ تستمتع بمشاهدتهن جميعا في أسبوع واحد.

بعد انتهاء البيوت والعشش، يظهر الأطفال، ويتسع المشهد قليلا، حيث يصبح عرض الشارع حوالى مترين، وهنا المقهى إلى جوار بعض المحال والورش المجتزأة من بيوت لا يستخدم أغلبها إلا كنقاط تجمع للصنايعية أثناء تعاطى المخدرات (الضرب)، ثم يتقاطع الشارع مع

Twitter: @ketab_n

شارع آخر معفر، وينشأ عن تقاطعهما أرض فضاء، هي صباحا سوق.

أما أن لم تكن سعيد الحظ، حين تنوي دخول الشارع، فستقابل أحد اثنين. شابا يبحث معك عن مال، أو أحد أولئك الذين يسكنون في عشش صفيح بيننا، الذين ظهروا مع أعمال الحفر والردم للترعة، أولئك الذين يدَّعي الآباء أنهم خطرون، ويحذرون الأطفال من أماكن تواجدهم، خاصة تحت الكوبري، ويدَّعي البعض أنهم بشر طبيعيون ولهم نفس سماتنا، ويقول العجائز القليلون هنا أن أولئك لم يظهروا إلا مع ظهور التوك توك، أي أن وجودهم ليس أصيلا في المنطقة، ويقول آخرون، أصغر سنا أنهم أبناء عائلات تقطن بيننا، وبعضهم نسل عائلات كبيرة، كما يدَّعي الرعاع نفسهم، غير أن الأصغر يقولون أن ظهور التوك توك جعل المنطقة أقل أمانا، حيث يمر الغرباء بيننا طوال الوقت، ويضطر الأطفال إلى التنحي جانبا، حين يُسمع الصوت الهادر للتسجيل، أما الأطفال، فيقودون العربة ذات العجلات الثلاث، ويتبادلون أحدث الأغاني الشعبية، حين يقفوا ليدخنوا على الناصية في الليل.

يتهادى الشارع في الطول من بعد التقاطع، ويبالغ في تقدمه، لكن تبقى البيوت ما قبل التقاطع هي الأحدث، والأكثر صخبا، ولولاها لبقي الشارع ذلك على حاله القديم، كوجه متحضر للقرية المتاخمة، فحين كان يحتاج أحد الفلاحين بالقرية أي شيء، لا يفكر، ويأتى إلى هنا، يمر على غيط الحاج مصيلحي، أكبر الملاك في القرية وأكثرهم نفوذا، ثم يعبر الجسر الخشبي فوق الترعة، ثم يقطع الغيط الآخر للحاج في آخره "قناية" صغيرة، ثم من بعدها شارع ترابي به بقال، كبابجي، مستوصف، وصيدلية، غير عدة بيوت يسكنها الموظفون والصنايعية، يقام السوق في الأرض الفضاء بينها.

Twitter: @ketab_n

إلا أن ظهور الخرسانة كأساس للمعمار في القرية، وظهور المحال والخدمات في قلبها قلل من أهمية ذلك الشارع. ثم جاء ردم الترعة، وإقامة الطريق، ليفصل نهائيا بين الجانبين، اللذين تأكلهما الخرسانة. الغيط الوحيد من بعد الترعة، اتضح أنه لم يكن ملك الحاج، وانتُزعت ملكيته فنشأت فوقه بيوت متشابهة، وتحول الشارع إلى مجموعة من الوحدات المتكررة، فالمحال تتكرر، الوجوه، والأسماء، وكل شيء يتضخم بالتكرار. والتحم الشارع شرقا بمناطق مشابهة، فكوَّن جسدًا ضخمًا، لا تعرف رأسه من أطرافه، وأخذ يتمدد. ولم يكن ذلك ليصبح عالما واحدا متصلا، لولا ظهور اختراعين.. أولهما التليفون المحمول، الذي كان في البدء وجاهة أو مظهر من مظاهر الثراء، ثم أصبح كل شيء. فبعد كونه مصدر رزق للميسورين، عن طريق البيع والشراء، للأذكياء عن طريق التصليح وتنزيل النغمات، وللتجار عن طريق بيع الكروت وتوفير خدمة الدقيقه بجنيه ثم بخمسة وسبعون، ثم الأبرز الدقيقة بنصف جنيه"، هو أيضا وسيلة لاصطياد الشباب للمراهقات، دليل صوتي على نجاحك في صيد زوجة رجل غائب، ألعاب، قائمة، ضبط واهتزاز، هو حقا كل شيء.

والشيء الآخر الذي يساهم الآن في دمج أطراف هذا العالم، الذي لا يتوقف عن النمو، هو التوك توك، ذلك الصرصور الذي ينقل أي شيء وأي عدد من الأفراد إلى أي مكان. وميزته هي تلك تحديدا: "أي مكان"، فقد صممت أغلب شوارع وحواري هذا العالم الناشئ من أجله، وكأن العقل الذي أبدع قاعدة مسافة الذراع الواحد بين بيتين، كان يدرك ببصيرته أن ذلك الشيء ذا العجلات الثلاث قادم.

في زمن ليس بعيد، كانت السيدات تبيع الكرنب، الخس، والخضرة،

Twitter: @ketab_n

في السوق أو الأحياء البعيدة، وينقلهن الكارو ذهابا وإيابا.. الأطفال يتعلمون صنعة بعد العودة من المدرسة.. وأغلب الرجال يتسكعون في أعمال رخوة، أو حتى بلا عمل. وقتها ـ قبل بناء الطريق ـ كانت الخرسانة قد بدأت في الظهور بكثرة، إلا أن القرية بقيت على حالها، لا يتخلل مناطق الزراعة فيها إلا أبراج الحمام وأبراج الضغط العالي، التي تنقل الكهرباء من مكان بعيد إلى مكان أبعد، دون أن يسقط بعضا منها علينا. والترعة، التي تروى منها الأراضي بالترتيب بين الفلاحين ـ من بعد الحاج مصيلحي، حيث بقي لزمن طويل أول من يروي أرضه ـ يصطاد الشباب منها القراميط، والخبراء منهم يصطادون البُلطي الصغير الذي ضل طريقه إليها، ويعوم بها الأطفال عراة في الصيف. مرت فوق الجسر الخشبي قادمة من جهة السوق، سيدة تحمل على كتفها طفلا، وتجر أخرى، وثلاثتهم حفاة. وبعد استقرارها في بيت أهل زوجها، خرجت على الكارو بالخضرة، وعادت أحيانا، الطفل يتعلم النجارة، فسمي بأحمد صبي النجار، ثم أصبح اسمه يتداول بين كل السكان، بعد أن حرق وجه طفل من أبناء عائلة "سعد بالولعة، فوجب اختصار الاسم لأحمد النجار.

نشأ الصراع بين عائلة سعد، وهي عائلة كبيرة العدد، وبين أعمام النجار، ولكي ينتهي الأمر، كلف الجد ابنه الأصغر "صبري وهو شاب صغير الحجم مهذب ويفك الخط، بأن يصحب الفتى المذنب إلى محطة القطار، ويرسله إلى أخ له يسكن في الزقازيق، بعد أن يكتب على جلبابه بياناته كلها، كي يتعرف عليه من يستقبله. وبالفعل، ألقى صبري ابن أخيه داخل القطار، وحين أدرك الطفل أن شيئا غريبا يحدث، كان القطار قد تحرك.

Twitter: @ketab_n

لم يدرك وقتها مدى خطورة موقفه، فالأيام القليلة الماضية كانت مذهلة، الشجار الذي نشب أمام بيت جده كان المشهد الأكثر رعبا في حياته، خاصة تلك اللحظات التي يبدو فيها أن أعمامه لا يقدرون على الصمود، وأن سقوطهم ـ وفقا لما سمع ـ يعني أن يأخذه المعتدون. ثم كانت جلسة الصلح، التي أُتفق فيها على دفع ديَّة، وأختُلف كثيرا على قدرها، حيث لم يكن جده يملك أكثر من عدة أمتار يزرعها أمام بيته وخلفه، وثلاثة أبناء وزوجتين، فاضطر أن يتخلص من سبب المشكلة، بأن يرسل الطفل لأخيه الأصغر.

والآن، بعد أن توقف القطار، وجد الفتى نفسه في مكان غريب، وحيدا يرتدي جلبابا مكتوب عليه اسمه، يتذكر الضرب الذي تلقاه من جده في اليوم الأول للحادثة والثاني، ويتذكر الضرب من أعمامه على مدار أيام ثلاثة، فيتألم.. ثم يذكر لحظة هروب الأطفال من أمامه، فيبسم.

لم يكن جده الساكن في الزقازيق يجيد القراءة، لكنه تعرف على طفل وحيد على جلبابه خطوط، وظل يفخر لمدة بنباهته، ويذكر أمام زوجته أنه لا يوجد طفلان بتلك المواصفات، ثم يداخله الشك ليلا أن كان من صحبه هو فعلا من أرسلوا له "ترانك" بسببه، أم أنه طفلٌ آخر. عرف أحمد وقتها إحساسا جديدا.. شيء غير مفهوم.. رغم كونه طفلا، وكل شيء من حوله مثير ومدهش، إلا أن القواعد هنا تغيرت، فالشوارع واسعة مخيفة، بها سيارات سريعة، بيوت من أكثر من طابق، محال كثيرة، ولافتات تسحر العين.. عالم جديد مرعب، ولا شيء يعرفه سوى ذلك الرجل، الذي يسحبه من ذراعه ويبدو عليه الكدر، لا رغبة في الكلام فيطرحون الأسئله، ولا رغبة في الإجابه فيلحون، ولا يدري ما الحقيقة فيزجرونه، ويضطرب..

Twitter: @ketab_n

بين حسن معاملة الطفلين الأقرب له سنا في البيت، وتجاهل البقية لوجوده، سكنت روحه مشاعر كئيبة، تختلط دائما بذكرى جده الحقيقي وبيته، أخته، أعمامه، وكلابه مقطوعة الذيل، مطاردة الأطفال له، الأسطى، المعسل، الولعة.. فتغزوه لحظة سعادة، ويسقط من جديد في الصمت، حتى يجذبه أحدهم للعب، فيندمج تماما ويخلص في لعبته، وينسى كونه هاربًا ذلك الطفل الهزيل.

في الجانب الآخر، على أطراف محافظة الجيزة، تجاوز جده وأعمامه لحظاتهم الحرجة، ولم يبق سوى التصالح الفعلي مع عائلة "سعد"، أهل الطفل الذي لن يبقى أثر للحريق في وجهه سوى بقعتين فوق حاجبه.

لعائلة سعد أملاك في القرية.. هم لا يقال عنهم أثرياء، رغم أنهم دوما، وعلى مدار عقود، يحاولون إثبات ذلك. في النهاية هم فلاحون، يرتاد أبناؤهم المدارس، ولديهم شباب في التعليم الجامعي، و"فريدة" ابنة "إبراهيم سعد" ستتزوج من "سيد" ابن الحاج مصيلحي، ولهذا هم أقوياء في التمسك والدفاع عن حقوقهم. لكن والد الطفل المصاب، وهو "إسماعيل سعد" كان قد جاوز الستين، وشط تماما من تدخين الحشيش والمعسل، فلم يعد يبغي من الحياة سوى الوقت الذي يقضيه بصحبة الجوزة، وأولاده أكملوا تعليمهم وانتقلوا للعيش في أماكن أرقى، ولم يبق معه سوى ذلك الطفل المزعج، الذي جاءه في وقت متأخر من عمره، ولم يكن له ولا زوجته نية في إنجاب المزيد؛ فمن بعد "عمر، عمرو، عزة" أسموه أحمد، وبهذا تخلوا عن حرف العين، وكأنهم قد اتفقوا ضمنيا على أنهم أنهوا مشروعا ناجحا هو أبناؤهم الثلاثة، والوارد الجديد شيء منفصل. كما لم يكن لزوجته "عنايات"، أم عمر، أي رغبة في الاحتفاظ بحقها في الديَّة، فهي كانت مضطربة بسبب زيادة وزنها التي لا تتوقف،

Twitter: @ketab_n

حتى أن حركتها أصبحت صعبة، وكلامها ونشاطها أقل، غير أنها لم تر شيئا ضارا في تلك الإصابة البسيطة، حيث كل الأطفال مصابون، ولديها همٌ آخر، هو زوجها الذي يقضي يومه في تكريس المعسل والحشيش، ثم يبدأ في التدخين وحيدا، حتى يبدأ في الكلام مع نفسه، ينفعل، يثور، وقد يستخدم يديه في الشرح لأشباحه.

هكذا خمدت نار الأزمة، وانصرف آل "سعد" لشئونهم، ونسوا قصة الديَّة والانتقام، ورضوا باختفاء صبي النجار، ولم يكن أحد متضررا في شيء سوى طفل أصبح اسمه "أبو بقعة"، ثم اختُصر بعد ذلك إلى "بقعة"

حين يحدث في القرية شيء ما، تبحث النساء عن المعلومات لدى الأطفال. وإن كان ذلك الحدث يخص الأطفال، يبحثون دائما عن فاعل أو محرض، ويكون السؤال "ولد مين دلكوا على سكة التُرب" مثلا، فتأتي الإجابة باسم مبهم، يعقبه اسم العائلة، كأن يقال. "أحمد ولد إسماعيل أبو سعد . وأولاد العائلات التي لها عزوة أو ثروة أسماؤهم أعلام، وبهذا يتجنب الفاعل اللوم. ولكن حين يكون اسمك مقترن بصنعة أو صفة، فإنك حتما ستلام وتعاقب. وهكذا أصبح أحمد أبو سعد مجرد بقعة، لا يعرف إلا قلائل كونه الابن الأصغر لإسماعيل أبو سعد، أول من انفصل عن بيت عائلة كبيرة، وسكن وحده مع زوجته في بيت خرساني، تكفل ابنه "عمرو"، الذي يعمل بالخليج، بتكاليف بنائه.

انطلق بقعة كبقية الأطفال في القرية، إلا أنه لم يحتاج لعمل، فهو حين يجوع يعود لبيت مؤمَّن غذائيا، وينام هناك دون أن يزعجه أحد، إلا لو صادف مزاجًا سيئا للست عنايات، أم عمر، والدته، وهي سيده قوية الشخصية، أصرت على أن يتم أبناؤها الثلاثة تعليمهم الجامعي،

Twitter: @ketab_n

ووقفت أمام عبث زوجها، الذي أصيب منذ زمن بعيد بمرض في صدره بسبب المعسل، فتوقف عن العمل وتفرغ للمعسل. كما أن مزاجها أصبح عكرا منذ أن بدأ وزنها يزيد، وفقدت قوامها السينيمائي، بعد أن أنجبت آخر أبنائها، وتسببت في عشرات المشكلات في بيت عائلة "سعد"، حتى أصبح انتقالها إلى البيت الجديد حتميا، وبقت بعدها تنغص عيش العائلة، كي تنتزع حقوق زوجها وأبنائها منهم، وتبالغ في تقدير نصيبهم من المحصول، نسبتهم في بيع دابة، عدد الطيور التي تملكها عندهم، وكأنها كانت تبحث فقط عن الشَكَل.

كانت طويلة، ظهرها مفرود، لا تنتقص العروق النافرة على ساعديها وجبهتها شيئا من أنوثتها، نشيطة كالنحلة، وسليطة اللسان. أبناؤها الثلاثة المتعلمون مصدر زهو دائم لها، لكن ذلك الطفل الذي جاءها بعد الخامسة والأربعين جعلها تضطرب، هي التي تزوجت في الثامنة عشر، وانتهت من دور الأم منذ زمن، وتفرغت لإزعاج من تبغضه، ستبدأ الآن من جديد! وللعجب، في ذلك الوقت كان قد انتهى أي دور يذكر لزوجها إسماعيل، غير أن الحمل والولادة قد غيرا للأبد هيئتها، وأفقداها النشاط، ولازمت الفراش فترة، فألقت اللوم على زوجها الذي لم يعد صالحا في شيء، حتى معاشرته، التي تأتي على فترات متباعدة، تسببت في ذلك الهم الجديد الذي ولد. تركت الطفل في رعاية عائلة أبيه، في أيام مرضها التي طالت بسبب السمنة، ثم اعتادت غيابه، وغرقت في محاولة السيطرة على السمنة، وكلما شعرت بالنجاح أراحت نفسها قليلا وذاقت طعاما شهيا، فينفرط العقد وتعود لتتفنن في إعداد الطعام وتأكله وحدها، فالرجل لا يأكل تقريبا، وكل الطعام عنده سواء، والطفل يختفي أكثر مما يظهر، وكلما ظهر امتلأ قلبها ندما على أنها لم تلحقه بالتعليم وتركته للفلاحين يربونه.

Twitter: @ketab_n

وحاولت استعادة الطفل منهم، إلا أنه كان لا يبقى لديها ولا لديهم.. "بقعة" الآن هو الطفل الأكثر حرية في العالم، لا تعليم ولا صنعة.. لا أب يزعجه.. ونوبات غضب أمه يمكنه تجاوزها بسهولة، بعد أن أدرك لطريا أنها تشعر بالذنب تجاهه، فاستغل ذلك في ابتزازها طوال الوقت، وهي ـ في محاولة يائسة لإنقاذ الطفل ـ طلبت من "عمر" أكبر أبنائها أن يتدخل. أدرك عمر أنها ستطلب منه أن يتولى هو مسؤوليته. وحين جاء، رأى أخاه الأصغر سيد هذا العالم، فالكل يسأل عنه، الكل يعرفه، كل الأطفال بمختلف أعمارهم يخشون خططه المزعجة وأفعاله الشيطانية، زعيم لكل الأطفال، بل أن تحت إمرته شبابا في طور المراهقة، يكسب البلي بمهارة، بالحظ، بالغش، أو بالذراع.. يعود ليبيعه، فيشترى نحلا خشبيا ويكسب بأي وسيلة ويستثمر.. أول من تخطى الأسوار لسرقة المزروعات من مزارع الفاكهة القريبة.. أول من ضاجع خروفا، قاد عُصبته في حرق الحظيرة الخلفية لبيت "بولس" الحلاق!.. فأطمئن "عمر الذي أهدر عمره في التعليم، ويعمل محاسبا في شركة يملكها سمسار، أن أخاه الأصغر في أمان، وطمأن والدته وعاد بزوجته وابنته إلى العباسية، بعد أن قضى معهم بضعة أيام تسببت في إزعاج والده، بسبب إصراره على التحدث معه، وكان ذلك مرهقا للغاية بالنسبة للأب.

عاد صبي النجار، بعد اختفائه عامين، للظهور. وقتها كان شاربه قد بدأ ينبت على حواف فمه، بينما كان بقعة يحاول جاهدا البلوغ، ويستخدم كل الحيل التي عرضها أصدقاؤه الذين سبقوه في ذلك. لم يكن لأحمد النجار وقتها أي دور يذكر، فقد اصطحبه عمه "صبري"، الذي يعمل حارسا ـ رغم صغر حجمه ـ في إحدى المزارع الكبيرة القريبة، ويؤم المصلين في ثلاث صلوات في أيام ستة، أما يوم الجمعة، فسيده الأستاذ

Twitter: @ketab_n

صبحي، مالك المزرعة، يؤم المصليين بنفسه، بعد أن يلقي خطبته.

رافق الطفل عمه في كل مكان، كما لم يكن لبقعة رغبة في الانتقام منه، فقد كان مشغولا بعضوه، ثم بدأ في التخلص من "العيال"، ولا يجالس سوى من تخطوا تلك المرحلة واتخذوا الخطوة الكبرى، فأصبح لبقعة مجموعة محدودة شكَّلوا دائرته، هم: محمود قاسم ابن موظف في البريد، وهو صبي الكهربائي ومازال يذهب للمدرسة بشكل منتظم، وهو العارف بكل شيء.. سيد خميس ابن سائق لعربة نقل، توقف عن التعلم، يصحب أباه أحيانا، وأحيان يتنقل في أعمال متعددة، وهو أول من بلغ في دفعته، وله قوة في ذراعه الأيمن تخيف الجميع، وأخوه الأكبر، صالح، هو معلمهم جميعا، وهو من يدلهم على أسرار الجنس والمخدرات.. أحمد أبو سعد، وهو الابن الأصغر للحاج إبراهيم أبو سعد، الذي كان يزوج ابنته في تلك الأثناء لسيد ابن الحاج مصيلحي، ويجرى الإعداد للزفاف، بينما يضرب الحاج إبراهيم كفا بكف بسبب التكاليف.

كانت تلك القرية، تماما كأي قرية، تتمتع بالفقر والقذارة والرضا، وكأي مجتمع به أغنياء، هم السادة، وفوقهم سادة، صعودا إلى الله. كان حدث مثل زواج أحد السادة من عائلة متوسطة حدث عادي ومتكرر، إلا أن زواج سيد ابن الحاج مصيلحي من فريدة ابنة إبراهيم سعد كان شيئا مختلفا، فقد أدرك الحاج إبراهيم أن "سيد" هو أقل أفراد العائلة تقديرا، وأنه لا يعمل مع إخوته وأعمامه في أملاكهم، وأنه لا يجيد سوى الغناء، وحتى ذلك لا يجيده بدرجة كبيرة، خجول لدرجة مزعجة، طويل بلا مغزى، وجهه ملئ بالبثور، يبتسم دائما!

وبعد أن شعر الحاج إبراهيم بالفخر لرغبة الحاج مصيلحي في أخذ ابنته

Twitter: @ketab_n

لابنه، شعر بالمهانة بسبب الشاب، لكنه كان قد وافق، فقرر أن يحرض فريدة" ابنته على الرفض، لكنها أيضا كانت خجولة لدرجة مذهلة، وقرر حين اقترب موعد الزفاف أن يدفعها للرفض، فطلب منها أن تجلس معه وحده، وسألها عن رأيها، فلم تجب. وألح في طلبه، بعد أن ظل يطمئنها بوعود واتفاقات، ولم يتلق إجابة.. فانفعل وثار، ففزعت وبكت. قرر أن يحرض أمها، التي لم تكن ترى في الشاب ما يعيب، فلم تؤدِ الدور المنتظر، وظلت تدفع في اتجاه إتمام الزيجة. وجاء اليوم الذي يزور فيه مصيلحي وأبناؤه الحاج إبراهيم في بيته، وأصر الحاج إبراهيم على أن يحضر أخوه إسماعيل الجلسة، فتحملت زوجته عبء إقناعه ونجحت، لكنه ذهب مسطولا تماما، يجر قدميه في التراب، ويسيل اللعاب من فمه ليرسم دوائر على جلبابه، ومن خلفه الست عنايات تتحرك بالكاد، وبقعة لم يدعوه أحد، فصعد هو ومحمود قاسم على سطح بيت "أبو سعد" والذي يعرفه جيدا، وقبل أن يهبطوا على المندرة، مروا على غرفة بها أضواء مبهجة ورائحة فواحة، فنزلوا ليتلصصوا، وإذ بالمشهد المهيب.. "فريدة" العروس تتزين، وفخذاها المكشوفان اللامعان تنكسر الأضواء عليهما وتتحول إلى ألوان متطايرة تتلاعب، بينما تملأ المكان رائحة ساحرة، خليط من عطر نفاذ وطعام يُعد. تأملوا في صمت مسحورين، فنسوا هدفهم الأصلي، رحلوا في صمت. ظل بقعة بعدها ساعات لا ينطق، ولا يفكر سوى في تلك اللحظة الخالدة، التي تجمد عقله عندها، ولم يدرك بعدها شيئا آخر، وقرر أن يعود، عسى أن يرى شيئا جديدا. لكنه لم يجدها، فبحث عنها حتى وجد نفسه أمام أحد الشبابيك المطلة على الغرفة المعزولة للضيوف، ورأى أخا العريس وأباه يسخرون من وضع الحاج إسماعيل المزري، فامتلأ حنقا، وأقسم أن يفشل الزيجة ويتزوج هو

Twitter: @ketab_n

من فريدة، التي صارت ملهمته الأولى في المراهقة.

حاول إحراق غيط المصيلحية وفشل.. تسميم البهائم، فأمسك به الخفر هو وسيد صديقه، وتلقوا علقة، وعُلقوا في الزريبة، حتى توسط عمه إبراهيم للإفراج عنهما. تصيد فريدة، وخاطبها وتودد إليها، فلم تصده ولم تشجعه، فقط احمرت خجلا.. حتى وجد الطريقة المثلى، وهي تصيُّد "سيد مصيلحي العريس وإيذاءه.. بعد أن بدأ بالنبلة وإلقاء قراطيس السباخ عليه، قرر أن يجابهه وجها لوجه، ويحرجه أمام الجميع، حتى خرج سيد من خجله، فحمل حجرا وركض خلفه، فشد محمود قاسم وأحمد أبو سعد ـ أخو العروس ـ حبلا كان مرخيا، وتعثر به سيد ووقع، ليقفزوا فوقه وينزعوا عنه ملابسه، قبل أن تفرقهم أيدي المارة.

وبهذا، كان العريس "الهزؤ" حديث الجميع، بينما تكفل محمود قاسم بجعل فخذَي فريدة حلم الجميع.

أقيم العرس في بيت الحاج مصيلحي، وحضرت القرية بأكملها في صوان أمام الدار، وكان إبراهيم والد العروس مازال يناضل هو وبقعة كي لا يتم العرس. إلا أن، في القرية الهادئة ذات الطابع المسالم، يجب أن تسير الأمور بطريقة سلسلة، بلا مفاجآت. وللحق، لم يكن لفريدة، تلك الصامتة التي لم يسمع صوتها كثيرون، أنسب من سيد، ذلك الخجول الهادئ الذي أصبح "نُكتة" لكنه مازال متحمسا للزواج، خاصة بعد أن سمع الأخبار عن فخذَي تلك التي ستصبح ملكا له.

كان الحاج مصيلحي قد اقتطع جزءً من أرضه، وخصصها لبناء بيت مستقل من أربعة طوابق، يسكن به أولاده الأربعة، منفصلين عن بيت العائلة، الذي يؤي كل المصيلحية المقيمين هنا؛ وقد ضاق بهم. وكان

Twitter: @ketab_n

الجيل الأصغر منهم يكمل تعليمه، ويتزوج من خارج العائلة، ثم ينتقل لمكان بعيد. حتى بناتهم، انتقلوا مع أزواجهن من العائلة أو خارجها إلى أماكن أخرى، ولهذا صار البيت الرئيسي القديم لا يسكن به سوى كبار السن، ومن لم يكملوا تعليمهم من الشباب، ورغم ذلك ضاق بهم، وقرر الحاج تمييز أولاده، فبنى ذلك البيت الجديد، وكان نصيب سيد هو الطابق الأخير. ولم تشتكِ فريدة، رغم ذعرها من ذلك الارتفاع الشاهق، كما لم تنجح محاولة الحاج في تمييز أبنائه، فقد أصبح ذلك البيت مجرد مكان للمبيت، وبقي البيت القديم هو البيت.

اختلطت فريدة مع نساء العائلة، ولم يختلفوا كثيرا عن بقية النساء، فهن يتشاجرن دفاعا عن أطفالهن، ويتناوبن على إعداد الطعام، التنظيف، مراعاة الطيور، تملق السيدتين الأكبر سنا والأكثر نفوذا؛ أم الحاج مصيلحي وأكبر بناتها.. يتبادلن النكات البذيئة، يفعلن كل ماتفعله بقية نساء القرية، إلا أن قصصهن كلها كانت عن إنجازات أقاربهن المتعلمين، وطريقة عيشهم الفارهة بالخارج، لذلك لم تخجل فريدة، واستجابت لطلبهن أن تكشف لهن عن فخذيها، محور كل الأساطير والأخبار لدى المراهقين والعجائز في تلك الأيام؛ ولم تر النساء سوى حقيقة أن لا شيء مميز لديها، وهي لم تر سوى أن تلك غيرة الـ"نسوان"، وشعرت بالزهو لأن ما تفخر به تملكه هي شخصيا، لا يملكه أقاربها.

أصبح بقعة شرًا لا يطاق، فهو الشيء الوحيد الذي يتسبب في إزعاج السكان كلهم. لكل منهم مشكلته الخاصة التي لا يبوح بها، خجلا أو خوفا، أو أملا في أن تزول دون أن يفضح سره. إلا أن بقعة أصبح مشكلة للجميع، فلم يخجل أحد من البوح بذلك، وشكواهم إلى أبيه لم تكن ذات جدوى، فالرجل اختار أن يعيش وحده، في خلاف دائم مع

Twitter: @ketab_n

أشخاص خياليين، وفي سلام تام مع كل البشر وأمه أيضا، كانت قد انصرفت عنه تماما، وتفرغت لمحاصرة أمراضها ومحاولة اصطياد أحد ابنائها، كي ترى احفادها في زيهم النظيف ووجوههم اللامعة، فتعرف أن عمرها لم يهدر، وأن ذلك إنجازها هي، فينزاح عنها إحساس الكآبة.

وكان الشجار ما بين "أحمد إبراهيم أبو سعد" وبين "بقعة" القشة التي قسمت ظهر الحاج إبراهيم، ولم يعد يطيق الصبر، فخرج مع أكبر أبناءه، ليأخذ حق ابنه الأصغر، وكبلوه بعد شجار طويل معه ومقاومة من رفاقه، وسحبوه حتى دار آل سعد، ليؤدبوه هناك. ولم يعترض أحد على منظر الشاب الصغير المكبل، الذي يحاول تخليص نفسه كل لحظة، ويؤذي من يستطيع إيذاءه ببصقة أو حفنة تراب، غير سيل السباب الذي لا يتوقف. لم يعترض أحد، فغير أنه ابنهم ويربونه ـ كما قال الحاج إبراهيم ـ وغير أن أغلب السكان لهم ثأر معه، الا أن العامل الأهم، الذي جعلهم في ذلك المشهد جمهورا، هو أنهم لا يمارسون أي دور سوى ذلك.

ركض "محمود قاسم" إلى بيت الحاج إسماعيل، ليخبره أن ينقذ ولده، الا أن الحاج كان جالسا في لباسه الداخلي، يدخن ويتشاجر، فلم يعره اهتماما. لذلك انطلق "محمود قاسم" إلى البيت المعزول، الذي يسكن به سائق العربة النقل، وأخبر صالح، الذي جمع بعضا من رفاقه، وذهب إلى دار سعد، وهناك دارت معركة تحرير بقعة، التي لم تنتهِ سريعا، بعد أن اضطر كل افراد العائلة للتدخل دفاعا عن حرمة البيت، محاولين الاحتفاظ بالأسير. تلك الليلة الصاخبة، حين كان الأرز يعوم في غيط الحاج مصيلحي، والصراصير والضفادع تملأ الدنيا ضجيجا، قمر غير مكتمل، وجهه أصفر في السماء، ومعركة لم تحسم حتى الفجر على الأرض، السكان في حلقة كبيرة حول البيت، يحاولون التدخل في حدود

Twitter: @ketab_n

دور الجمهور، الحاج مصيلحي الوحيد القادر على حل هذه الأزمة نائم لا يمكن إيقاظه الآن، وبقعة فك قيوده وصار عبئا على البيت من الداخل، فتركوه ليذهب مع رفاقه، لكنهم اتخذوا قرارًا ألا يدفع أحد مليما للحاج إسماعيل وزوجته، فهم لم يعودوا ينتمون لآل سعد بعد الآن، ولم يعودوا يملكون شيئا هنا.

يوجد دائما ما ينغص عليك صفو الحياة، فتجاهد وتكدح كي تعود لتنعم بسلام الطفولة، لكن تلك الحالة لا تعود، فحين تخرج من أزمة أو تمر من ضائقة، ترى نفسك تجاهد من جديد كي تصل لتلك الحالة من السلام والهدوء، وإن وصلت، يأتيك شعور كئيب بأن ذلك ليس ما تمنيته، وأنك قدت المعركة في اتجاه خاطئ.. ذلك الإحساس بالسعادة الذي أتاك في الطفولة لا يعود أبدًا.

في الطفولة القصيرة لسكان القرية الفقراء، لحظات سعادة شكلت، وإن كانت قليلة، حائط صد ضد النفور والكلل من كدح الحياة المتواصل، فكل من يحيا هنا خبر شعورا جيدًا، ويكمل حياته بكل مساوئها، عله يقابله من جديد.

انتهت أزمة صبي النجار مع عائلة سعد، منذ أن عاد؛ أو بالأحرى منذ أن رحل. فقد انشغل آل سعد بخلافاتهم، وأكثر الناس افتراءً لا يمكنهم قول أن "أحمد"، ذلك الصبي الهزيل الهادئ، الذي أحرق وجه "أحمد إسماعيل، بقعة" بالولعة، قد أثر على اتجاه حياته، فالأخير منذ ولد وهو مفرط النشاط، كثير المشاكل. غير أن العلامة التي فوق حاجبه ليست سوى واحدة من عدة علامات في جسده.

Twitter: @ketab_n

بقعة الآن لم يعد يبحث عن لحظات نشوى، إنما صار يبحث عن مصدر رزق، وهو ليس متعلما ولا يعرف صنعة، فكان من الطبيعي أن يصل إلى عالم الليل، ذلك العالم الموازي.. بينما يبحث أحمد النجار عن لحظة من المتعة، في تلك الحياة المملة القاتلة، فهو في سن الانطلاق. يخرج من القرية في الخامسة فجرا، مرافقا عمه الهادئ، الذي حين ينطق يُسبح أو يستغفر يعبرا الترعة في اتجاه الشارع الترابي، لكن لا يدخلاه.. ويسيرا بمحاذاة الترعة مسافة ما بين الاثنين والثلاثة كيلو، كي يستقلوا عربة نصف نقل أجرتها للفرد خمسة عشر قرشا، تلقيهم في طريقها أمام مزرعة الفاكهة التي يعمل بها "صبري" وهنا تبدأ المشكلة، فأحمد لا يعلم أن كان ما يفعله هذا بأجر أم لا، فهو يتجول طوال الوقت حول المزرعة، ويثير الكلاب، وينتظر شيئا مريبا يحدث، كي يركض إلى عمه، الذي يجلس يشرب الشاي ويسمع الراديو أمام "الفرشة" أو نائما عليها. لكن الصبي لم يجد أبدًا شيئا مريبا.

ينتهي اليوم عند المغرب، ويعود معه نفس الطريق، لكنه يرى وقتها أطفالا يلعبون البلي، أو شبابا يدخنون في زاوية، فلا يدري إلى أي جيل ينتمي، فهو قد صار وحيدا مبكرا.. في سن الانطلاق لازم الصمت، وفي ذروة التوحش الجنسي لازم البيت، وفي الوقت الذي يبحث فيه رفاقه عن المغامرة كان يبحث عن شيء ليفطر به، ويتذكر لحظات اللهو في الزقازيق، وتبلور شيء ما أمام عينه، حين كان يبحث بين ركام الطبلية عن شيء يؤكل، ووجد "ورك فرخة" مغطى بطبق، قد يكون نايب أحدهم من فرخة أول أمس، مازال محتفظا به.. وقد يكون طُبخ خصيصا لجده لعلاج أحد أمراضه المتكاثرة، أو.. لا يعنيه على كل الأحوال لمن كان هذ الورك، ودخل في نوبة سعادة بعد انتصاره، فهو، الذي كان يبحث عن أي شيء

Twitter: @ketab_n

يسد الجوع، سيأكل "زفر" خبأه في نصف رغيف، وقرر أن يأكله بعد أن يفك حصرته. أثناء الذهاب إلى دورة المياه وأثناء التبول، كان إحساسه بالفرح قويا. لكنه بعد أن انتهى، قفز سؤال سخيف إلى ذهنه. ماذا بعد أن تنتهي من التهام تلك الوجبة؟ ستعود كما كنت تماما، بنفس حالة الملل والفراغ، لن تضيف تلك الوجبة شيئا، فلا تأكلها واحتفظ بها، كي تحافظ على ذلك الإحساس المنعش.. أجِّلها، وفِّرها إلى آخر الليل.. وماذا تفعل حتى آخر الليل؟ تلك الوجبة ليست سوى لحظات استمتاع أثناء تناولها، الآن أو فيما بعد، وما إن تنتهي في أي وقت، حتى يعود للحلق إحساس الوحدة والملل، فقط ستكسر سم الحياة للحظات؛ ولِمَ؟

توقف أمام "لم؟"، ولم يجد إجابة لم يبحث عن المتعة، أن كانت الحياة في الأصل مملة. أن المتعه الزائلة تلك هي مدخل الرجال والشباب إلى الهلاك، وتجعلهم أشخاصا بلا قيمة، يقودهم المعسل، الحشيش، الأفيون، والعاهرات.. ستقودك المتعة إلى الحضيض. وتجرأت على عقله تحذيرات الشيخ صبري، عمه، من الشهوة، حب المال، الضحك، العبث، الخمر، الغناء، والكوتشينة. أن الله قد حرم علينا كل ما يحمل بين طياته ذلك الإحساس بالرضا، الذي يبحث عنه منذ أن عاد من الزقازيق، وهناك كانت تلك الحياة اللاهية التي أوقفته عن النمو ـ كما قال الشيخ ـ فبقي كما هو طفلا، بينما من في سنه الآن ضعف وزنه وطوله. لقد حُرموا من المتع الطفولية، فصاروا رجالا ونضجوا. غاب في تذكر نصائح الشيخ صبري، إحساس الغربة في الزقازيق، لحظة اكتشاف البلوغ وتحذير الشيخ، مشاهدة النساء ومتابعة خطواتهن وتحذير الشيخ، التساؤل حول أن كان لعمله أجر وزجر الشيخ، البحث عن ثمار ناضجة في المزرعة.

دق الباب عليه، ثم اقتحم جده المكان، فوجده ممسكا بنصف الرغيف

Twitter: @ketab_n

وداخله الوليمة المسروقة، فوبخه وقرص أذنه بغل، وتركه ليرحل.

اكتشف يومها أن هناك صوتين يتعارضان في رأسه، بين نفس أمارة بالسوء، وبين نصائح لا نهائية بها الخلاص. ذلك الضجيج في رأسه يعيقه عن فعل أي شيء، يفقده تركيزه طوال الوقت، ويغرق في متاهات بلا مخرج تملأ وقته. لكنه خاف من تلك الأفكار التي تأتيه، والتي سبق وأن سمع تحذيرات بشأنها، وأدرك أنها من فعل "الشيطان" بنفسه، وأن السبيل الوحيد لإيقاف ذلك الهزل هو أن يملأ وقته بشيء آخر، فقرر هجر عمه صبري، والبحث عن عمل يلهيه عن التفكير في المتع، وينقله إلى مرحلة الرجولة ويتقاضى عنه أجرا.

رفض عمه صبري في البداية، وقاوم بكل الطرق أن ينفصل الصبي عنه، إلا أن جده وافق وأطلق سراحه في البحث عن عمل، فتوجه تلقائيا للشارع الذي يربط القرية بالسوق، وهناك وجد له أحد معارف جده نجارا، واعتاد الفتى أن يمشي بتلكؤ في طريقه حتى يصادف سيده على كارو أو حمار يحمل البرسيم والخُضرة إلى السوق، فيركب على الحمار بعد أن يوافق صاحبه، وعلى الكارو حتى لو رفض صاحبها.

لكنه لا يعرف ما الفأرة، وما الكابولي، الصنفرة وأرقامها، الغراء من رائحته، كل تلك الأشياء كانت غريبة عنه، رغم كون اسمه النجار، فصرخ الأسطى، بعد أن فاض به الكيل، أنه لا يحتاج لصبي يجلب له الماء، فتلك وظيفة يقوم بها أحد المارة.. وطرده.

عاد في طريق السوق، وقابل محمود قاسم صبي الكهربائي، والذي مازال منتظما في التعليم، وكان قد تعرف عليه خلال الأيام القليلة التي عمل مع النجار فيها، حين كانا يبحثان عن كارو أو حمار ينقلهما.

Twitter: @ketab_n

وتشاورا، بينما يتقاسمان سيجارة، في وضع أحمد الحالي، وأفتى محمود قاسم بأن لا حل له سوى الالتحاق ببقعة "سامع عنه أكيد"، فأجاب نافيا، فأخذ الكهربائي يقص عن بقعة وأفعاله البطولية ومغامراته الخارقة، وأنه الآن "كسيب" وفي لقائهما الأول، أنكر كل منهما سابق معرفته بالآخر؛ أحدهما يخشى على هيبته المكتسبة في السنوات الأخيرة، والآخر يخشى على عمره.

لم يتحمس النجار لأفعال بقعة البطولية، والتي كانت في جوهرها سرقة أو ابتزاز بالسلاح، ووقع في أزمة المحظورات كلها حين دخل معهم بيتا من طابقين، الأرضي منه دكان ليس به بضاعة، وهو مجرد واجهة لفناء خلفي هو غرزة، والطابق الأعلى به بعض النساء سيئات السمعة. لم يطمئن لوجوده في ذلك المكان، كما لم يكن مرتاحا لأفعال رفاقه.

لكنهم رفاق، وهو الشيء الذي يبحث عنه، وخشي أن يلفظوه، خاصة وأن أغلبهم أكبر منه سنًا، وكلهم أكبر منه حجما. لم يكن من عمره سوى بقعة وسيد خميس، أما محمود قاسم فكان ينضم أحيانا قليلة، وفي الأعمال الأقل خطورة وإجراما. لكنه محمود قاسم وجد لنفسه منصبا، وبتلقائية أصبح مقربا من الجميع، هادئ قليل الحجم، فاشل في كل شيء ـ هكذا رآه أعمامه وجده ـ ، ضعيف وحيد فقير ـ هكذا رآه الغرباء ـ . أما رفاقه، الذين اقترب منهم، بعد أن أدرك ـ بفضل "ورك الفرخة" ـ أن لذة الحياة بلا قيمة، وأن الزهد فيها ينجيك، فقد رأوه حكيما. وملأه ذلك الإحساس زهوا، وأخذ دور محمود قاسم في الإفتاء، في الأثناء الكثيرة التي يغيب فيها الأخير. لكنه بقي بحاجة إلى عمل، كي يجيب على سؤال جده حين يعود للبيت كل ليلة، خاصة وإن عمه صبري أصبح مضطرا

Twitter: @ketab_n

أن يتجول بنفسه في المزرعة، وظل يُقلب الجد عليه كي يعود الصبي للعمل معه ويتقاضى أجره بدلا منه، كما كان يحدث دوما.

يحتاج الفتى أن يعطى أي شيء لجده، الذي أصبح الآن يتحمل عبئا ثقيلا فبعد أن اختفت أمه آخر مرة، تركت للجد فتاة، هي الأكثر إزعاجا وتذمرا، بلغت آخر أيام المراهقة ولم تتزوج بعد. وزادها ذلك إزعاجا وتذمرا وإثارة للمساكل، فهي تقضى وقتها كله بصحبة سيدتين هن زوجتي جدها؛ إحداهن كئيبة، أكبر من زوجها سنًا، قليلة الكلام، أولادها الثلاثة خرجوا من ذلك العالم الضيق، وأصغر أبناءها هو والد أحمد وأخته. والزوجة الأخرى صغيرة، ليست جميلة بأي صورة، جاءت من عائلة فقيرة، لدرجة أن بدا لها ذلك البيت عظيما، ولها أيضا ثلاثة أبناء، أكبرهم متزوج حديثا والآخر لم يتزوج بعد، وكلاهما يقيم معهم في نفس البيت، ويزرعون ـ مع والدهم ـ الأمتار القليلة أمامه وخلفه، وأصغر أبناءها هو الشيخ صبري.

فاطمة كانت مصدر قلق للجميع، حيث أن الفتيات من عمرها تزوجن، أو على أقل تقدير تجري في تلك الأثناء اتفاقات الزواج، كما أنها لم تكن طيبة المعشر، لذلك وافق جدها دون أي تباطؤ أو مماطلة على طلب أحد أفقر جيرانه بأن يزوجها لابنه "جابر"، ولأن العريس ووالده وأخوته قد أنفقوا كل ما يملكون على إقامة غرفتين بالحديد المسلح جوار بيتهم، كان على أسرة العروس تجهيزها بالكامل. ولمن يبحثون عن الجزء المثير في القصص، لم تعني لهم تلك الزيجة شيئا، أولئك الذين يقضون أغلب وقتهم في تناقل أخبار الناس حول النار في ليل شتاء بارد، لن تأخذ قصة تلك الزيجة معهم أكثر من جملتين، حيث تنتهي الأخبار المسلية، ولن يجد أكثرهم سوى تغيير الموضوع أو الانتقال لخبر سريع آخر. غير أن

Twitter: @ketab_n

إضافة أن جد العروس هو من سعى للزيجة وتحمل كل النفقات رغم ضيق حاله، فتح الباب عن آخره لطرح أفكار وتصورات ونكات، وانتشرت تلك الشائعة، حتى لم يعد أحد يدري هل كانت حقيقة أم أن أحد المساطيل قد أضافها، ليضيف لقصته المملة تشويقا. لكن ذلك لن يغير في حقيقة الأمر شيئا، وهو أن أحمد النجار ملزم، كباقي أفراد البيت، بالمساعدة في تجهيز العروس، لذلك اشترك في أعمال بسيطة مع رفاق بقعة، كأن يراقب مكان أثناء سرقته، أو يقف "ناضورجي على طريق يصطادون فيه الطلبة، إلا أن العائد لم يكن مناسبًا، خاصة أنهم يجبرونه على السهر معهم على المقهى حتى الفجر، قبل أن يبدأوا "عملية" وقد تنتهي السهرة بأن يعود كل فرد إلى بيته، ولا عمليات، طالما الجيب عمران، لذلك ذهب لـ"محمود قاسم" ليفتيه، وأفتاه أن يبحث عن شيء ذا قيمة، صاحبه غافل عنه، ويدلهم عليه، فيكون بذلك نصيبه كبيرا من شيء قيمته كبيرة، دون أن يسرق أو يغضب ربنا، فقضى الشاب وقته كله في تأمل السكان وما يملكون.

الحاج مصيلحي يتشائم من عد بهائمه، ويطلقها في زريبة ملأى بالعلف، كما أنه بخيل لا يوزع على الفقراء حين يذبح، ولا يُخرج ذكاة. عجل يتسلل للخارج، عم مصطفى البقال يترك الدكان ويذهب للصلاة، لكنه يسرق في الـ"كيلة" ويبيع "الحاجة الساقعة" والسجائر، وهي أشياء حذره الشيخ صبري منها؛ فقط نصف ما بالدرج لأنه يصلي. عم فرج يأكل اللحم يوميا، وأصبح قفاه في سمك الجدار.. بولس الحلاق مسيحي..

الناس لاحظوا سرقتين فقط من عشرات السرقات، وكانت تلك السرقات تحولا نوعيا في نشاطهم، حيث كانت سرقاتهم الأولى تحدث

Twitter: @ketab_n

على أطراف القرية، أما الآن فهم يتوغلون في العمق.

وكان لعائلة "سعد نصيبها، فهم أكلوا حق بقعة، وجعلوا من أبيه وأمه فقراء ينتظرون العون من الغريب، واكتئب أبوه بعد انخفاض كمية المخدر التي يحرقها، كما كانت رحلة أمه إلى بيت العائلة لطلب المساعدة من النساء، اللاتي ـ للحق ـ لم يردوها يوما خائبة، رحلة يومية مهينة، فكانت سرقة بيت العائلة بينما كل سكانه بالداخل أغبى ما يمكن عمله.

بقعه سُلم للشرطة، رغم محاولات كل أفراد العائلة منع كبيرهم ـ الحاج إبراهيم ـ من ذلك، إلا أنه كان قد اكتفى منه، فهو لم ينجح في سرقة البيت.. نعم، وضبط متلبسا، إلا أنه لو تُرك سيأتي بشر جديد لا محالة. فبعد أن تسبب في جعل فريدة ـ ابنة الحاج ـ على ألسنة كل الخلق، وضرب ابنه، وامتدت يده لتطاله شخصيًا أثناء محاولته لتأديبه، تسبب في القطيعة بينه وبين أخيه الحاج إسماعيل، جلب أصدقاءه ليحرروه من بيت العائلة، والآن يجلبهم لسرقته!!

سلمه قسم الشرطة للشرطة العسكرية، والتي أكرمته، تماما كما أكرموه في القسم، ولم تكن محاولاته في الدفاع عن نفسه تتسبب له سوى في المزيد من الضرب، فاستسلم تحت قبضاتهم، وأُرسل للتجنيد قسرًا. سيد وأخوه هربا مع أصدقائهم الآخرين، بعد أن نال بعضهم ضربتان أو ثلاثة، والبعض الآخر تلقى "علقة" تليق بلص. أحمد النجار، الذي كان ناضورجيا فوق سطح المنزل، لم يتمكن من إبلاغ رفاقه بالداخل حين سمع الحركة، فهي كانت من الداخل!.. لذلك ظل كما هو فوق السطح لساعات طويلة، حتى هدأت الأمور ورحل.

Twitter: @ketab_n

تجتاح الخرسانة كل شيء.. المزارع، بيوت الطين الصغيرة، ملاعب الطفولة، الزرائب، والدكاكين.. تتحول كل الذكريات إلى أسمنت مسلح، يتقلص عدد الشباب في القرية برحلات الخليج، ثم يزيد عدد البيوت الحديثة الملونة بألوان الطيف، يملأ الردش القنايات الصغيرة، والأوز يخالط الفئران والعِرَس في تجولها بين النساء الجالسات متشحات بالسواد أمام بيت الحاج مصيلحي، الذي توفي بعد أن وضعت فريدة أول أبنائها الذكور، ولم تكن قد أسمته بعد، فتبرأت من عهدها بأن تسميه مصيلحي كما جده، وأسمته "عمرو" ليتوافق شكليا مع اسم أخته سارة. تزوجت فاطمة رغم كل الظروف، ورغم تقصير أخيها، أحمد النجار، معها؛ لكن العرس أقيم، وحضره رجل مع زوجته كانا في غاية الغموض، جاءا قبل العرس بيومين، وناما في بيت الجد، وقيل إنهما أبو العروس وأمها، لكنهما لم يطيلا المكوث كي لا تكتشف الشرطة وجود الرجل. لم يبق منهما سوى ذكرى هشة لوجهين مرهقين لا يحملان ود، رغم أنهما أغدقا على العائلة المكروبة المال، ورحب الجميع بهما، واستقبلتهما فاطمة بالبكاء، وبالبكاء كان الوداع.

ولم يعنِ كل ذلك لأحمد شيئا، فقد رحل بعد الفرح الصغير، الذي لم يوزع به على الحضور سوى الشربات، ولم يكف كل المدعوين، إلى ميدان الجيزة، حيث بدأ مشروعا بمشاركة محمد ابن عم مصطفى البقال. كان المشروع عبارة عن فرشة يبيع عليها الملابس الحريمي، ولم يغرِه في الأمر سوى تخيله حول كمية العاهرات والسافرات، والنسوة اللاتى سيسمحن له بملامسة مؤخراتهن وصدورهن، بينما الخرسانة تضيق الخناق على القرية.

تخلى الشيخ صبري عن عمله كخفير، وتفرغ لخدمة المسجد، ورزقه

Twitter: @ketab_n

الله من حيث لا يحتسب وجعل له مخرجا، فتزوج وبنى هو أيضا بيتا خرسانيا، في الأمتار القليلة خلف بيت أبيه، وحرم أخوته من نصف المساحة التي يزرعونها، لكنهم ارتضوا أن يأخذ ذلك الجزء كنصيبه من إرث أبيه، ويترك لهم البيت والجزء الأمامي.

طُلقت فاطمة وعادت إلى بيت الجد، لكن أحدا لم يرحب بها هناك. كانت جدتها غائبة عن الوعي ملازمة للفراش منذ زمن، وجدها قد توفي، لذلك، حين جاء زوجها ليردها لم تتدلل.

النجار لم يلمس مؤخرات أو صدور، وتطارده الشرطة يوميا، وسخر الباعة والمارة من بضاعته الملونة الملفتة، لكن لم يكن يزعجه شيء أكثر من الإتاوة، التي كانت مفروضة عليه في بداية وجوده هناك. الأخبار تقول أن الحكومة تنوي بناء طريق يقطع القرية، ويفصلها عما بعد الترعة؛ غير أن هناك إشاعات غير منطقية حول ردم الترعة.

الحاج إسماعيل أبو سعد فقد آخر برج في عقله، فأصبح يجوب القرية في ملابسه الداخلية القذرة، مباعدا ما بين ساقيه، وقد أصبح هزيلا لدرجة مرَضية، ومازال يكلم أشخاصه الوهميين، يجادلهم بحماس ويتشاجر معهم، فيسعل ويسقط، فيشفق عليه أي من عائلة سعد، إلا أنهم يخشون الحاج إبراهيم، الذي زوج أصغر أبنائه وأكثرهم إزعاجا، أحمد، إلى فتاة صغيرة جدا ونحيلة أيضا، من بيت عم فرج، الذي يبيع ويشتري كل شيء، ويركز نشاطه الآن في الخردوات والأدوات المنزلية. وقد ذكر له عم فرج، ذو الكرش الضخم والشارب الصغير، في جلسة حشيش أن أخاه إسماعيل يشحذ منه حتى الحشيش، فأزعجته الفكرة التي أضحكت جميع الحاضرين، وذهب بعد أيام قليلة قضاها في تعذيب ضميره، وعاد بالحاج إسماعيل وزوجته الست عنايات إلى بيت آل سعد،

Twitter: @ketab_n

وترك البيت الخرساني الذي باعت الست عنايات آخر محتوياته حتى السرير النحاس والطشت، وابتهجت العائلة بعودتهم.

مشوار النجار ومحمد إلى الميدان يوميا مرهق، وكانا يضطرا لترك البضاعة لدى "ماندو السايس. وبما أن محمد هو صاحب رأس المال، فاضطر النجار بعد فترة إلى العمل وحيدا، وفضل أن يبيت على الرصيف فوق البضاعة جوار السايس، ثم سرعان ما أصبح هو السايس بعد القبض على ماندو. نمت لديه الخبرة التي تجعله يبدو شرسا وخطرا رغم ضآلة حجمه، عن طريق تضخيم صوته واستخدام كلمات قليلة محددة المعنى ـ إلا أن ذلك المعنى يخفى على الكثيرين ـ وثبات أعصاب مفتعل في مواجهة أي موقف، حركات يد واحدة كثيرة بينما الأخرى ثابتة، نظرة عدائية للجميع، رفع القدمين عاليا أثناء الركض بينما يداه ثابتتان، والميل بخصره قليلا، فيبدو لمن ينظر له من الخلف وكأنه يتراقص.. تلك المظاهر، التي جمعها من شخصيات أخافته، جعلته يبدو خطرا بالنسبة للمارة ومن لا يعرفونه؛ أما زملاه على الرصيف فكلهم يؤدون نفس الأداء. واحتاج لأكثر من ذلك كي لا يصبح لعبة في يد سائقي السيارات الأجرة وتبَّاعيهم، ولا شهامي الكلة النائمين على الأرصفة، واختار ضحيته التي يرهب بها الجميع، ذلك الشاب الأخرس النائم على الرصيف ممسكا بكيس ملئ بالكلة، ينفخ فيه ثم يستنشقه، حين بادر الأخرس باختطاف نصف جنيه من يده، فقرر النجار أنه سيضع حدا لذلك، فصرخ في وجهه، إلا أن الأخرس ركض، فأثار ذلك حنقه، وتخيل أنه كلما تحصل على جنيه أو نصف، سينتزعه منه أحد السرسرية.. ركض خلفه، وهو لا يعلم ماذا يفعل أن نجح في اللحاق به.. الأخرس ممتلئ وذراعه في حجم ساق.. ذلك لم يعنيه، ركض بأقصى سرعة، ووقف

Twitter: @ketab_n

الجميع يشاهد، وأدرك أن تلك اللحظة هي تحديدا التي يكون فيها أو لا يكون.. وقد كان.

الصيف حار لدرجة تجعل المارة يخشون لمس أي شيء معدني، كي لا يلسعهم بسخونته، والصيف لزج يجعلهم يخشون لمس بعضهم، كي لا يلتصقوا لثوانٍ، يتمدد بعدها الجلد ليتحرر، فيبدو وكأن حولهم هالة تمنعهم من التخبط. أولئك المارة الذين يستقلون السيارات الأجرة أو التاكسي ويرحلون، يأتي غيرهم، ولا يبقى في الميدان سوى النجار يبيع الملابس الداخلية الحريمي، ويركض تجاه أي سياره تقترب من الرصيف، ليفرض عليها جباية، أصدقاؤه يبيعون لعب الأطفال، الأحذية الرجالي، وعلى الجانب الآخر، على رصيف المسجد، يجلس شيوخ ذووا لحى وروائح نتنة، يبيعون السواك، المسك، والبخور.. جوارهم سيدة وابنتها في جلاليب سوداء يشوون الذرة.

يمر "جُرص بائع التمر الهندي، والذي يحمل معه دائما مادة إخبارية.. فقد يحذرك من تحرك للبلدية، أو يشرح لك ما دار من مشاكل ومشاجرات، أو حتى يقص لك عن حياة أحد الباعة زملائك، وبهذا، حتى أن لم ترغب في التمر ستشربه، لتروي عطشك للمعرفة. و"جُرص" لم يكن لديه إجابة حين كانوا يسألونه ماذا فعل النجار بالأخرس تحديدا، ولماذا المبالغة في عقابه، وحاول هو أيضا أن يُخرج معلومات منه، فشعر النجار بالفخر، وافتعل الغضب كي ينقل الشاب الصعيدي ذلك مع التمر، وبالفعل انتشر بين الجميع ألا تغضبوا بائع "الالبسة"، وتقرب منه بعض الباعة. وكان يدرك تماما في أي لحظة وعلى أي شيء يثور، ويتخير الضحية الذي أن عجز عن

Twitter: @ketab_n

ضربه بيديه لن يضيره أن يستخدم أي آداة، هذا أن لم يكن كلاهما محظوظا ووجدا من يمنعهما من الاشتباك. تحرش به العامل الذي يجمع الكارتة من السائقين في موقف الميكروباص، فأدرك أنه لن يتمكن من فعل أي شيء مع ذلك الوحش، كما أنه لو دفع له ليبتعد عنه كما يفعل الجميع، وكما فعلوا جميعا مع الذي سبقه.. لو دفع له سيفقد الهيبة التي أنهك نفسه في الشهور الأخيرة ليبنيها.. أن لم يتحرك تجاهه، سيعود كما كان يدفع إتاوة.. كما أنه لن يصبح صاحب الحق في الرصيف، وسيعمل كل من فوقه كـ"سُياس

سخرية الباعة والمارة من بضاعته، لا نساء على الإطلاق في حياته المزعجة المرهقة، لا أم له ولا أب، أقاربه في الزقازيق كانوا يتجاهلونه، وبينما كانت أكبر بناتهم تذهب للمدرسة، بقي هو في البيت مع الأطفال الأصغر سنًا ممنوعا من الخروج، ممنوعا من التعليم، ممنوعا من العمل، ممنوعا من اللعب، وممنوع كل شيء، حتى عاد إلى قريته طفلا، بينما كان رفاقه....

هذا كل ما تذكره، بعدما سألوه عما حدث فلم ينطق.. كل ما يذكره بعد ذلك هو الصفعة التي استقرت على قفاه، ثم ركضه تجاه عامل المُوقَف. لم يكن ـ حينها ـ قد قرر بعد ماذا يفعل، ودارت هذه الذكريات برأسه، ثم رأى السائقين يركضون، وفي مستوي نظره إطارات الميكروباصات، وعلى يديه دما، وتحته عينا يخرج منها نافورة دماء.

ذلك الإصبع.. وكأن الشيطان يسكن إصبعك، تشعر فيه بشيء غريب، كأنه يدغدغك طوال الوقت. جالسا القرفصاء، بينما يتكلم الشهود مع الضابط. لم تتمن ذلك، أردت فقط أن تحافظ على كرامتك، ولا تدري ما حدث. افتعلت غضبك، لكن لم تكن في كامل وعيك، ومر

Twitter: @ketab_n

الحادث في لحظة.. حين أفقت ورأيت ما فعلت، امتلأت ندما، وأردت أن تفعل أي شيء كي تصحو من النوم لتجد ما حدث حلما، أو تفعل أي شيء وتسامح فيما أهدر من كرامتك، أو أي شيء كي يعود الزمان للوراء ولا تصبح أنت ذلك القاسي الدموي؛ حتى لو لم يحترمك الجميع. إصبعك يتراقص، سبابة اليد اليسرى غسلتها مئات المرات، منذ أن خرجت من الحجز بعد التصالح، ومازالت تتلاعب بك رؤية غامضة، تأتيك بين الحين والحين.. صور من الطفولة يصاحبها سباب وصراخ، ألم في خصيتك، ثم تملأ أنفك رائحة الإسفلت الساخن، ويرقص ذلك الإصبع اللعين، فيمتلئ قلبك بالوهن.

عاد إلى القرية، التي تغيرت في تلك الفترة كثيرا، فحل التراب محل الطين، والردش يملأ الترع والقنايات، الخرسانة.. وكأن ذلك الإصبع لن يتوقف عن الإلحاح عليك بنبضاته وارتعاش شيء ما داخله. ربطته بشاش أبيض، وخزته بالإبر، أكلت الظفر حتى جذره، ولم يغطِ الألم على تلك النبضات الهادئة التي تجري فيه. ملأ اعمامه البيت أطفالا، بعد أن أصبح كل منهم لديه زوجتين، وزادهم ذلك عددا وفقرا، خاصة وأن الأرض قد ضاقت. الشيخ صبري في بيته الرمادي الصلب، زوجته شابة، ولا يقدر النجار على مقاومة النظر إلى جسدها الفائر، ورأى الشيخ ذلك منذ أن دخل بيته. فاطمة يتحملها زوجها وتتحمله بالكاد، أنجبت طفلة أسمتها فاطمة، وكأنها تستنسخ نفسها. رفاقه أصبحوا رجالا، ومرة أخرى هو متأخر بخطوة، جميعهم يعملون وأغلبهم قد تزوجوا، بل أن أحمد إبراهيم أبو سعد أنجب سعدا.. لا مكان له في ذلك العالم المتداعي، والذي يدعي كل سكانه أن لا شيء يحدث، ومستمرون في الزواج والإنجاب وكأنه الخلاص الوحيد، بينما تتآكل الأرض ويتغير

Twitter: @ketab_n

لونها.. لا مكان له كي يبيت، ولا شبرا يسعه.. سيعود إلى الميدان.. لكنه لا يمكنه تحمل ذلك الإصبع!

فى الميدان، تغير الوضع للأبد.. محمد ابن عم مصطفى البقال، المالك الحقيقي للفرشة، عاد ببضاعته للقرية، بعد مرض والده، ولرغبته في الزواج، فألحق الفرشة بدكان أبيه. وانزعج أغلب السكان لذلك، واختارت مجموعة المُصلين الشيخ صبري لينوب عنهم في إخبار الشاب أن عرضه للملابس الداخلية في محل البقال لا يليق، خاصه وأن النساء لن تشترى منه قطعا، وهو بذلك لن يجني سوى إحراجنا جميعا. لكنه استقبل الشيخ بجفاء، ووعده أن يرفع البضاعة أن دفعوا له ثمنها، فرحل بعد مشادة قصيرة، وخيبت النساء ظن الشيخ، فاشتروا منه ألوانا زاهية، وتقبلن نظراته وكلامه المتبجح لسبب أو لآخر، وعلم الأزواج كلهم بذلك، لكنهم خشوا التحدث فيما بينهم، وظل كل منهم يفاوض الظنون وحيدا.

سيد مصيلحي وحده لم يتحمل حين رأى اللون الأخضر المشع، وعلم من أين حصلت عليه فريدة. ثار وهاج، فهو لم يكن ينقصه أن يتكلم أحد عن ملابسها الداخلية، بعدما تكلموا أعواما عنها. رحلت إلى بيت أبيها، في نفس الليلة التي ثارت فيها الست عنايات على الحاج إبراهيم، بعد أن قرر نقلها هي وزوجها لغرفة أصغر، كي يمنح غرفتهم لابنته فريدة وأبنائها. ذُهل الحاج إبراهيم في أول الأمر ولم يدر ماذا يفعل، ووجد نفسه عاجزا عن التصرف، بعد أن ثارت عليه زوجة أخيه المخبول، فاضطر للعدول عن قراره أمام الجميع، بعد أن نهرته وهددته بالعودة إلى البيت الخرساني الذي أسكن به الحاج ولده أحمد، الذي ترك شاربه وكرشه ليشكلوا مرحلة النضوج في حياته، وأمضى جُل وقته في

Twitter: @ketab_n

لعب الطاولة على المقهى والكوتشينة مع محمود قاسم، الذي أصبح كهربائيا، في منطقة لم تدخلها الكهرباء إلا حديثا، ومازال يجمع القرش فوق القرش ليتزوج، وقد حرمه كون أبوه موظفًا من نعمة الزواج المبكر

فى ذلك الوقت، كان كل المتعلمين يهربون من القرية، التي تتحول ببطء إلى شيء غير محدد المعالم، تتسع بتؤده تجاه الحضر، وتنكمش بسرعه حقولها ومزارعها وبهائمها، حتى أن في ذلك الوقت لم يعد أحد يملك أكثر من دابة، سوى ورثة الحاج مصيلحي، وهو الذي عمل بالزراعة طوال حياته، وتعلم بعض أبنائه وأبناء أخوته الزراعة. أما الذين أكملوا تعليمهم من العائلة، فقد رحلوا إلى مناجم الذهب بصحراء الخليج، يبحثون بطريقة مزرية عما يجلب لهم حياة مختلفة عن آبائهم، الذين لم يتحرك أحدهم للأمام قيد أنملة، وعاشوا كما مات أجدادهم، وربما يكونون قد تراجعوا، بفعل تقسيم الميراث. والآن، جيل جديد يظهر بعد الجيل المهُدر، شباب لم يروا من الزراعة سوى آثارها، ولم يروا من المدنية سوى جحودها.. مضطرون للعمل، لم يرثوا من آبائهم ثروة، أو علم، أو صنعة.. يبدأون من قاع المستنقع، ويلتحقون بأي عمل، مثل مندوب مبيعات في مناطق بعيدة لبضائع بلا قيمة، كما فعل "علي قاسم" الأخ الأكبر لمحمود قاسم، أو صبي في محل الكشري، كسامح ابن السيدة الغريبة التي تقلي الطعمية على الأرض في مدخل السوق وتبيعها للسيدات الكسالى، أو "زوزا" الذي عمل في كل المحال المحيطة، حتى استقر به الحال ليساعد الحاج حمدي وأولاده في المقهى.

وكان البدء في إنشاء طريق أو كوبري، أو أيا كان اسم ذلك الشيء العملاق الذي يمر فوقنا، هو المسمار الأخير في نعش القرية، حيث بدأ المشروع بتغطية الترعة، أي جعلها تمر في مكعب خرسانى تحت مستوى

Twitter: @ketab_n

الأرض، والغيط بعد الترعة لم يكن ملكا للحاج مصيلحي من الأساس، فلم تنتزع ملكيته، لكنه فقط انتُزع. وجاءت إلى تلك الأرض أدوات ومعدات وعمال من كل صنف ولون، يبحثون عن مسكن مؤقت، عن مقهى، وعن نساء يتابعون خطواتهن واهتزازات أجسادهن، يحملون النقود لكنهم لم يكونوا أثرياء على الإطلاق، فهم عمال، بل عمال عند الحكومة "واللى عند الحكومة ما بيروحش"؛ لكنه أبدًا لا يأتي.

الجنيهات وأنصاف الجنيهات هي نقود وفقا لأولئك السكان، الذين يتبادلون فيما بينهم كمية محددة من العملة. فمثلا الحاج "حمدي مالك المقهى، يأخذ من الزبائن، ويدفع للبقال والحلاق، فيعودون ليدفعوا له، لكونهم هم الزبائن.. وعلى ذلك الأساس دارت النقود في القرية، والذين يعملون خارج القرية هم ممول رئيسي، حين يتسلمون رواتبهم الهزيلة قبل نهاية الشهر بأيام، فيسدون ديونهم، وكلها أوراق حساب "شكك" من كل الباعة، بدءًا بالمقهى وانتهاءً بكل الدكاكين، وهكذا تدور الحفنة حتى تستقر بطريقة أو بأخرى لدى المصيلحية، أو عم فرج الذي يأكل اللحم يوميا حتى أصبح قفاه في سمك الجدار.

آخر "جالوص طين" رُفع، ليمر الماء لآخر مرة، في آخر "قناية" على الترعة، التي هي حالة وسطى ما بين ترع الري والمصارف، منذ نشأت البيوت الأسمنتية واضطرار السكان لاستخدامها كمصرف، بعد فشل البيارات في القيام بالمهمة، كما أن نزحها عملية مقززة ورديئة.. وهكذا امتدت البيارات إلى الترعة، وألقيت القمامة على جانبيها، لكنها مازالت تحافظ على دورها الرئيسي في الزراعة، وتمثل جزء من شخصية المكان، وجزء في حياة سكانه، بدءا من اصطياد القرامبط، الدبابير، وغسيل البهائم والملابس، حتى ري المزروعات، وإعداد الطعام.

Twitter: @ketab_n

والآن، خرج السكان يشاهدون آخر لحظة في عمر القرية، التي ورثوها عن آبائهم فقيرة مجحفة، وتمنوا دوما أن يرحلوا عنها، لكنهم لم يفعلوا ولم يتخيلوا أن يكونوا هم الجيل الذي انتهت في عهده حياتها المألوفة، وتفككت فيه عائلاتها الكبيرة.

على كل الأحوال، الترعة إن كان غرضها الري فستبقى، هم يغطونها فقط بغطاء وجوانب خرسانية، وكأن عدو هذا العالم الطيني الأسود اللين هو الأسمنت المسلح الرمادي القاسي. عملية بطيئة، لكنهم قد احتلوا المكان، أرضا بلا زراعة من حولهم، عربات تخلط الاسمنت وتلقي به، عمال يمسكون شيئا كالمقشات ويسحبون الخليط، سيارات أخرى تحمل حصى ودبش، ماكينات ومعدات عجيبة، رجال في زي البهوات يتحدثون، وشباب في جينز ونظارات يطوفون حول المكان حاملين أوراقا وأجهزة، عمال يشبهوننا، يلبسون ملابسنا، لكنهم جاؤوا من بقاع أخرى. كانت الإشاعات تتكلم منذ زمن عن ذلك الغزو، إلا أن تلك الأفكار لم تبد منطقية ولا يمكن تصديقها. هناك من صدقوها، لكن لم يكن بيدهم شيئا يفعلونه سوى التأكيد للمستمعين والاستشهاد بأماكن قريبة حدث بها ذلك، ويضطرون ـ لكي يثيروا الجمهور ويجبروه على متابعة الحديث ـ إلى إضافة بعض اللمسات أو حذف بعض الحقائق، لذلك صارت أسطورة ردم الترعة وبناء طريق سريع شيء مرعب لدى الجمهور، حتى أن أصحاب اللمسات والإضافات بدأوا يخشون على حياتهم وأرزاقهم، ونسوا أن نصف ما قالوه محض خيال.

ظهر أول الغرباء نذير شؤم، ثم جاءت بعده وفود، فانتابت الجميع حالة من الفزع والذعر. وفي سهرات مطولة وأحاديث تم تبادلها مئات المرات، قرروا أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وأن هناك شيئا يجب أن

Twitter: @ketab_n

يفعلوه، وأفتى من أفتى أن الحل هو الشكوى للحكومة، لكن العائق الوحيد كان "وهو حد يروح للحكومة برجله؟"

بيننا محامي، هو أخو بولس الحلاق، ويدعى سمير.. "انصحنا يابو سمره"! سيفعل كل ما في وسعه، بعد أن نفش ريشه وتنطع في جلبابه المقطوع من تحت الإبط، فأخبرنا أنه لا يقبل أتعابًا، حيث إن القضية قضيته.. كيف تردم الترعة؟

قال سامح، الصبي الذي أصبح الصنايعي الوحيد في محل الكشري، والذي لا ينطق أبدًا دون لعثمة ولألأة، فلا تفهم نصف كلامه.. كما أن وجهه الأبيض ملئ بالبثور الملونة بعدة ألوان، بثور طازجة لونها أبيض مستفز، أو أنه قد خدشها وعصرها فتحولت الحديثة منها إلى لون أحمر داكن، والقديمة صارت بنية.. فكان الكثيرون لا ينظرون إلى وجهه أثناء الحديث، خاصة عندما يعبث في تلك البثور بأصابعه. ودون حركة الشفاه، لما كان أحد قد أدرك أن سامح يقترح منع الغرباء بالقوة، مقاومة مسلحة! وهو في الأصل لن يضار، بل وقد يستفيد من هذا المشروع، لكنه يدرك الخطورة من الأحاديث التي ينقلها المتحدثون الرسميون، وأن بقاء الترعة أهم من بقاء السكان أنفسهم. خلف الترعة مزارع، يعمل بها الفلاحون "أجرية" ـ عمالة مؤقتة ـ غير قطع أرض صغيرة مملوكة لبعض عائلات، بيوت متناثرة، محال قليلة، بهائم، وعربيات كارو، جداتنا في جلاليبهن، جدودنا فوق الحمير والنساء، الأطفال يركضون ويلعبون، وتمر من فوق أحد الجسور الخشبية لترى الوجه الآخر أمام الترعة، شارع به كل الخدمات. مقهى للترفيه مقاعده الخشبية بالية، به طاولة ودومينو ومقر سري للكوتشينة.. محال لبيع الطعام الجاهز، كما سكان المدن كشري وكبابجي وبائعة الطعمية على الرصيف، ومن هذا الجانب تمر الحمير تجاه

Twitter: @ketab_n

السوق، ويمر المتعلمون تجاه العلام، ويمر سفراؤنا إلى العالم الخارجي.

ردم الترعة سيجبرنا على التخلي عن أحد الوجهين. فبعد الهدم سيُبنى كوبري، كما أن الأرض الملاصقة ستبور، وبهذا ستتراجع القرية خطوات للخلف، ويتراجع الشارع في الاتجاه الآخر، ويفصل بينهما كتل أسمنتية صامتة، تحمل فوقها سيارات الغرباء فنتوه. على أي حال، العمل يجرى الآن، وأولئك الغرباء يحملون نقودا تنفعنا، يقولون كلاما يضحكنا، ونشاهد في ذهول تلك المعدات المدهشة، التي ترفع القذارة من الترعة وتلقي بها على الجانبين.

* *

يكثر الذباب في النهار، ويطول النهار بالصيف، ويستمر الصيف طوال العام.. اعتدنا الأمر ولم نعد حتى نندهش.. غرباء يمرون، أصوات مزعجة، اضطرابات في الري لمن يزرعون، صعوبات في الوصول للسوق لمن يصلون؛ لكن الجميع يتغلب على ذلك، وتستأنف الحياة بواقعها الجديد.

فريدة تعلمت في بيت أبيها كيف يمكن للمرأه أن تسيطر، فالست عنايات امرأة يدعوها الجميع باسمها ـ وإن دعاها الأصغر سنًّا "أم عمر تأدبا ـ كما أنها من قرية مجاورة، وليس لها أقارب هنا، وزوجها قد ترك العمل منذ سنين، ورغم ذلك تمكنت من تعليم أبنائها، ونقلوا إلى عالم آخر، والحاج إبراهيم بجلالة قدره لم يتمكن من قهرها أو إرغامها على الانتقال للحجرة الأصغر. وحين كانت فريدة تشاهد تلك الواقعة، كانت مشغولة بحالها، حتى وصل الأمر للسباب، وتطاولت الست عنايات على أبيها، فانزعجت وتدخلت مع النسوة الذين تدخلوا، واضطر الرجال

Twitter: @ketab_n

للتدخل في الحديث، وعبر كل عن رأيه بصوت عالٍ، فأصبح الضجيج لا يطاق، فصرخ الحاج إبراهيم بهم أن يصمتوا، ففعلوا.

لكن الست عنايات التقطت أنفاسها وسخرت من طريقة الحاج وصوته، فلم يتمكن البعض من مقاومة الضحك، وقبل أن يلتقط الحاج أنفاسه ويركز في كيفية للتخلص من تلك الورطة، عاجلته هي بنوبة سباب جديدة، مغطاة بستار من كلام فصيح، بصوتها الواثق، وجسدها الممتلئ، فلم يجد الحاج مخرجا سوى العدول عن قراره، وأن ما قاله ليس أكثر من مجرد تفكير وأنه يشورها، ففهمت أنه يتراجع، وتركت له مساحة يثبت أنه "الكبير وصمتت في مقابل عدوله عن القرار

حينها، تغيرت فكرة فريدة، فسيد زوجها لن يكون أبدًا أكثر قوة من أبيها، كما أن هؤلاء الرجال صنف هش، كما أكدت لها أمها قبيل الزواج. الست عنايات أصبحت هي المتحكمة في البيت كله، فهي من يحدد شئون الطعام والمصاريف، تسمين الطيور، التنظيف، والذبح للعزومات، رغم كونها زوجة الحلقة الأضعف في ذلك البيت، خاصة بعد أن أجبروه على التوقف عن الحشيش، فزاد هزالا وذبل، وأطلق لحيته وتجعدت ملامحه، ولم يتكلم مع أحد لمدة تقارب الشهر، بدأ بعده في اصطياد الأطفال والشباب الأصغر عمرا، ليقص لهم عن كونه ثريا وله نفوذ واسع لكنه لا يحب إظهاره، وسرعان ما بدأ الأطفال يتهربون منه، إلا سعيد ـ ابن عبد الله النقاش زوج أخته ـ الذي كان ينصت باهتمام، وبدأ في الاقتناع أن خاله هذا لواء شرطة، وواجبه تجاه الوطن أن يبقى ذلك الأمر سريا، أما النقود فقد وزعها على ابنائه، كي يتمكنوا من شراء القصور التي يسكنونها الآن، والسيارات الفارهة.

فريدة جاءت غاضبة من جديد، فهي ترفع صوتها في وجه سيد،

Twitter: @ketab_n

وتعترض وتحرجه. وشأنه شأن كل الرجال المنقوصين، يجرح ذلك كرامته المجروحة من الأساس، ويدفعه للثورة، فهي أضعف الأطراف التي تتعامل معه باستهانة، ومن الصحي بالنسبة له أن يسترد بعضا من كرامته عن طريق ضربها.

تسخر زوجات أخوته من سذاجتها الشديدة، واهتمامها المبالغ فيه بمظهرها ومظهر أطفالها، ولا تنزعج، بل تشعر بالرضا. لكنهن أحيانا يشكلن جبهة واحدة ضدها، ويبدأن فقرة السخرية، لا تزعجها السخرية قدر ما يزعجها كونهن كتلة واحدة موحدة، وهي الغريبة بينهن، فتشكو إلى سيد ولا يفعل شيئا، يتجاهل كلامها ويطلب شيئا، أي شيء كي ينتهي الحوار، فترفض أو تتلكأ حتى يعترض، ووقتها تفاجئه بما تعلمته من الست عنايات، كلام كطلقات البندقية الالية، قوي لا يتوقف سريع، ترفع صوتها وتبدأ، لكنها تتردد وترتبك، فيخرج الصوت غير مناسب لتعابير وجهها وأدائها الحركي، وسرعان ما ينقطع حبل أفكارها وتصمت. ورغم أن كل ما قالته هو جملة قصيرة غير مفهومة، أو غير متسقة مع حركة يدها، يشعر سيد بإهانة بالغة، فيرد بيديه.

تبدأ في الصراخ من قبل أن يلمسها، ويستمتع هو بكونه مرعبا. تعود لبيت عائلتها، وتجد العيش به أكثر راحة واطمئنان، فتبقى. في البداية، كان يأتي سيد وأحد أخوته الأكبر أو أعمامه في نفس ليلة رحيلها. لكن، وبتكرار الفعل، أصبح سيد يأتي وحيدا بعد ثلاث أو أربع ليال يقضيهم في لعب الكوتشينة على المقهى مع نسيبه أحمد إبراهيم، بعد أن أصبح الأخير أبا له شارب، يدخن الحشيش ولا يعمل شيئا محددًا، فهو يبحث عن سمسرة أو عمولة في بيع أرض أو بيت، أو يقترض ليشترك في مشروع فاشل بين الحين والآخر، يكفي نفقاته فقط. أما زوجته، فتذهب

Twitter: @ketab_n

لبيت عائلته في الصباح بولدها، وتعود لبيتها فقط للمبيت.

وبيت العائلة ذلك أصبح في وضع محرج ماديا، خاصة وأن الحاج إبراهيم قد كلَّ من الزراعة، التي لم يكن يساعده فيها غير أولاد أخيه وابن عمه، وبقية أفراد العائلة إما رحلوا أو يتعلمون ـ فى سعيهم للرحيل ـ أو يتنطعون دون عمل، مستمرين فقط في التزاوج والإنجاب، حتى ضجر الرجل. وحاول ابنه إبراهيم إقناعه بأن يبيعوا الأرض والبيت، ويأخذ كل فرد نصيبه. لم تلق تلك الفكرة الشاذة أي استحسان أو قبول من الحاج، واكتفى برد مقتضب غير مفهوم. "والبس كاوتش؟"، ثم ضحك..

ردم الترعة جعل لأفكار أحمد إبراهيم قيمة، فالحاج يعرف ـ كما الجميع ـ أن لا زراعة بدون ترعة.. البيت لا يمكن بيعه بأية حال، الحال ضيق، قطعة أرض صغيرة تُباع لفك الكرب ودفع مصاريف التعليم.

الشيخ صبري لديه من الزوجات اثنتين، ومن الأبناء خمسة، ومن التابعين خمسين. زاد الرجل طولا وعرضا، إمتلأ وجهه، وغذى لحيته بالسمن البلدي، لتبدو قوية ولامعة، يرزقه الله من وسع لكن لا أحد يعرف له عملا محددًا، فهو يتجول بين الناس في القرية وفي الأماكن القريبة، ينصح ويُهدى ويُرشد. ومهنة الشيخ الجوال تلك معروفة منذ فترة، وكل من مارسها عاش على الكفاف، يرتحل بين الأماكن القريبة، كما الأراجوز أو نافخ النار. شيخنا تزوج، ثم عاد ليتزوج، وحبلت زوجتاه في نفس الوقت، وأنجبت إحداهن توأمًا.. "والله يضاعف لمن يشاء

فاطمه بنت فاطمة، أشرس الأطفال وأكثرهم طولا وفي جيلها

Twitter: @ketab_n

المزدحم، كانت هي محور الاهتمام، والطفلة الأكثر إزعاجا، ولم يكن الشيخ صبري ـ وهو في مقام جدها ـ ليتدخل لو كانت ذكرا، لكنها أنثى، ولا يجوز أن تسئ لسمعته، حتى وإن كانت طفلة. خرج مطرودا من بيت فاطمة الأم ـ وهي الأصل في الشراسة ـ بعد أن رحبت به في البداية، في نفس تلك الليلة كان هناك اجتماع بين كبار القرية، ليناقشوا اللحظات الأخيرة، ويدرسوا كيف سيتعاملون مع الماء، أو بالأحرى من دونه. حضر الجلسة سمير، وهو الوحيد الحاصل على شهادة عليا ومازال مقيما بيننا. وكانت أعصاب الشيخ مضطربة، بسبب طرده من بيت فاطمة، بعد أن وبخها على سلوك ابنتها، كما يفعل مع كل النساء اللاتي يسألونه عن كيفية تقويم أبنائهن. رد فعلها كان مختلفا، فاضطر لرفع درجة الوعظ، حتى وجد نفسه يُطرد من البيت، دون مراعاة صلة قربى ولا احترام للحية. والأدهى من ذلك، أنه خرج ورأى مجموعة من تلاميذه يمرون مصادفة، فهل يا ترى سمعوا؟

أفاق على صوت سمير يقاطع أحدهم قائلا "ده اسمه جهل.. فقاطع الشيخ سمير قبل أن يكمل كلامه، واحتد عليه، وأثار ذلك حنق المحامي الشاب، لكنه لن يتمكن من الرد، فهو قد اعتاد التفكير طويلا قبل اتخاذ أي تصرف، أو حتى النطق بأي كلمة، وكلمة "جهل" التي تردد في قولها عشرات المرات خرجت حين سأله أحدهم عن رأيه، بعد أن تناقشوا طويلا في اقتراح إزالة الخرسانة بعد رحيل الغرباء، ولم يكن أيضا ليلفظها لولا الوضع الذي منحوه هم له في الأيام الأخيرة، فصار واحدا من أهم السكان، وعرفه الجميع، بعد أن أبعده التعليم عن المكان فترات طويلة أفقدته علاقته برفاقه، الذين أصبحوا أكثر حميمية، غير أن حصوله على شهادة عليا جعله يترفع عن الغوغاء، الذين هم كل السكان.

Twitter: @ketab_n

الإهانة الموجهه إليه الآن قوية، ولا أحد يدافع عنه. نظرية حماية العلم له سقطت الآن، وبلا رجعة. ابتسم ابتسامة صفراء، ادعى بها أنه لا يشعر بالإهانة. لم يخرج أو يترك الجلسة، كي لا تصبح هزيمته وإهانته هي حديث الليلة، وغدا، وإن لم يحدث شيء آخر خلال أسبوع، ستظل تطارده. تحمل مشاق النظر لوجه "صبري"، وهو أقل منه علما وثقافة ووسامة، لكنه يجرؤ على مخاطبته بهذه الطريقة، ويوبخه!

جلس سمير وحيدا فوق أحد الأوناش، وتأمل منظر القرية في تلك الليلة الحارة اللزجة، وقد بدت السماء متألقة بكل نجومها. لونها نقي، لكن الهواء ثقيل.. يشوي أحدهم الذرة، ويفتح أحدهم الطلمبة ليروي؛ وقد تكون تلك آخر "رية"، بعد أن أصبحت الترعة بركة أو مستنقع. عالم بدائي خلفها، ومستعمرة للفقراء والعاطلين عن العمل أمامها.. ما شأنه هو بذلك العفن؟ لم لا يترك تلك القذارة ويرحل؟ لن يدع إهانة صبري تمر

للشيخ الآن أتباع، ومن بين أتباعه عرفة، وهو الابن الأكبر للحاج مصيلحي. وعرفة لا يحتاج لكُنية أو اسم مُكمل كي يتميز، فهو عَلما باسمه، له خمس بنات متزوجات، وثلاثة أبناء تزوج اثنان منهم، ولم يبق بين يديه سوى حسن، أصغر أبنائه وأكثرهم وقاحة في مواجهته، وقد يكون الأكثر وقاحة في مواجهة عرفة في العالم. كان يسخر من أبيه أثناء جلسة العشاء، وقال إن أباه أصبح الذراع الأيمن لصبري. توقف الجميع عن تناول الطعام مذهولين، وانتظروا الكارثة.. عرفة يقال عنه ذراع أيمن! هكذا دار السؤال في خلد كل الحاضرين.. ذلك الغول أطول من في القرية دون أدنى منافسة، جلده سميك وكتفيه في عرض رجلين متوسطي الحجم، عملاق، صوته مزعج، قاسٍ مع الجميع، وكلمته نافذة

Twitter: @ketab_n

على كل من في القرية، بفضله تمكن والده ـ الحاج مصيلحي ـ من ري حقليه أولا، فبعد أن كان الاتفاق القديم يقضي بأن يروي الغيط الأقرب للترعة أولا، ثم ينتظر للثالث أو الرابع كي يروى الغيط الآخر، وبعد مشكلة قصيرة حول الثالث أم الرابع، تدخل عرفة مكان أبيه، فصار يروي أولا وثانيا، واستمر الوضع على ذلك، وكأنه يأكل ثم يترك لهم البقايا، وأثناء الأكل، يوجه له ابنه حسن تلك الكلمة!

لم يكن تدليله لحسن يعني أنه لا يُضرب، فهو مثل الجميع يأخذ حقه من اللكمات من تلك اليد، والتى أن رأيتها منفصلة عن جسده، لن تفطن أنها يد من الأصل. إن كان حسن قد ذاق بعد كلمته تلك قبضة والده، لما كان هناك داع لذكر الواقعة، وما يجعلها مميزة أن عرفة لم ينزعج مِن وصفه بالذراع اليمين، بل أضاف "وقل رب زدني علما"، وكأنه أراد أن يقول أي آية من القرآن، فلم يذكر سواها.

الشيخ صبري في ذلك الوقت أصبح أهم الشخصيات وكبير عائلته، رغم كونه أصغر إخوته، وكون عائلته ليست كبيرة أو ثرية ليصبح كبيرها شيئا ذا قيمة. لكنه، بمساعدة عرفة، أصبح طرفا رئيسا في مجالس الأزمات والنزاعات. دعم كلاهما الآخر، حتى أصبح ذلك الحلف هو الأقوى دون أي منافسة، وأصبح المتحكم الرئيس في كل الأمور، في تلك اللحظة الحرجة التي تكثر بها المشاكل. ورغم معرفتهم أن كل محاولاتهم لا يمكن أن تؤدي إلى إيقاف المشروع التخريبي، وأن الترعة تُردم الآن بالفعل، إلا أنهم ملئوا الدنيا كلاما حول قدراتهم. وحينها، لم يكن أمام السكان سوى التسليم بالأمر الواقع، أو التشبث بالأمل الأخير، وهو تصديق الثنائي والانصياع لأوامرهما دون النظر لتفاصيل أو مكاسب حققها أي منهما.

Twitter: @ketab_n

واقع الأمر وقتها أنهما فعلا يقودان هذا العالم، يتحكمان في كل شيء، صبري بقوة عرفة وعرفة بشرعية صبري. ووقعوا في اختبار مُحرج، حين كان السكان يستخدمون كوبري بدائي الصنع للعبور، وأثناء الليل سُمع صوت طقطقة الأخشاب، عقبه صوت شيء سقط في الماء، وعاد الصمت من جديد، فعاد الجميع للنوم أو استئناف ما كانوا يفعلون. وفي الصباح، كانت نساء القرية تُعدد على الطفل الصريع، وبدأت أصوات الغضب والحنق والاتهامات تظهر أثناء مناقشة الرجال للحادثة، خاصة وأن كلهم ـ حتى من لم يعمل منهم بالزراعة ـ قد خافوا من ردم الترعة، وذلك التحول المُريب الذي لا يضمن أحد عواقبه، وكيف تستقيم الحياة حين نفقد جزء من مكوناتها الأساسية. ستتغير الجغرافيا، وتتغير الأعمال والدخول.. سيمر بيننا الغرباء، ونصبح كالسوق، يأتيه من يشاء وقتما يشاء.. ستباح ذكرياتنا، ونساؤنا، سنذوب في عالم واسع لسنا مثله، سنفقد أشياء كثيرة، رغم كون الجيل الأصغر لا يعرفون مواعيد الرؤ أو حجم الماء لمحصول ما، كما نُميز بالكاد بين الذرة والقمح، إلا أننا نعرف وجود الزراعة، حتى إن لم نعمل بها، لا نعرف تراثا نتمرد عليه سواها، ودائما ما كانت الملاذ الآمن حين يضيق بنا العالم، فنجلس فوق الكوبري الخشبي نتأمل تدفق الماء الهادئ في الليل، وتملأ الضفادع آذاننا بالنقيق، وتنبح كلاب على بعد.. يمر رجل من مسافة، فيرفع يده بالتحية، أو تجلس بين الحقول تسمع غناء فلاح أو شاب هائم، بينما تشرب شايا ساخنا من براد حُرق مرارا بين قوالح الذرة، تنام بعدها مرتاحا، وكأن روحك قد غُسلت، وكأن الزراعة هي أصلنا، وحين نحتار نعود إليها فتُهدينا دمرناها بيدنا مرارا، إلا أن فقدانها للأبد فكرة مخيفة. سندافع عنها بكل ما نملك من قوة، ما قولكم؟

Twitter: @ketab_n

احتار الثنائي فيما يقع، وللحق كان عرفة متعاطفا مع فكرة المقاومة تلك، فرأى صبري أنه لا سبيل سوى الانضمام لفريق الدفاع عن الترعة، لكنه تيقن أن لا قيمة للمحاضر، البلاغات، الاستغاثات، والشكاوى.. حتى بعد وساطة أساتذته الشيوخ الكبار، وأستاذه ومعلمه الدكتور صبحي، الذي يملك المزرعة التي كان يعمل بها. تساءل حول مدى نفع تلك العلاقات، لكنه سرعان ما طرد تلك الفكرة، وعاد إليه الإيمان بقيمة معرفتهم، حين استأذنه أحمد النجار أن يبحث له عن أي عمل لدى الدكتور صبحي، وبرر له ذلك بأنه لا يجد مكانا للمبيت حين يعود. رضي الشيخ بتعاليه على الشاب، الذي قرر مؤخرا الابتعاد عن ميدان الجيزة، بعدما رآه واضطر لفعله هناك: سايس، بائع على فرشة لا يملك بها قشة، يشارك في نصبة شاي، تلك هي مؤسسته في الميدان. يحاول طوال الوقت البقاء مبتعدا عن كل الشهوات، التي أدرك منذ طفولته أن هلاكه فيها: النساء، ولم يكن الأمر باختياره مطلقا.. الدخان، وقد كرهه منذ حرمه عمه، لكن وضعه الاجتماعي يفرضه عليه.. ولا يرفض الهدايا المقدمة.. الطعام،المال، الغضب.. كل تلك الأشياء تدمره، ويذكِّر نفسه طوال الوقت ألا يفعل، وحينما يفعل يذكِّر نفسه بأنها المرة الأخيرة. لم يتخيل أحد أن ذلك الهزيل الفقير قد يصل يوما إلى سلطة كتلك التي حققها هنا. قد يكون ذلك سبب عدم تحذير الشيخ منها.. سلطة على مجموعة من الباعة الفقراء في ذلك المكان المزدحم!

تهرَّب لفترة من الرجل الذي فقد نصف نظره على إصبعه، قبل أن يستقر الوضع ويهدأ، لكنه يعلم أن لا أحد هنا يترك حقه، وأن عينا منه هي أقل ما ينتظره، فتوخى الحذر. نام قلقا واستيقظ مترقب، حمل سلاحا، إصبعه ينبض بين الحين والآخر، يخشى لحظة يأتي فيها الهجوم

Twitter: @ketab_n

ولا يجد نفسه مستعدا، فيتوتر وحين يجادله أحد، يتخيل مباشرة أنه الكمين وقد نصب، فيهجم!

يهدئه أصدقاؤه والمارة، ويزيحون من تحته الضحية، بينما هو يفكر في كيف سيعيش إن كان ذلك الكمين يستهدف كلتا عينيه أو أطرافه، أو أنه سُيمثل به بأي صورة، ويصبح أحد المشردين النائمين على الأرصفة وفي أجسادهم مئات الطعنات، لا يدركون لم يتعمد الجميع إهانتهم، والصغار منهم يلوط بهم مقابل قروش. يرى الجميع من حوله يمسك به، فيتأكد من كونه الكمين، فيثور من جديد، حين ينتهي الأمر ويفيق من نوبات الثورة، لا يتذكر سوى بداية المعركة ولا شيء آخر أدرك في لحظة أن الجميع يخشاه، وأنه قد يتعرض لحملة جماعية تنهي إرهابه، فلم يزده ذلك سوى توترا وقلقا، حتى لم تعد الحياة محتملة في ذلك المكان، خاصة بعد أن سقط من الإعياء، حين قضى خمسة أيام لا ينام، فعاد إلى قريته في جيبه بعض النقود، لا يعرف ماذا يفعل، وأخذ يبحث عن أي مكان ينام به. التقى أصدقاءه من جديد، محمود قاسم، أحمد إبراهيم، محمد ابن البقال، وأقام فوق سطح قاسم يومين، ثم في دكان البقال ليلة، وعند أحمد إبراهيم لم يكمل الليلة، خاصة حين رأى ساق زوجته تلمع، وأدرك أنه إن استمر في ذلك المكان أكثر من ذلك، سيتسبب ساقها في كارثة.

كان يجلس معهم على المقهى شاب أصغر منهم قليلا، تملأ وجهه البثور يتلعثم، اسمه سامح، وهو الصنايعي الوحيد في محل الكشري الذي يملكه عم فرج. سامح ابن حلال، وأمه تبيع الطعمية على الرصيف، وهو يتلعثم لكنه طيب.. مبررات لم تنجح في إخفاء حقيقة أنه لم يكن يوما ليصبح صديقا للنجار، إلا إذا كان وحيد أمه، ولديهم بيت بحجرتين.

استقر عنده، هدأ في ذلك المكان الذي لم يكن يختلف كثيرا عن بيت

Twitter: @ketab_n

جده، من حيث الأثاث، الفقر، الجدران ذات اللون القاتم، والحصير البني الممزق، لكنه كان أصغر كثيرا من بيت جده. لديهم الطعام متوفر، لكنه دائما ما يدور حول الكشري أو أحد مكوناته في الغداء، والطعمية للعشاء أو الإفطار.

ما يحدث في القرية لا يخفى على أحد، كما أن لا أحد يلتزم الحياد، طالما ظل الموضوع في إطار الكلام. أجمع السكان على نقل الشائعات والأخبار، ورغم كون سامح لا يجيد الكلام من الأصل، ورغم كونه أحد المستفيدين بشكل مباشر من التغيير، حيث أصبح يبيع ضعف كمية الكشري التي كان يبيعها وربما أكثر من الضعف، لكنه مازال مؤمنا بخطورة التغيير وفقدان الرمز، ذلك الشيء الذي لا شأن له به، ولم يفده، ولم يضره، لكنه سيستفيد قطعا حين تنتهي عملية التغيير تلك. ورغم علمه بذلك، كان أحد أبرز المقاومين ـ كلاميا ـ للتغيير، وتصور أنه يقوم بدور وطني كبير حين يعبس في وجه العمال الذين يشترون منه الكشري، كما استحدث المكرونة المستقلة، بعد أن كثر السؤال عنها، لكنه باعها بنفس ثمن الكشري، كاعتراض على العمال. عم فرج لا يهتم بما يدخله سامح في الأيام العادية، فهو قد اتفق منذ زمن أن يأخذ مبلغا محددا، والفارق يتحول لجيب سامح تلقائيا. لكن سامح اضطر في أيام كثيرة أن يقترض من أحد معارفه أو أمه، كي يُكمل اليومية لعم فرج. والآن، أصبح الدخل يفوق اليومية، بل يكفي لسد الديون، شراء عجلة، والبدء في الادخار.

تدخل أحمد النجار كطرف مؤثر في الأحداث اليومية حين حضر الجلسة التي رفع فيها عم فرج اليومية إلى أكثر من الضعفين، بما يكفي لشفط الزيادة الطارئة، وكل ما ادخره سامح سيعود ليدفعه قبل أن

Twitter: @ketab_n

يستدين من جديد حيں يرحل العمال. اعترض النجار نيابة عن سامح، وتأزم الموقف بسلوك عم فرج المتعالي، أثار ذلك أعصاب النجار، الذي رأى في ذلك الكهل ضحية مناسبة ليعلن عن وجوده. طُرد عم فرج من الدكان، فثار وهدد وانفعل، فتلقى ركله تركت بصمة حذاء النجار المهترئ على جلبابه الرمادي النظيف. لكن عم فرج لم يتوقف عن السب والتهديد بينما يبتعد، فأعلن النجار في لحظة انتصاره تلك أن لا أحد له سلطة على ذلك المكان بعد الآن، وأن من يعمل به ـ مُنتج الكشري ـ يملكه.

لم يتوقع أحد وسط قرقعة أدوات ومعدات الردم، في ذلك الصيف الجاف الترابي الخانق، أن تمر تلك الأزمة بسلام. وانصرف الجميع عن مراقبة معدات الحفر والردم، وتابعوا حلقات المعركة التي بدأت وتوسعت، بعد أن جاء أولاد فرج وكل الذكور من أقاربهم أو العاملين في ممتلكاتهم، لغزو الدكان واستعادته. قاوم النجار، وجاء السكان يركضون من كل اتجاه، كي يشاهدوا المعركة. وجاء أحمد إبراهيم مع صديقين له، وحين رأى صديقه ـ النجار ـ مُلقى على الأرض وحوله عشرة أشخاص على الأقل، ركض تجاههم وحاول تخليص الضحية، وتدخل من بعده كثيرون. وانفض المولد بعد أن استعاد فرج الدكان، وأبقى على سامح عاملا فيه، وأجبره على دفع كل ما جنى خلال الأيام الماضية، وتحمل نفقات إصلاح التلفيات، ورفع اليومية إلى ثلاثة أضعاف.

كان النجار في الركن الخفي من المقهى، مع صديقه أحمد إبراهيم ورفيقيه، يحاولون معالجة إصاباته وجروحه، بينما تلتقط أذنه كلمة من هنا أو من هناك. تهديد بالطرد من القرية وما حولها يتكلم عنه الجالسين من حوله، الأخبار المؤكده تقول إن سامح تلقى عددًا من الركلات

Twitter: @ketab_n

والصفعات بعد إتمام الاتفاق، ولم يتركوه ليرحل إلا حين بكى، وما إن سحب دراجته وهو يداري وجهه المتورم الباكي في كُم جلبابه الواسع، ناوله أحدهم "نص فسقط على الأرض، وسُحبت منه الدراجة.. لا شيء يُبشر بالخير.

أحمد إبراهيم اعتبر نفسه جزءًا من المعركة دون سبب واقعي، وظل يُفكر مع النجار في كيفية رد كرامته. وأهداه تفكيره إلى أن الحل جلسة صُلح، برعاية والده شخصيا، ثم انحرف بالحديث ليتكلم عن والده وعن نفسه. الجالسون حول النجار يحاولون طمأنته أنه لن يُطرد من القرية إذا استسمح أحد الكبار في التوسط لدى عم فرج.. أحاديث حول كون الشيخ صبري عمه "لزم" هو ما نجاه، ثم ظهر صوت "تطييب الخواطر يتحدث عن أقل الخسائر وأن لا شيء قد حدث، ثم بدأ حديث الذكريات، وتدفق الكلام عن حوادث مشابهة.. وبدأت الضحكات تعلو!

يبدأ الشجار ويدور، والجوقة تسأل ماذا حدث.. وما إن ينتهي، حتى تتولى الجوقة إعلان الفائز ونشر الشائعات حول كيف دار الشجار، وبعد أن يهدأ الوضع تؤنب ضمير المنتصر، تطيب خاطر المهزوم، وهكذا تمر المشاجرات في حياتنا. ما إن تبدأ الجوقة في ذكر مكاسب المهزوم وتعدد مزاياه، وكيف قاد المعركة ببسالة. يبدأ ذلك الحديث في التسلل من أذنه إلى عقله، عينيه، فيبدأ الستار الغائم الذي كان يمنعه من الرؤية في الارتفاع. يرتفع الستار ببطء، فيسيطر اللون الأحمر على كل الألوان أمام عينيه.. يبدأ في تفسير الكلمات الموجهه إليه، يستثيرون ضحكه فيجد عقله وقد انصرف عن فكرة الانتقام.. يحضر كلاما للرد، تختلف الشخصيات في تلك المرحلة، فقد يخرج رد أحدهم تهديدا ووعيدًا، وهو يحاول رسم

Twitter: @ketab_n

صوره لنفسه ولمن حوله أنه قادر على فعل أكثر مما فعل الآن، ويبدأ في طرح التبريرات.. قد يبكي أحدهم وهو يستعطف من حوله، وقد يضحك آخر معتادًا للهزيمة؛ إلا أن كلهم يعلمون أن لا شيء بيديهم، ويستأنفون حياتهم!

وقتها، لم يكن النجار يسمع أي الجوقات، ولا يرى أضواء، فقط يشعر بألم في مناطق من متفرقه في جسده، ورأسه يتمايل يمينا ويسارا.. لا شيء يدور في عقله، ذبابة تمر من أمام عينيه، يعبث أحدهم معه فيدفع رأسه للأمام، لا شيء يتحرك في عقله، تستقر الذبابة على شفته السفلية، وتغير الجوقة لحنه، فتتحرك الذبابة على شفتيه، يشعر بأطرافها الدقيقة الباردة تلمس شيئا في فمه لم يعتد وجوده، فيتذكر أنه جرح أو ورم، فتعود لعينيه رؤى الهزيمة. يطردها بعنف، لكن لا شيء يحل محلها، فيبقى في حالة الجمود تلك، وكلما نجح أحدهم في إثارة وعيه، وعَى لحظة الهزيمة وكأنها لم تمر بعد.

انصرف الجالسون واحدا تلو الآخر، وغلف الظلام كل شيء.. الدواب اختفت من الطرقات الضيقة الطينية، بدأ الذباب يتراجع وبدأت الصراصير في الغناء، قدماه تنقله من بين البيوت الرمادية، المتدلية على أبوابها مصابيح صفراء صغيرة، تكفي بالكاد لإضاءة الباب الأخضر المتآكل أو البني المنقوش. يقوده الطريق إلى نسوة جالسات في ألوان زاهية أمام بيوتهن، يتكلمن بصوت غير مسموع. يصل إلى أرض ترابية يركض بها شباب وأطفال حفاة، يثيرون غبارا كثيفا بينما يتصارعون في صمت على الكرة.. الآن صوت الصراصير فقط في أذنيه، والغيط الأخضر على اليمين يمر من فوقه هواء لطيف، يستقر على وجهه فينعشه للحظات، فيقفز بسعادة من فوق القناة الصغيرة وينزل على قدميه، فيعود اللون

Twitter: @ketab_n

الأحمر إلى عينيه، والصمت المطلق.. حتى الصراصير الآن لا تغني، والكلب أمامه يحرك فكيه ولا ينبح!

بيت عم فرج على بعد خطوتين، عم فرج شخصيا في جلبابه الرمادي وطاقيته البيضاء. بعدها كان واقفا ممسكا بالرجل الغارق في دمه، يهدد كل المتفرجين.. أبناء عم فرج رجاله سيظهرون في أي وقت. سحبه حتى القناة وأسقطه هناك.. لم تكف القناة لبلع نصف عم فرج.. أعلن أمام الجوقة أنه تركه ليحيا كي يتعظ، وإن تجاوز أي من أتباعه سيندمون. ركض مبتعدا، بينما يُقبل رجال فرج من بعيد راكضين. لم يلحقوه، وأعطوا بذلك الإذن للجوقة أن تنتقل لإطلاق الشائعات.

الوضع مضطرب.. فاليوم نفسه حدثت به ثلاث جولات للمعركة، وهكذا تداخلت الشائعات واختلطت، حيث لم يعد أحد يفصل ما بين دور سامح أو دور أحمد إبراهيم، فكل الشباب رفاق أحمد النجار لهم جزء من ذنبه، وكلهم يتلقون اللوم طوال الوقت على فعله. ورغم أن الفاعل الحقيقي اختفى لبضعة أيام، إلا أن رفاقه ظلوا هم الطرف الرئيسي في الجدل الدائر بين الجميع، والسؤال المستمر عن الحقيقة. ظل النجار يتحرك في أماكن محددة، ويتحاشي الالتقاء بأحد أبناء فرج أو آله، وعاد ينام قلقا، يرى الغدر كمائن منصوبة في كل لحظة. حتى حين دعاه عمه الشيخ صبري إلى بيته، كي يتوسط له في حل الأزمة، فوجئ الشاب بالعز الذي يغرق فيه الشيخ ومن حوله نساء، أطفال، خادمه، وتابعين. لكن كل ذلك ليس مبررا لعمه كي يعامله بذلك الصلف، ويُملي عليه شروطًا، ويأمره بالاعتذار وإلا...!

لم يكن التهديد محتملا، فسب الشيخ بدين أمه، وخرج للفناء يسب

Twitter: @ketab_n

تابعيه، فتعقبه الشيخ منفعلا ثائرا، وأمام داره دارت معركة أخرى؛ لكنها كلامية. تجمع حولهم المارة، وفضوا الاشتباك بعد فترة قصيرة، ووجد الشاب نفسه بصحبة سمير المحامي، الذي كان مارا قبل أن يعجب بجرأة الشاب في مواجهة ذلك الشيخ. اجتمع بعدها فرج مع عرفة والشيخ، لبحث طرد الحثالة من القرية. تحالف الشباب ذلك لن يصمد في حالة إجماع قوة عرفة، ثروة عم فرج، وإسلام الشيخ صبري.. لن يزعجهم سوى كون أحمد إبراهيم نسيب عم فرج؛ لكن والده غير راضٍ عن سلوكه في الفترة الأخيرة، وسيلزمه بأي قرار يصدر منهم، خاصة وأنه تمنى دائما أن يصبح أحد الأسياد، وسيكفيه حضور اجتماعاتهم كإثبات لذلك.

مناوشات تحدث بين الحين والآخر، يتحرك الشباب في مجموعات، قوتهم فقط في عددهم وطول نفسهم أثناء الشجار، لكن كلما كان أحدهم وحيدا في طريق، أصبح هدفا سهلا، وتلقى شيئا من سباب أو ضرب، سواء من الأتباع المباشرين لمجلس الكبار، أو من أولئك الذين يعرفون أنهم منتصرين، فيستبقون النصر بالنفاق. سمير المحامي أدخل تعديلا على قواعد اللعبة، التي كانت تبدو محسومة، وكان الجميع ينتظر خطأ واحدا يقع به أحد أولئك المتمردين، كي يتلقوا نصيبهم من الضرب ثم التهجير. إقترح سمير على أحمد إبراهيم أن يقنع "سيد"، زوج أخته وزميله في لعب الكوتشينة، بالانضمام إليهم. سيد طالما انتظر دورا رئيسيا يلعبه، لذلك لم يتردد لحظة، وأعلن أمام آل مصيلحي كلهم، وبحضور عرفة شخصيا، أنه لن يسمح بطرد رفاقه.

خرج الكلام متقطعا وبصوت ضعيف، ولم يلتفت له أحد. فأعاده بصوت أكثر ثقه، فتأمله عرفة بتعجب، وتساءل بصدق ماذا بيديك

Twitter: @ketab_n

لتفعله، فأجاب أنه سيرفع قضية، وينفصل بنصيبه من الإرث.. كلاما بلا قيمة بالنسبه للجميع، إلا أن كلاما آخر دعمه.. الكلام الذي تتناقله النساء في طريقهن للسوق ذهابا وأيابا، وهو كيف تكون الزراعة بعد ردم الترعة؟ بم ستفيد الأرض بعد انتهاء الزراعة؟ لا أحد يُصدق أن الأرض لن تتأثر بتلك الخطوة، غير أن الأرض لم تعد تكفي حاجات زارعيها من الأساس. اتجاه عام ينتشر بين الشباب، مُعجبين بجرأة النجار ودفاعه عن الحق، وكارهين للفقر الذي كُتب عليهم، وللتعليم الذي لا يعرفون له غاية.. شيء أقوى من أزمة النجار ورفاقه نفسها هو ما يمنع الكبار من طردهم أو سحقهم.. ذلك الشيء أن بيوتهم من الداخل أصبحت مضطربة، الوضع محتقن، النساء تضغط على أزواجهن أن يبيعوا الأرض التي تبور ويفتحوا دكان أو يشتروا نصف نقل، ليصبحوا من ذوي الدخول الكبيرة ويرسلوا بناتهن للتعليم. تظهر مشكلة جديدة كل يوم للقوى القديمة المدافعة عن مصالحها، إلى جوار الشيخ الذي اتخذ جانبهم منذ اللحظة الأولى، بحكم احتقاره لأولئك الشباب، فهو، ككل رجال الدين هنا، يحترم من يفوقه قوة، أو ثروة، ويحتقر من دونه. لكن الأزمة كلها تكمن في أن عقده النفسية هي من يحدد من يفوقه ومن يحتقره.

تبتلع الترعة المشوهة طفلا آخر، ويؤمن الجميع أن ردمها شؤم، وهو في حد ذاته الخلاص. يكرهون ذلك التغيير الذي يطرأ على حياتهم، ويؤمنون أنه يدفعهم للأمام.. يقاومونه على الأرض كل يوم، بينما يدافعون عنه كلاميا ليلا، ثم يدعمونه على الأرض نهارا، ويسخرون من دعاته في الليل.. ذلك التغيير الذي لن يوقفه أحد، ولا أحد يدرك مداه الحقيقي، ولا يملك أحد سلطانا عليه، ليس بيدنا سوى تشويهه وتعطيله، ثم تجميله ودفعه للأمام. يدرك الجميع أن أولئك المسنين الشرسين

Twitter: @ketab_n

لن يُسلموا أو ينهزموا، ويمدك القائل بعشرات الأسباب والأدلة، ثم يقنعك أن الحق في البداية كان للشباب، ثم يسقط في التفاصيل، فيقول 'نه معجب بالنجار، إلا أن ما يفعله غير أخلاقي؛ كما أن سامح غلبان، لكن ليس من حقه أكثر مما يُعطى له، فترد بدورك أن الزراعة ستنتهي مع ردم الترعة، لكن الري سيبقى مستمرا من تحت الغطاء الخرساني، والزراعة من الأصل لعنة جالبة للفقر، لكن لا أحد يعرف سواها، رغم أن السائقين يكسبون الذهب، فيخلُص كلاكما أن "البلد دي عمر حالها ما هيتعدل" وتطلقان تنهيدة واحدة مشتركة.

طال الزمان وهدأت الأزمة، وعاد النجار للظهور علانية أمام الجميع وفي أي وقت. انصرف كل مؤيدي عم فرج إلى أحوالهم، وتركوه وحيدا. عُقدت جلسة صلح في بيت المصيلحية، حصل بمقتضاها سامح على مبلغ ثابت يكفي نفقاته، بينما الزيادة تؤول لعم فرج. اقتطع النجار جزءا كبيرًا من الزيادة، فأخذ نصيب عم فرج في الانكماش، بينما الإيراد اليومي للكشري يتزايد. حينها اضطر عم فرج لقبول إيجار شهري ضعيف نسبيا، خوفا من ألا يحصل على شيء، بعد أن تأكد للجميع أن لا أحد صاحب قرار على الآخر، حتى يبين من يسيطر على أرزاق الجميع ويملك أرواحهم. اعترض سمير على ذلك، حين طالبوه بكتابة عقد إيجار، ورأى أن تلك المجموعة من الشباب، التي يحتقرها في الأصل، بدأت تتجبر.. وقد يصبح ذلك نهجهم، فينزعوا ملكية كل ذي ملك، أو يجبروه على الإيجار مقابل مبلغ زهيد، وذلك خروج عن الحق. ثم إن أخيه بولس قد يُصبح الضحية التالية، فانسحب بهدوء من بين تلك المجموعة، التي كانت علاقته قد توطدت بهم منذ أوحى لهم أن يصرفوا الناس عن تلك الأزمة، ويعيدوهم إلى هم الزراعة.

Twitter: @ketab_n

رفع النجار مع سامح لافتة كتب عليها حراق ، كعنوان للمحل. ونجح سيد مصيلحي في الانفصال جزئيا عن عرفة، وأخذ قطعة أرض من الغيط المسلوب بعد الترعة، فباع جزءا منها لأحمد النجار، في مقابل كل مدخراته التي جمعها أيام الميدان.

رائحة السمن في الهواء لم تزل، والجوع في البطون منتظر لحظات السعادة بشوق. أطفال يتعرفون على العالم بهذه الحال، يخالطون الغرباء، يتسلقون المعدات، خرسانة في كل مكان، وزراعات في بعض الفراغات ما بين البيوت. بعد أعمال الحفر، نقفز من فوق الكوبري الخشبي المتهالك، لنطارد في الجانب الآخر جروا نقطع ذيله.. وفي ذلك الجانب الجراء ما أكثرها. من يكبروننا سنا يستغلون المساحات الفارغة في لعب الكرة، ويتألق "حسن عرفة" كالعادة، فنسرق حذاءه لكراهيتنا في أبيه. نتقلب في التراب والوحل حين نتشاجر على بلية أو نحلة، فتمر الحمير تحمل فوقها كومة كبيرة من نبات أخضر، وسيدة مهيبة في زي أسود، تذكرنا بجداتنا وحكاياتهن المسلية والمخيفة. يشتد بنا الجوع، فنركض في كل اتجاه، لنقابل تلك الوجوه العابسة لأشخاص في سننا أو أصغر، صاروا رجالا يُعتمد عليهم في الشجار، العمل، والتدخين.. فيقفز إلى ذهني متى أتخلص من ذلك النقص البغيض، الطفولة.

يبني النجار بيته بيديه، وينفق عليه من "حراق" أتباع الشيخ صبري في تزايد مستمر، "سيد مصيلحي يبيع قطعة أرض ثم ينفق ثمنها، وقد استقر هو وفريدة وأبناؤهم الثلاثة في بيت متوسط الحجم، في الجانب المزدحم من القرية.

Twitter: @ketab_n

ننتظر الطريق الذي سيوصلنا بالعالم، أجدادنا يخشون الغرباء، وأباؤنا ذهبوا إلى عالمهم وعادوا بلا شي، لكنهم سيأتون إلينا، ونحن تواقون إلى الاندماج في ذلك العالم، الذي لا تعرف بنت أي شخص هذه، فلا نستحي من مغازلتها وإن كرهت، كما لا يعرف أحد من تكون أنت، فلا تخشى المطاردة؟ سنبحث عن المغامرة ونجدها، الثروة، الجنس، والمخدر.. كل شيء في ذلك العالم الذى نستعد للذوبان فيه سحري.

قيل أن الترعة تردم هنا فقط، أما ما قبل وما بعد فهي مستمرة. رأى البعض أن ذلك سوء حظ لا مبرر له، ورأى محمود قاسم أن ذلك لمن حسن الطالع؛ والمطلع يعلم أن ذلك سيجعل من المنطقة قلبا للعالم الجديد، فتصبح كما ميدان رمسيس، لأن الطريق ـ كما سمع ـ سيربط أطراف مصر كلها، بحيث يمكنك السفر من أسوان إلى سيناء عن طريقه، ومن الشرقية إلى مطروح في خلال ساعة، بهذا لن نحتاج إلى الزراعة، وسيعمل جميعنا في البيع. هذا ما أقنع به محمود قاسم أصدقاءه، أحمد إبراهيم وأحمد النجار، فبدأوا في البحث عن مشروع تجاري، كما بدأ محمود قاسم هو أيضا البحث عن تجارة، كي يتزوج خلال عام.. "زينب أخت الولا زوزا القهوجي بت غلبانة وأهلها ناس يعرفوا ربنا"، تلك هي كلمات قاسم لكل من سأله عن العروس، إلا أنه أبدًا لم يذكر سببه الرئيسي في اختياره.. وهو الفقر

يملك والد محمود قاسم بيتًا من طابق واحد، وقد ظل يكدح هو وأبناؤه كي يتمكنوا من بناء غرفتين فوق البيت، وما إن جفت الخرسانة على سطح غرفة محمود، حتى كان بصحبة والده، أمه، علي أخيه، عمه وزوجته، في بيت العروس؛ بينما أخوته الأربعة يلعبون داخل الغرفة الجديدة. لاحظ الأستاذ قاسم، الموظف بالبريد، الكدر على وجه علي

Twitter: @ketab_n

أكبر أبنائه، لذلك أصدر قرارا أن لا زواج لمحمود قبل "علي فأُجلت الزيجة، حتى أقسم علي لوالده أن لا داع لذلك، حيث أنه لا ينوي أو يستطيع الزواج. كاد الأستاذ قاسم أن يقتنع، لكنه لم يرد.. أخذت زوجته تلح عليه أن يزوج محمود، كي يتمكنوا من رؤية أحفاد قبل أن يضيع نظرهم، وبدا للجميع أن قرار وقف القرار بوقف الزيجة في طريقه للصدور؛ إلا أن شيئا أوقفه، وهو وفاة الحاج إسماعيل أبو سعد، رجل آخر أُهدر، وعمر مضى بلا قيمة.

في سرادق العزاء الكبير، ظهر ولداه عمرو وعمر في زيهما الإفرنجي الأنيق ورائحتهما النفاذة. جلس على أول الكراسي الحاج إبراهيم، وقد بدا ضعيفا مهلهلا بينه وبين أولاد الحاج إسماعيل، وقف كل رجال العائلة. لا أحد يكتشف كيف يتقدم الزمن سريعا إلا في تلك اللحظات، الكل يتأمل كم يبتعد عن تلك اللحظة، وماذا تبقى له ليفعل، أطفال يبحثون عن الرجولة، ورجال يبغون الإنجاب، أباء يطمئنون على أبنائهم ويرحلون في صمت، وكأن الهدف الوحيد من الحياة هو التكاثر والحفاظ على النوع!

رحل ذلك الرجل، ولم يبك عليه بحرقة سوى سعيد، ابن أخته، وهو ذلك الطفل الذي استمع دائما لقصص الحاج إسماعيل، حين كان ممنوعا من تدخين المخدرات، فاضطر للتكلم دفعا لجبروت الملل، فوجد أن لا أحد يسمعه سوى ذلك الصبي، فماذا يقول للفتى؟!

لاحظ وقتها متى يشرد الصبي ومتى ينفعل معه، فأعاد على مسامعه كل ما يثير اهتمامه، وعدَّل ذكرياته المتواضعة كي تلقى استحسان المتلقي الوحيد لقصصه البائسة المختلقة؟ بعد وقت قصير، أصبح الحاج إسماعيل

Twitter: @ketab_n

راضيا ومطمئنا، بسبب قناعة الطفل أنه رجل شديد الأهمية والثراء، وكفاه أن شخصا واحدا على الأرض يراه ذا قيمة. لم ير المحيطون أزمة في أن يلتصق الطفل الهادئ الوديع بالشيخ المخبول، الذي بات أكثر مرحا وهو معه، وأكثر كآبة مع الآخرين. توفي على أية حال، وأصبح سعيد ابن عبدالله النقاش، الذي كان يعمل وقتها بالخليج، وحيدا.

صالح خميس، ابن الرجل العملاق الذي يعمل سائقا لسيارة نقل، له إخوه بلا عدد، يسكنون كلهم في بيت معزول على أطراف المزارع. صالح يريد الزواج.. كان أكثر أصدقائه عقلا وثقافة هو علي قاسم، الذي كان أخوه الأصغر ليتزوج، لولا وفاة الحاج إسماعيل، وتحجج والدهم بحجج عديدة لتعطيل الزيجة، علي، وهو الذي أكمل تعليمه حتى الدبلوم، يعمل بائعا جوالا لمنتجات بلا قيمة، يدور على المقاهي والمحال طوال اليوم، ليحصل في آخر الشهر على مرتب يكفيه طوال الشهر سجائر، مواصلات، شاي على المقهى، ومساهمة لا تذكر في البيت، يتراجع عنها كلما خرج إصبعه الأكبر من فم الحذاء، أو ظهر لباسه من نافذة في البنطلون. هو من أكمل تعليمه، والكل من حوله يتزوجون، وهو لا يجرؤ حتى على تخيل ذلك.. أخوه الصنايعي الذي ترك التعليم حين تعثر في الثانوية العامة، وصديقه صالح الذي يعمل سائقا أحيانا وتبّاعا أحيانا وفي أحيان كثيرة لا يعمل، لم يحصل حتى على الإعدادية، وجد نفسه ـ وهو لايحمل أي ضغائن لأي مخلوق ـ ينهى صديقه عن فكرة الزواج. كاد صالح أن يقتنع، والرضا تسرب إلى نفس علي، حتى أراد صالح أن يسمع جملة أخيرة تنهي الجدل الدائر في رأسه.. تلك الجملة كانت فقط ليتأكد أن قراره بتأجيل الزواج سليما، وأراد علي أن يستدل بمشروع أخيه في الزواج وقدر التكاليف الهائلة التي سيضطر لـ..، قاطعه

Twitter: @ketab_n

صالح مندهشا بسؤال. هل يُحضر محمود للزواج؟ قام صالح واقفا، حين علم أن محمود الذي كان يُعلِّمه المشي أمس على وشك الزواج، وأقسم أن لا يفعلها قبله، ورحل غاضبا.

كان النجار في الجيزة لا يتوقف عن العمل، سايس، بائع على فرشة، يُعد الشاي على نصبة، كما أن الشجار أصبح جزءً يوميا من برنامجه، فكثرت مشاكله وعداواته وسط زملائه، وبدأ يفقد أصدقاءه واحدا تلو الآخر، واستشعر الغدر كل لحظة.

توقف أمامه ميكروباص، وأشار له السائق بكوب الشاي الفارغ أن املأه.. تحرك النجار قلقا تجاه صديقه ـ السائق ـ واضعا كوب الشاي بين يديه، فهمس السائق في أذنه أن اهرب، فالكل هنا ضدك وقد شكلوا هيئة يقودها الأعور، مهمتها القضاء عليك أو طردك الليلة!

النجار فوجئ حين سمع الخبر، إلا أنه كان يعلم أن ذلك اليوم قادم لا محالة، فلم يتردد في تصديقه أو ينتظر، فأخرج كل ما أدخره من حفرة في جراج "ماندو"، ربطها حول خصره، وبدأ إصبعه في الارتعاش والنبض بسرعة هستيرية، حتى خرج إلى الأمان.

تكلم صالح مع النجار في موضوع الزواج، وكان لدى النجار دين في رقبته تجاه ذلك السائق، فرأى أن أفضل طريقة لرد الدين هي أن يخلصه من إحدى أختيه بتزويجها لصالح، لكنه خشي أن يحتك به أحد هناك، فصحبه علي قاسم، صالح وأخاه سيد، كي يتمكنوا من رد أي اعتداء. قابلوا السائق على المقهى، وقبل أن يطرح النجار الموضوع، دخلت فتاة نحيفة سمراء في سن المراهقة، وأخذت تسب وتلعن، ثم اشتبكت مع عامل المقهى، فتدخل عامل آخر من المقهى ليشرح لها بأدب أنه لا يخرج

Twitter: @ketab_n

مشاريب للزبائن، إلا أن ذلك الزبون سبب الخلاف أراد شيشة وهي لا تبيع سوى الشاي على النصبة، فأدرك النجار أن تلك الفتاه ورثت مكانه على النصبة، فتدخل في الحوار. لكن أحدا لم ينجح في فض ذلك النزاع، وبدأ السائقون وبائعو الرصيف يتجمعون ليعرفوا ماذا يدور، فاضطرب النجار وأصر على الرحيل، خشية أن يراه أحدهم ويتعرف عليه. لم تكن تلك الزيارة مهمة لأحد سوى لـ"علي"، الذي رأى في تلك المراهقة الشرسة عروسا مناسبة.

لم يكن "علي" أحد أولئك الذين لا يخرجون من القرية إلا نادرا؛ بل كان يوميا يزور عدة مناطق في القاهرة، وفي مشوار العودة الليلي يتوقف ـ بحكم المواصلات ـ في ميدان الجيزة، فيعرج على النصبة ليشرب شايا. في أول زيارة، كان مرتبكا، وأخطأ في لفظ ما يريد، لكنها فهمت أنه شاي سكر زيادة، فناولته طلبه. أسند ظهره على ميكروباص ملئ بركاب ينتظرون ظهور السائق، وأخذ يتأمل تفاصيلها. لم تكن جميلة، لكنها، وبقليل من المجهود، قد تصبح مقبولة، فلون بشرتها مختفٍ تحت طبقة من تراب وزيت، نحافتها من مجهود كبير دون تغذية جيدة وليست من عيب خلقي، ملامحها ليست منفرة ويمكن أن يُقبِّلها. فرحل وعاد مرارا، وفي كل مرة يدرسها جيدا ليعرف هل يتخذ الخطوة أم لا مشكلته في الزواج كانت في فقره، فهو لن يجد عروسا في القرية كلها لن تهلكه هي وأهلها بطلبات، حتى وإن كانت عائلتها تعمل في الزراعة بالأجرة، مما يعني أنهم أكثر فقرا وعوزا منه شخصيا، وإن رأت أي أسرة فيه عريسا جيدا، فهذا يعني أنهم يتخلصون من فتاه "معيوبة" وهو لن يرضى بهذا الحل. هو يريد زوجة ترضى بفقره، ليس لأهلها طلبات، ليس بها علة أو عيب في أخلاقها وسلوكها، أو عقلها وجسدها، فكانت هي تلك.

Twitter: @ketab_n

أخبر أمه فاندهشت، واقترحت عليه أسماء. وما أكد له أن قراره صائب، هو أن كل الأسماء التي اقترحتها أمه بنات فلاحين "أُجرية" سيطلبون ذهبا للعروس ونحاسا للبيت، غير أنهم يطيلون فترة الإعداد، كي يزورهم كل يومين محملا بأكياس الفاكهة أو زيارات في المناسبات والمواسم، فقرر الانتقال للخطوة التالية، وهي إخبارها، تلك الفتاة الصغيرة سريعة الغضب قد تثور عليه، فكيف يأمن غضبها؟

كان ذلك هو الجانب الأسهل، والأصعب كان أنه لم يسبق له التعامل مع النساء، وفي كل تفكيره السابق في الزواج كان موقنا أن أمه هي التي ستقوم بهذا الدور، ساعده والده وأخوه في تكاليف صب السقف، وهكذا أصبح مستعدا.

جمع شتات نفسه، بعد أن أنهى كوب الشاي ذا الست ملاعق سكر، والذي اعتادت إعداده كلما رأت وجهه المرهق أمامها، لم يجد وسيلة أو طريقة سوى إخبارها أمام الجميع بأنه يريد الزواج منها. حدث لغط لفترة قصيرة، ثم دفعته يد أحد السائقين بعيدا، وقبل أن تبدأ الأيادي في التسابق عليه، قامت هي وأخرجته من بينهم، وقالت له بصوت لم تستخدمه منذ سنوات، ونظرة بها من الود والامتنان ما لم تشعر به من قبل، أنه إن كان يعي ما قاله وينويه نية صادقة، فعليه أن يتكلم مع عمها، الذي يبيع المسك أمام المسجد، وتفوح منه رائحه نتنة.

المارون بالمكان في تلك الساعة من الليل، حين تبدو الشوارع لامعة وأضواء المصابيح ترسم مثلثات من النور البرتقالي، يتوجسون من أي تجمع، ومشهد كهذا يثير ذعرهم. بعد أن رُفعت البضائع من على الأرصفة، ورحل جُل العاملين، لم يبق سوى بائع الكبدة في الشارع الجانبي ونصبتي شاي وسائقي الميكروباص يتبادلون النكات بينما

Twitter: @ketab_n

يبحثون عن زبائن. من اعتاد هذا المشهد ورأى الآن شابا في قميص متسخ، بنطلون أسود يرسم الخيط الأبيض قصَتِه ويؤكد على تماسكها، يحمل على ظهره حقيبة حمراء قديمة، واقفا بين عدد من السائقين، أحدهم يشله عن الحركة والبقية يضحكون، وفتاة هزيلة تحاول الدفاع عنه بكلام لا يسمعه سواه.. من يرى هذا المشهد في تلك اللحظة، لن يتخيل أن يُفض بكل تلك السلاسة، فتعود هي إلى نصبتها، ويتركه السائقون ليتبادلوا النكات حول بائعة الشاي، بينما يبحثون عن زبون، فيركب هو.

هكذا أقام الأستاذ قاسم عرسا واحدا لعلي ومحمود، شيماء وزينب على الترتيب.

* *

عم فرج لم ينس إهانته من النجار، وكلما رأى سامح يمر بدراجته، التي أصبحت مؤخرا دراجة نارية، يثير أعصابه، لكنه لا يقدر على فعل شيء، بعد أن رفع عرفة يده من القضية، بناءً على نصيحة الشيخ صبري، كي لا تصل المشاكل إلى بيته مجددا، فيتذرع أحد إخوته أو أبناء عمومته بأي شيء للانفصال، وهو ـ عرفة ـ كان قادرا على قهر أي شخص وإجباره على فعل ما يريد، إلا إخوته. وتسبب انفصال سيد عنه في أزمة، جعلته أقل اشتراكا في النزاعات بين السكان، والشيخ يكرس كل وقته لتجنيد الشباب، واختيار الأصلح من بينهم ليضمه، ويأتيه بعد كل جندي صالح جديد هدية قيمة. كما أن اشتراكه في النزاعات لم يجلب له ما أراد، وكل شباب عائلة فرج لا يكفون لأجبار النجار ورفاقه على إعادة الدكان المسلوب. ويمر سامح بماكينته، محدثا ضجيجا رهيبا وخيطا من

Twitter: @ketab_n

تراب، يهبط على الأرض بعد أن يرتفع لثوان.

توصل عم فرج إلى خطة قاسية، حين نما إلى علمه أن سامح يطارد فتاة تسكن آخر الطرف الشرقي للشارع على حدود السوق، تدعى عبير، وهي في غاية الجمال وينفق مبالغ مهولة على هدايا يضعها في السبت الذي تجمع فيه المشتريات كل يوم.

عم فرج يملك عدة محال، وهو أول من ورث أرضا زراعية وباعها دون أن يكمل تعليمه. اعتقد الجميع آنذاك أنه مدلل ومستهتر، لكونه ذكر وحيد بين أربعة بنات، وأن ما يفعله سيدمر به إرث والده. فالكل في ذلك الوقت إما يعمل في أرضه أو يعمل بالأجر في أرض غيره، أما أن يبيع الأرض للحاج مصيلحي ويشترى جرار!.. فيم سينفعه الجرار دون أرض؟

لم يعمل بنفسه على الجرار، فنظر له الجميع باستهانة، لأنه يعف عن استخدام يده في أي شيء، لكنهم استأجروا الجرار، ثم اشتروا الحلوى والملبس لأطفالهم من دكانه، ثم اشتروا منه كل شيء باعه، بدءًا من الخبز الإفرنجي حتى الملابس الجاهزة. مشاريع عم فرج تتكاثر، يكسب ويخسر منذ أن كان مراهقا حتى أصبح جدًا، لم يأخذ شيئا عنوة، وتلك هي المرة الأولى التي يؤخذ منه شيء عنوة، لذلك كان قراره بالسعي للزواج من عبير انتقاميا. لكنه انبهر من تلك الأنثى ذات الملامح الصارمة والنظرة المخيفة.. انبهر من التناسق البديع في جسدها.. فتردد هل ينتقم بها من سامح أم أنه سينتقم بذلك من نفسه؟!

عبير كانت ابنة لموظف حكومي، لها أختان متزوجتان لكنهما لسنا على نفس الدرجة من الكمال، وأخ وأخت أصغر منها، لا يتميز أحدهما

Twitter: @ketab_n

بشيء عن الأطفال من سنهما، كانت تسبب بعض المشاكل لوالديها أثناء طفولتها، فهى كثيرة الحركة، سليطة اللسان، ودائما ما تجمع حولها الذكور. لكن ذلك لم يعني شيئا، ولم يدرك والدها مدى إزعاجها إلا في فترة المراهقة، فاضطر لإخراجها من التعليم قبل الإعدادية، لكنها استمرت في جلب المشاكل والعرسان، حتى حبسها والدها في حدود البيت. كاد ذلك يقتلها، حتى سمح لها بالخروج في أول ساعات الصباح للتسوق، شريطة أن تشرف أمها على ملابسها، بحيث لا يتمكن أحد من ملاحظة إن كانت شابة أم طفلة. وبالفعل لم تكن تلك الفتنة التي تصاحبها مرتبطة بذلك الجسد الفائر، بل كانت شيئا سحريا، هالة تحيط بها تجذب إليها الرجال، رغم القسوة في تعاملها ونظراتها، وكلامها الجارح المؤذي الذي لم تتعلم سواه. وحين كان سامح يشترى الأرز من السوق، ليبدأ يوما جديدا في "حراق" كانت هي تنتظر ليفرغ العلاف منه، فتتقدم بطلباتها. رآها سامح واندهش، شيء ما جذبه إليها. لم يدرك في أول الأمر إن كانت تنظر إليه أم لا، لكنه أراد لفت نظرها، فتنازل عن موقعه لها، وتلعثم وتلألأ ـ كعادته ـ في قول كلمة "تفضلي" سخرت منه ونعتته بالـ"عبيط"، ظل يطاردها كل صباح، يحاول فعل أي شيء كي ترضى، ولا ترضى. وحين وضع داخل السبت زجاجة عطر، أنفق على ثمنها دَخل يومين من أيام العز، في الصباح التالي تبسمت له.

قرر عم فرج الزواج منها، حتى إن كانت وفاته على يدها، فهو يستحق تلك النهاية السعيدة. زارهم في البيت، واتفق مع والدها على كل التفاصيل. اختفت من السوق صباحا واحدا، فبدأ سامح البحث، وصُدم حين عرف الحقيقة، وأخبر أصدقاءه الذين أجمعوا على أن عم فرج لا يريد الزواج، فهو قد زهد الجنس، الطعام، الدخان، ولم تعد له شهوة سوى

Twitter: @ketab_n

المال، فتجرأ سامح وقرر أن يبادل الدكان بـعبير.

كان أصلا يتلعثم، غير كونه مرتبكا ومترددا، فلم يفهم عم فرج لماذا أتى، وطرده. فعاد ومعه أحمد النجار ليترجم لعم فرج، الذي انفجر من الضحك، وأخذ يتلذذ بانتصاره وهو يملي شروطه عليهما. لم يكن النجار راضيا وهو الذي يسعى لملء وقته الطويل بمنصب فض النزاعات الشاغر، بعد ابتعاد عرفة وصبري. ورضى السكان عنه لأنه فقط قال إن الترعة التي تردم لم تكن تجلب سوى البلاء والفقر، والزراعة لم تحقق لهم نفعا، وقد حان حقا وقت ردمها وإنشاء طريق يوصلنا بالعالم، لنبدأ حياة مدنية منفتحة ثرية. الجميع يعرف أن أحمد النجار أحد أبناء عائلة عادية تحيا بيننا. كما أنه زاهد منذ مجيئه في المخدرات، الكوتشينة، النساء، ولا يغويه شيء. وهذا الدكان الذي انتزعه لسامح لم يأخذ منه سوى القليل من وجهة نظره، فإن نصف الإيراد في تلك الأيام المزدحمة كان قليلا. أما أن يهدر سامح الدكان، الذي تعب واجتهد كي ينتزعه، فهو لن يقبل. وبدا ذلك واضحا لسامح، حين خرجا من مندرة عم فرج.

سامح في الأصل يتلعثم.. فمابالك إن اضطرب؟

توترت قليلا، فلم تتمكن من النطق. رأيت وجهها المتمرد في السوق، وكان البشر بلا عدد، زحام رهيب وصراخ من كل اتجاه، لافتات ترفع، وهتافات تُردد، باعة يفترشون الأرض.. يوم الجمعة وفي الجمعة مولد!

حاولت إيجاد طريقا للماكينة ـ الموتوسيكل ـ فبدا ذلك مستحيلا على قدميك بين الوجوه، في لحظة جمود، تحركت هي وحدها.. توقف العالم، فتحركت هي، ثم تحرك العالم، فاختفت. الكل يراها من فوق المنصات، وخلف الشوادر، من داخل الخيم، وتحت المظلات، لا أحد سواك يدرك

Twitter: @ketab_n

ما سكن روحك من إحساس، شيء يملؤك بالبهجة، رغبة في جعل الحياة أفضل لك وللجميع.. شوارع بلا قمامة، احترام متبادل، ومشاركة في العيش، فقط المشاركة.

لم يرغب سامح، حتى في تلك اللحظة الخالدة التي امتلك بها العالم، في المساواة ـ لأن الكبير كبير ـ فلا تطمح يا من تبيع أمه الطعمية على الرصيف أن تتساوى بالعارف بدين الله سيدنا الشيخ صبري، أو بأثرياء القوم وسادتهم، فقط رأيت المشاركة مناسبة، لكنهم لم يرضوا بذلك، فلم تمانع. خذوا كل شيء وامنحونى إياها، تلك التي صارت في نفسي كل شيء؛ لكن من أنت كي تحدد الشروط أو تضع القواعد؟ انتظر ما تسفر عنه اجتماعات مجلس العظماء، واقبل ما يلقونه لك برضا.

اثناء الانتظار انشغل بها، يبحث عنها عله يتمكن من الإمساك بها، يراها، يتأملها، وتنفلت.. لحظات يذوق النصر، وينهزم.. يوما يعود طائرا حرا، ويدخل للقيد ثانيةً طواعيةً. لا يجيد الكلام، وأقصى قدراته تجلب له الحرج. عبير للسادة، أنت تعلم، وأنت ابن للطريق، ولدت في مكان مظلم، يتيم صرت في المهد، بقيت في الخفاء دهرا، ترى السادة وتعرفهم ولا تغضب، ولم تغضب؟ فهم إما هداهم الله إلى طريق الخلاص، أو أهداهم الثروة ومفاتيحها، هم في كل الأحوال أفضل، لكنه اختيار الله، وسامح ليس أحد أولئك المخبولين الذين يطالبون بين الحين والحين بتساوي الرؤوس، فيلقون ما يليق بهم من عقاب، كما قال له العارفون والأذكياء إن أولئك المخابيل يهدفون للتخريب، بتلك الدعوات العبثية، وإن ذلك التخريب لن يضر السادة ـ لأنهم سادة ـ والمضار الوحيد هو نفسه، فصار أول من يلقي الحجارة عليهم، لكنه رأى عبير ولم يتكلم ـ فهو لا يجيد الكلام ـ أراد فقط أن يسمعها تتكلم،

Twitter: @ketab_n

فاقترب منها، وحاصرته علته ومرضه.. لم يكن يوما له صوت، وصوته ـ بالتجربة ـ بلا قيمة، فماذا يفعل لكي تنطق؟

يجوب الأرض يبحث عن شيء يليق بها، ويعود.. يوميا يقدم أفضل ما لديه، ويبذل كل مدخراته ووقته كي ترضى، ولا ترضى. حتى تعثر بتلك الزجاجة الساحرة، ذات الرائحة الآسرة ودفع دم قلبه عاد يحملها فابتسمت، وهنا يتدخل السادة، بعد أن لمست السماء في لحظة طموح خرقاء، عدت من جديد في ليلة حارة، هوائها ثقيل، وكل الباعة قد رحلوا عن السوق، لم يبق سواك. ذكرى الزحام، لحظة نصر غابرة، ووجهها المتمرد.

عم فرج سيصل مع النجار إلى اتفاق حول الدكان، أفضل من الاتفاق الجائر، ويفتحان سويا مجالا للتعاون، ولن يشترط أحد عليه أن يترك عبير لسامح ذي البثور، فهي مسألة شخصية، فيقرر الاحتفاظ بها، وما نفع المال إن لم ينزه المرء نفسه؟

هو يملك كل المال في تلك القرية.. الدكاكين، الأراضي، بيتا كبيوت ملاك مزارع الفاكهة، وبهائم. لا ينافسه سوى ورثة الحاج مصيلحي، لكنه يفوقهم ـ كما رأى ـ بامتلاك أشياء لا يملكها سواه، وقريبا يضم إلى ممتلكاته الفريدة زوجته الجديدة.

لكنه يذكر ذلك الوهج، الذي أشعل جسده وأجرى الدماء في أطرافه، حين رأى أو لمس أنثى، تذكره فقط ولا تشعر به.

حين تراها، تدرك أنك في زمن سابق كنت لتنصبت فقط لرؤيتها، ومعها كنت ستصل للنشوة في عشرة دقائق. لكنك ـ في زمن سابق ـ تصل للنشوة مرارا.. ألم في الركبة، نوم يثقل جفنيك دائما، وأنفاس تخرج بالكاد

Twitter: @ketab_n

من بين طيات صدرك، يمكنك متابعتها وتسجيل ملاحظات حول أي الأوضاع أثناء النوم يجعل الهواء يدخل رئتيك دون عناء. بالكاد تمشي، وبالكاد تتنفس، ليس لديك ما تقوله حين تقابلها، تحمل معك فاكهة وحلوى وتبتسم، ليس لديك سوى مال مكدس في الدكاكين والبائعين، الأرض والعمال، لا يعلم إن كان قادرا على إشباع شهواتها، فهي كامنة الآن. لكن ـ وعلى يده ـ ستنفجر تلك الطاقة المراهقة الجامحة، ستخسر الكثير للحصول عليها، ولن تستفيد بوجودها إلى جوارك، فقد فشلت وصفة العطار، طرد الجن من الجسد، وتلاوة الشيخ. تقوم باختبار يومي كي تتأكد من المقدرة القديمة، وفي كل نتيجة شيء مقلق.. يوم تلهيك آلام الركبة، ويوم لا تشعر سوى بالرخاوة في يديك، ويوم تتمكن لكن تشعر بآلام في الخصية، فتتذكر حين كنت صبيا وكنت تحاول الاكتفاء أو التوقف عن ذلك الفعل الملعون، الذي حذرنا منه الشيخ ولم نتعظ! لم نخف سوى من تلك اللحظة، التي ستعطب بها "العُدة"، فتندم على سائل مهدر بلا قيمة لا تتمكن من استرداده ولا تقدر على تحضيره الآن.. فتعود تملأ أطرافك سخونة، أعصابك تنفلت، ترتعش الركبتين، وتنجح في استخراجه كما يُستخرج البترول من آباره. تزوجها طالما أنت قادر.

* * *

فى كل الأماكن نجوم وقادة، وباقي البشر جمهور.

الجمهور هنا يرتدي جلباب، عاري الرأس، حافي القدمين في بعض الأحيان، يعمل في الزراعة، في دكان، أو حارس عقار في المدينة القاهرة ـ لسكانها ـ ويعود إلينا في الأعياد. بعض الجمهور تمدن وارتدى البنطلون والقميص.. منذ أقام بيننا الموظفون، وعدد القمصان يتزايد، حتى أصبح

Twitter: @ketab_n

ينافس الجلابية. كانت الضربة القاصمة للجلابية هي ظهور جيل يكره الزراعة، يشتري القمصان والفانلات، لا يمانع في هدم الترعة، ويبحث عن الاتصال بالغرباء، جيل لديه نجومه، كأحمد النجار، وجمهور كسامح. وتقدُم سامح إلى موقع البطولة في القصص والحكايات لا يغير من كونه مواطن، لا يزيد شيئا سوى العدد، ككل أولئك العاملين بأيديهم لدى ملاك أو لدى الحكومة، فكل من يعمل يحيا على الكفاف، وينتهي كما ظهر بلا داعٍ، والملك ـ بعد صاحب الملك ـ في الأرض لأولئك الذين لا تعرف لهم عملا، فهم ورثة، ملاك، أو شيوخ، أو شخص كأحمد النجار لا يملك سوى قوة قلبه وشجاعته في استخدام يديه، والتى هي في الأصل ليست الأقوى.. ماذا ندعو ذلك الشخص أو تلك الحالة؟

هنا نعرفه بنقل القصص عنه وعن مشاجراته خارج القرية، مع العمال، الغرباء، عم فرج وأتباعه.. هنا نذكر أسماء أحمد النجار وأمثاله، حتى يصبحوا أعلاما، فلا نحتاج لتعريف ماهيتهم ومايفعلون!

سامح أصبح يعمل في الدكان بأجر، وتدخل أحمد إبراهيم أبو سعد ـ الذى يسحب ابنه سعد في يديه إلى أي مكان ـ لدى أحمد النجار، كي يحافظ لسامح على أحد اثنين الدكان أو العروس.

لم يكترث النجار في البداية، إلا أنه وجد نفسه في صف عم فرج وصبري الشيخ وعرفة، وكل أولئك الذين كرههم بالفطرة وتمنى القضاء على نفوذهم، فانتقل من جديد إلى جانب سامح، وأقسم أمام محمود قاسم أن زيجة فرج وعبير لن تتم، وأفتى وقتها قاسم أن الحل هو إفشال الترتيبات مرارا، وجعل فرج يتشائم من العروس. كانت الهيئة التي تفسد ترتيبات العرس مكونة من النجار، أبو سعد، سيد خميس،

Twitter: @ketab_n

ومحمود قاسم، فتذكروا محاولاتهم السابقة إفساد فرح سيد مصيلحي وفريدة. غرقوا في الضحك والتذكر كلما التقوا ليعدوا لتخريب الفرح، ولم يأخذ أحدهم خطوة تجاه الهدف سوى محمود قاسم، الذي أطلق وروج لعدة شائعات حول عبير وكونها مشؤومة. وبينما يدخن النجار الحشيش مع سيد خميس، ويتذكران فخدي فريدة ويقارنونها بصورتها الحالية التي مازالت تبدو شابة ومغرية، جاءهم خبر وفاة عم فرج.

أصبح اسم عبير هو الأكثر في الحكايات المتداولة تلك الأيام، وأول من أكد كونها شؤما هو والدها، الذي كان يترقب تزويجها والخلاص من همها. في العزاء، تقدم سامح لخطبتها، وعثر سمير المحامي على رجل نحيل أسمر، رأسه خال من أي شعر، ووجهه مبتسم، يرتدي جلبابا صعيديا واسعا، لم يتأمله ويبحث في تفاصيله إلا حين رأى الوشم على ساعده، فأيقن أنه وجد مسيحيا وليس من عائلته، فقرر البحث لديه عن عروس.

حمى الزواج تجتاح الأرض ومن عليها، ذكور يتحرقون شوقًا، إناث نفد صبرهن مبكرا، أباء يريدون تقويم الشباب أو سترة البنات، وأمهات ليس لديهن سوى انتظار الأحفاد.. جنون حقيقي يصيب جيلًا بعد جيل، فتدخل الدفعة التي وجب عليها الزواج في فوضى الإعداد له، وفقًا للنظام المتبع،

سمير كان يعتقد أنه لن يتزوج حتى يؤسس مكتب محاماة خاص به، وتكون عروسه بنت عائلة ثرية، تساعده على تخطي بعض المصاعب تجاه طموحه الكبير. إلا أن تجربة "علي وزواجه من فتاة معدمة، تشعر بأن الغرفة التي منحها لها فوق السطح قصرا، وأن تلك الحياة القاسية

Twitter: @ketab_n

المجحفة نعيما، تلك التجربة ألهمته، خاصة وأن شيماء زوجة علي تحسنت صورتها كثيرا بعد الزواج. بحث في نطاق معارفه وأقاربه في مسقط رأس والده القريب، فلم يجد أي العروسين، لا الثرية التي ترفعه، ولا الفقيرة التي يرفعها. لم يجد سوى بنات نصف متعلمات، أغلبهن من أسر حالهم أفضل من حاله قليلا، والبقية في مثل حاله، غير أن قلبه لم يمل لأي منهن في زياراته المتكررة. عم مجلع الصعيدي كان هنا غريبا، وليس لديه ما يبحث عنه سمير.

شيماء، زوجة "علي تحسنت صورتها كثيرا واختلطت بكل النساء، ولم ترقها سوى فاطمة أخت أحمد النجار، رغم فارق السن بينهما. ولم تخش شيماء أن يقال عليها إنها "من دور فاطمة" لأنها لم تكن تعنيها تلك التوافه. وكان لشيماء صديقة أخرى، هي شريكتها في السكن أيام ميدان الجيزة. اختفت قُبيل زواجها، وحاولت شيماء تأجيل العرس حتى تعثر على رفيقتها، لكن علي وعدها بأن يعثر لها عليها بعد الزواج، فأقيم الفرح، وبدأت رحلة الإلحاح كي يبحث عن صديقتها. وجدها علي واطمئن عليها، وأصر أن تأتي لزيارتهما في أقرب وقت. وبالفعل جاءت بعد يومين، في عباءة ضيقة، شعر برتقالي، وصدر مفتوح، أثار كل من رآها، وغيَّر محتوى القصص المتناولة أياما، بحيث أصبح اسم أم ريهام أكثر انتشارا بين الجمهور من اسم عبير.

لم يجد سمير عروسا لدى عم مجلع؛ لكنه وجد مصدر رزق. فالرجل كان يعمل في الأجهزة الكهربائية، ولديه رأس مال جيد، لكنه منذ انتقل إلى هنا واستأجر دكانا من عم فرج قريبة من السوق، لم يجد إقبالا على بضاعته، فدله سمير على وصفة الأجهزة المستعملة، وضم محمود قاسم الكهربائي إليهما، فغيروا سويا نشاط الدكان. فبعد أن انتشر الكاسيت

Twitter: @ketab_n

العائد من الخليج والمروحة، بدءوا في الاختفاء بسبب سوء الاستعمال، فأصبح عم مجلع يشتري المستعمل، ليُصلحه محمود، ويبيعونه من جديد، ويتقاسموا صافي الربح. ازدهر المشروع سريعا، ولسبب أو لآخر زاد الإقبال على الأجهزة الجديدة. انتعشت حياة محمود، وواكب ذلك وصول أول أبنائه "أحمد"، فاشترى لبيته تلفزيون وإريـال خارجي، وأصبحت غرفته هي مركز تجمع لصديقات زوجته. لكن شيماء زوجة أخيه ثارت عليهن وطردتهن، وساعدتها فاطمة ـ سليطة اللسان ـ في المعركة، وانفردتا بصحبة التلفاز. سرعان ما تأثرت فاطمة بحياة زينب، التي لا تفعل شيئا سوى إرضاع الطفل، وإعداد الطعام الذي يحلو لها، لا يحدها في ذلك فقر، ولا يشغلها التوفير، فبدأت تضغط على زوجها ـ جابر ـ الذي مازال يعمل في الزراعة، لكنه ـ كما تصفه ـ يدك والأرض، لا يجيد شيئا سوى تلك المهنة البالية الجالبة للداء والفقر. وبينما يبني غرباء طريقا فوق الترعة، وتبور عائلة سعد أرضها وتبحث عن أعلى سعر، مازال زوجها يعمل بالأجرة أحيانا في المزارع، ويزرع أمتارا "مسروقة" حول بيت والده، ويكلفها بالذهاب للسوق لتبيع إنتاج أسرته من مزروعات ومشتقات ألبان، والتصرف بما تحصل عليه من مال، بحيث يكفيهم أكلا وعلاجا لوالديه، وللادخار لأجل دفع مصاريف فاطمة الصغيرة وأخيها الأصغر في المدرسة ـ المجانية ـ التي يضطر الطفلان للسير إليها، كي لا يتحمل والدهما عبء مواصلات فوق أعبائه التي يفنئ عمره في الزراعة محاولا حلها، فتتفاقم.

محمود قاسم، سمير، وعم مجلع، شركاء في تصليح وبيع وشراء الأجهزة الكهربائية، ويشاركهم في الربح أحيانا أحمد النجار دون سبب مقنع أو إكراه. سامح يطبخ وينظف ويبيع الكشري، ويشاركه النجار في

Twitter: @ketab_n

الربح طوال الوقت. وهكذا، أدركت أخته أن ذلك الطفل الذي اعتادت ضربه وتوبيخه قد نضج وعلا شأنه، بحيث يمكنه مساعدة زوجها وتخليصها من ذلك الهم. وفاتحته في ذلك حين كان يزورها، وبينما كان يداعب فاطمة الصغيرة ويثيرها ليرى غضبها، دخل جاب،ر فاصطحبه النجار للخارج ليحدثه عن التجارة.

البهوية، وارتداء القميص والبنطلون، أجهزة سحرية تضبط الوقت والجو والهواء، أطفال تتعلم، وحياة ترف، فسيطر على تفكيره، وحصل على موافقته أن يترك الزراعة، لكنه لم يجد إجابة لسؤال "ماذا أفعل؟" الذي طرحه عليه جابر، ومن أين يحصل على المال اللازم لبدء تجارة، وما هي تلك التجارة في الأساس.

تأمل النجار صدره الذي كشف عنه الجلباب، ونفدت عيناه من صدره إلى العظام، قفصا، ولم يقاوم رغبته في أن ينقر عليه بظهر إبهامه المثني، فأصدر صوتا كما الطبل، وتعجب! هو لم يكن ضخما على أي مقياس، كما أنه عرف جميع أنواع الفقر والفقراء، مابين هنا وميدان الجيزة؛ لكنه لم ير هذه الدرجة من النحافة والهزال قبل ذلك.. عينين ذابلتين، ووجها أصفر مُمتصا، ذلك التعس أنجب من فاطمة طفلين، وكان النجار يتساءل لما توقفا عن الانجاب؛ لكنه لحظتها رأى حقيقة جابر، كما لم يره من قبل، فتعجب من كون فاطمة أنجبت من ذلك الشبح!

لا شيء يصلح لجابر. فكر أن يُقيم له فرشة في ميدان الجيزة، لكنه تراجع سريعا، حيث لن يصمد هناك يوما. لم يجد النجار مخرجًا لإنقاذ عائلته الوحيدة من كابوس الفقر الخانق، وقرر أن يستشير "سمير صديقه، فهو أكثر السكان معرفة. وجلس معه في دكان الحلاقّ، بعد

Twitter: @ketab_n

أن حلق لحيته النابتة، وأخذا يتذكران كل المهن التي يعرفاها في القرية، الشارع، السوق، وميدان الجيزة.. جابر ليس صنايعي، ولا يجيد قيادة السيارات، وسائق الكارو ليس أفضل حالا من الفلاح، كل الخدمات متوفرة الآن في دكان أو اثنين. البقالة، الحلاقة، والأطعمة، بل حتى العصائر افتتحوا لها دكانا جديدا، غير أنه قد لا يفلح في تلك الأشياء. لم يجد سمير ـ وهو ذو علم ـ سوى نصبة شاي للعمال الغرباء، أو حارس عقار في القاهرة، لكن النجار لم يرض، وادعى أمام سمير أنها مهن مهينة، إلا أن السبب الحقيقي لرفضه هو خشيته أن تثور عليه فاطمة، المخلوق الوحيد الذي يتمتع بعلاقة سوية معه ويخشاه، فقرر النجار أن يقدم لأخته مساعدة مالية، دون أن يترك زوجها الزراعة، حتى يجد له عملا مناسبا. وأرهقه ذلك جدا، حيث إن ما يأخذه من سامح وقاسم يكفيه بالكاد طعاما وحشيشا وحجرا جديدا في بيته الذي يبنيه على طرف الشارع، في أول الغيط الذي اتضح أنه لم يكن ملكا للمصيلحية، وأصبح أرضا ترابية مرتعا للمعدات والآلات وعشش العمال والخفراء.

*

رؤيتنا للعالم بدأت بوجه، ثم توالى أفراد العائلة في الظهور بتطفل، ومن لحظتها والعالم يتسع من حولك لا يتراجع أبدا، يتسع بجنون. ففي الطفولة تصورنا العالم هو العائلة والبيت، في المراهقة عرفنا حدود القرية ومثيلاته،ا وقادنا الجنس للنساء وأخبارهن، وسمعنا عن المشاجرات العنيفة، وظهر العمال الغرباء، المعدات الضخمة، والمخدرات، ودورة النقود في القرية، وتخيلنا أنها لن تصبح قرية بعد الآن، وتخيلنا أن ذلك المكان وما حوله هو العالم واتسع، وفي ذلك العالم رأينا العجائب، فهناك "كفرة" كما أكد الشيخ صبري، أولئك الغامضون الذين يسكنون بيننا

Twitter: @ketab_n

وقلما ظهروا، متعلمين، فقراء، ويتحدثون عن أشياء بلا معنى، تلهيهم عن الصلاة، كما فتنهم الغرب بالقميص والبنطلون وزينة المرأة. هنا أيضا جنس يمارس بالمقلوب، والفضائح لا تختبئ، هنا نساء تغويهن الخطيئة، ورجال تأكلهم المخدرات. هنا الكوتشينة مصدر رزق ومفسدة وملهاة.. هنا أشياء بلا حصر نكتشف كل يوم جديد، ولا يتوقف العالم عن الاتساع، ونظل نبحث عن كل ما يثير الخيال من أخبار البشر لنتتبعها. وقد وصل إلينا أن صالح يبيع الحشيش، ووجد النجار نفسه يشاركه في المكسب، والبيع، فصالح غير كل الأصدقاء الآخرين، ولا يمكن العبث معه. انضم سيد، الأخ الأصغر لصالح، وهو الأقرب في العمر للنجار، إليهم، وقسموا القرية ثلاثة فئات: عمال وغرباء يتعامل معهم صالح، فلاحين وموظفين يتعامل معهم النجار، وآخرين وهم يخصون سيد. في ذلك التقسيم يتمكن صالح من التخلص من كميته في مواعيد محددة، ويمضي الباقي من يومه في منطقة أخرى يبيع، ثم يحاسب المالك الأصلي للمخدر. والنجار أصبح له زبائن محددون، وهم الأقدر على الدفع، لكنهم وبطبعهم المتراخي لا ينتظمون في مواعيد، وهو ليس هناك ما يشغله. أما سيد، فتسبب في كارثة، حيث كان يبحث دائما عن زبائن، ووجد بعد فترة قصيرة أن الأقرب إليه والأكثر إقبالا هم الشباب الأصغر، وهكذا باع لـ"حسن الابن الأصغر لعرفة مصيلحي، ومرة أخرى عاد حسن ليشتري، ثلاث مرات كانوا كافيين ليكتشف الحاج عرفة كون ابنه على الطريق، وقاوم مرارا وأقسم بينه وبين نفسه ألا يضربه، لكنه لم يتمكن من السيطرة على نفسه حين رآه.

حسن كانت له معاملة خاصة بين كل إخوته، بل كل أفراد العائلة. فقد تعرض لحادثة في صغره، أثرت على علاقته بأبيه وبالعالم.. وقتها كان

Twitter: @ketab_n

طفلا هادئا وطيبا، يلعب وحيدا ويكلم نفسه أثناء اللعب. وكان منظر الحاج "إسماعيل زوج الست عنايات عالقا في رأس عرفة، فتصور وقتها أنه إن ترك الطفل للقدر فسينمو كالحاج إسماعيل المخبول، فأصر على أن يطبع شخصيته على الطفل، وتعامل معه باليد والقدم، بل والخرزان، كي يضبطه على النظام دون أن يحدد ما هو النظام. ورأى أن الوقت قد حان ليواجه ذلك الطفل مخاوفه، فبعثه إلى السوق ليلا، وفي الليل يصبح الطريق للسوق مرعبا، ولا أي نفع يرجى من ذلك المكان. تردد الفتى، لكنه خشى العصا، فذهب. وجلس عرفة يتأمل عظمة تفكيره وطريقته في صنع الرجال، حتى إن كانت الطينة رخوة ولا تصلح، فهو قد وضعه في اختبار، إن نجح سيقهر كل مخاوفه، وإن فشل..

الحقيقة، أن ذلك الرجل "عرفة"، رغم قسوته الظاهرة، إلا أنه ضعيف إلى أقصى درجة فيما يخص عائلته، وتلك تحديدا هي نقطة الضعف التي استخدمها سيد أخوه، وضغط عليه كي يبتعد عن النجار، أثناء أزمته مع عم فرج.

بدأ ضميره يؤنبه، وتلاعب به الخيال، حتى تأكد أن غياب حسن قد طال، فهرول تجاه السوق ليعود به. في الطريق لم يجده، ولا في المكان المظلم الكئيب الذي يعقد فيه السوق صباحا، ولا يبقى به سوى القاذورات؛ كل أنواع القاذورات: مخلفات، بضائع فاسدة، روث حيوانات، وفضلات بشر ـ في الليل. ارتعب عرفة من فكرة ضياع الطفل، لكنه سمع صوت نباح، فسار تجاهه، ورأى "حسن" متجمدًا أمام ثلاثة كلاب، لا تبدو نية الخير على وجوهها؛ لكنها تكتفي بالنباح ولا تقترب. فألقى حجرًا على أحدهم، وركل الآخر، وأمسك بالطفل فوجده متشنجا باردا.

عاد به إلى البيت محمولا، وبقي بعدها ثلاثة أيام لا ينطق، وظل عرفة

Twitter: @ketab_n

يشعر بالذنب تجاهه ويعامله أفضل من الجميع. وتجرأ الفتى عليه بمرور الزمن، لكنه ظل محتفظا بمعاملته الخاصة.

كل ذلك لا يعني أن يعود له حسن مسطولا تلقى حسن، رغم كونه شابا وقتها، علقة، استيقظ على صوتها كل من كان بالبيت، بل كل من كان على هذا الجانب من الترعة. ولم يكتف عرفة بذلك، بل أصر أن يقوده الفتى إلى البائع، وقاوم حسن ورفض، إلا أن سيد كان قد أذاع بنفسه صيته، كي يكسب المزيد من الزبائن، وهكذا أخبره أحدهم أن سيد خميس، ابن السائق الذي يسكن معزولا على الأطراف ولديه أخوة بلا حصر، هو من فعل ذلك.

أخذ عرفة عصاه، أكبر أولاده، وأحد إخوته، وخرجوا يبحثون عن سيد خميس. وجدوه عند المعدات النائمة على ضفة الترعة، يدخن ويبيع لشاب. ما إن اقترب عرفة ورفاقه، حتى ركض الشاب، وأصبح سيد وحيدا في مواجهة عرفة وعصاه. لكن كل أبناء خميس لديهم أيدٍ يُحسدون عليها، ويجيدون استعمالها، ولا يتورعون في استخدامها، والأمر انتهى به مربوطا في زريبة بيت مصيلحي، بينما ينتظر عرفة ظهور أبيه، وأبوه في الأصل عصبي حاد الطباع، يسكن هنا لضيق الحال، لكنه أصلا من القاهرة، وله أصول في الصعيد. عاد يومها إلى البيت قبل صالح، وسمع بالخبرين. أن ابنه سيد يبيع الحشيش، وأنه اسير لدى عائلة مصيلحي. ظلت زوجته تهدئه وتكبر في أذنه طوال الطريق.. صالح كان عائدا تجاه البيت لا يعرف شيئا، حتى أخبره والده بهدوء مصطنع، وطلب منه ألا يتدخل في الأمر، ويصحب أمه للبيت، فتخلص صالح سريعا من أمه ولحق راكضا بأبيه، الذي كان قد وصل إلى بيت المصيلحية. ولم يمهلم عرفة لحظة للتفاوض، فسب الرجل ووبخه، فانفعل الآخر واشتبك

Twitter: @ketab_n

معه. جلبابان هم الأكبر مقاسا في تلك الدائرة، يمسك كلاهما بالآخر ويتمكن منه لحظات، لكنه يهرب ويوجه لكمة، وهكذا قاوم خميس السائق الغريب عنا عرفة الأكبر مقاما ومقاسا بيننا، واشترك الكثيرون، لكن صالح كانت له خبرة أكبر وأقدم في الشجار من كل أولئك، فتمكن من الكر والفر، وانضم أحمد النجار إلى فريق صالح وأبيه، فكان لعنة على من يقابله، فهو فاقد للعقل، يستخدم كل ما يقابله، حجرا، كرسيا أو عصا، لكنه لا يكف ولا يتوقف ولا يمكن السيطرة عليه. وهكذا، صمد ثلاثة رجال أمام عشرة أو أكثر، ثلاثين دقيقة، وانتهى الامر، والإصابات لدى عائلة مصيلحي أشد خطورة لكن فرقة خميس تحت السيطرة تماما.

حين لا تملك حيلة في مواجهة الخصوم، عليك أن ترضخ. معادلة بسيطة يقبلها كل العاملين بأجر في بلدنا، ارضخ والتزم بالقواعد، فلا مال يشتري أمنًا، ولا عزوة تحمي ظهرك، ولا موهبة في يديك أو لسانك، إذًا بين لحظة وأخرى، حين يسحقك أحدهم، لن تجد ما ترد به الظلم، ولن تعرف طريقه لتأخذ حقك، لذلك وجب عليك أن تلتزم بالقواعد، كي تحصل على لقب "طيب" أو "غلبان"، وهذا اعتراف أن لا قيمة لك، وإن اعتدى عليك أحدهم يُوبَخ، حيث لا ضرر منك، ولذلك تحيا جوار الحائط منحنيا، كي لا يلحظ أحد وجودك، فتعرض نفسك لمهانة تملأ قلبك سخطا، وتدفعك للاعتراض، فتسقط فيما ابتعدت عنه طوال عمرك، الهزيمة.. وهل تعرف ما الهزيمة؟

الهزيمة ليست حادثة، بل هي أسلوب حياة. دخان للهزيمة، موسيقى الهزيمة، ملابس الهزيمة، وعمر كامل من الهزائم، فمن تمنى النصر وهزم

Twitter: @ketab_n

ليس مهزوما، بقدر من لم يبال بالنصر أو بالهزيمة.

أُطلق سراح الرجال، إلا صالح الذي بقي مربوطا في الزريبة بدلا من سيد أخيه، وتلقى من عرفة ما جعله يتذكره حتى آخر عمره، رغم كل ما تعرض له في حياته من ضرب أو قسوة أو حتى تعذيب. فعرفة كان يستمتع ب.ن يفك قيود صالح ويتشاجر معه، ليستمتع بإحساس النصر يوميا، وكأنه يتمرن على ذلك الشاب القوي.

في أول ليلة، قاوم صالح ببسالة، وفي لحظات كاد يسيطر على عرفة، إلا أن ثقة عرفه في أنه منتصر حتى قبل أن يبدأ الشجار عززت موقفه، فتمكن من السيطرة عليه وكبله من جديد. في الليلة التالية، ذاق صالح قبضة عرفة المهولة عشرات المرات، وسقط مغشيا عليه. وظلت مقاومة صالح تقل، حتى لم يعد يقاوم بعد أسبوع، فمل حينها عرفة من الشجار مع (شوال) على شكل إنسان لا يقاوم، وفشلت كل المساعي التي سعى إليها خميس وزوجته كي يطلق سراح الشاب، وكان الرد دائما أنه تجرأ على صفع كبير عائلة مصيلحي على وجهه.

وظهر فلاحة الأجرة وشباب عائلة مصيلحي في محيط بيت خميس، الذي لم يذهب إلى عمله منذ أسبوع كي يؤمن بيته وأولاده من مضايقاتهم، لكنه كلما اضطر للاشتباك معهم. تجمعوا بأعداد كبيرة، وتجرأوا أكثر على بيته، فعاد الشيخ صبري للظهور على الساحة كوسيط خير، وحمل لخميس عرضا بأن يرحل عن القرية، في مقابل أن يأخذ ولده صالح. لكن خميس لا يملك شيئا على الإطلاق، وليس له مكان آخر. وضاقت الدائرة حوله.. من انتحاب زوجته طوال الليل، والانكسار في عيون أبنائه بعدما رأوه يتعرض للضرب مرارا، وصالح المعتقل بأوامر

Twitter: @ketab_n

عرفية، وسيد الذي هرب ولم يظهر إلى الآن. فقرر الرحيل، واستبدل بيته مع أخيه العازب، وظل يبحث عن سيد، حتى حمل له أحمد النجار رسالة منه، يخبره فيها أنه في أفضل حال، لكنه لن يرحل معهم، وسيزورهم في أقرب وقت. شهد على الواقعة ونص الرسالة الشيخ صبري، الذي واجه الأسطى خميس بالحقيقة.. الآن لا شيء يتحجج به للبقاء.. هو ليس من ذلك المكان، وهنا أول من يُضحَى به هو الغريب. ولكن كيف يقبل أن يترك بيته؟ وعرفة، فيم يفوقه كي يأمره؟ كل ما في القصة أن لديه عمالا أُجرية يثقلون كفته. غير أن لا أحد سينصف السائق الغريب، وحتى أولئك الذين يعرفون الحق يكتفون بقوله، "فلا صاحب ينفع ولا حكومة تشفع" كما كتب على السيارة، التي يقودها ولا يملكها. وبعد أن تجرأوا على حرمة بيته، وقد يستيقظ يوما فيراهم نائمون في الفناء الصغير أو يضاجعون كلابهم وخرافهم فيه، كيف يأمن على بيته وأهله إن سافر كما يحدث كثيرا؟ وولداه الكبيران قد أثبتا أنهما لا يجلبان سوى المشاكل، ولا يقدران على حلها. لكن عرفة ذلك إن كانت مواجهته وجها لوجه مع خميس، لكان حرمه من رجولته بقية عمره.. لكن هل لأن المواجهة لم تكن وجها لوجه انتزع عرفة رجولته؟ يقفز السؤال إلى رأس خميس، فيفكر مليا ويأخذ بالأسباب والفوارق، كي يثبت لنفسه أن الرحيل ليس.. فتسقط الأفكار في الجحيم، وتنفك خيوط الربط بينها، ويستقر الرأي على أنه. نعم، يفقد بذلك رجولته. فيشعر برغبة ملحة بأن يتخلص من كل ذلك، وتأتيه من نفس ذلك الصوت الذي قال "نعم"، أن لا سبيل للتخلص من أي من ذلك أو الالتفاف عليه، فهذه إرادة الخالق.

ونِعم بالله.. لكن أليس له حق في الاستئناف أمام القوة المطلقة، التي تفرض سيطرتها عليه الآن، ومن دون حق؟ يحاول تذكر "الكف" الذي

Twitter: @ketab_n

استقر على وجه عرفة من يد صالح، مدعيا بذلك نصرا، لكنه سرعان ما يتذكر أن كلهم قيدوا، وصالح حتى تلك اللحظة مازال مختطفا، وسيد مفقودًا.. يقرر أنه لن يترك حقه وحقهم؛ لكنه الآن ضعيف. وفي تلك اللحظة تحديدا، تأتيه قائمة بها كل مساوئه، من نفس تلك الأصوات التي قالت "نعـــم

هو لم يكن عبدا جيدا طوال عمره، ولا أبا جيدا.. ليس ثريا، كما أنه ليس سائقا، فتلك هي المهنة السادسة التي يعمل بها، وفي كلهم فشل. ليس له في الدنيا سوى.. إنه حتى لم يعد زوجا جيدا، سيرحل ويترك ذلك المكان التعس، إن الشيخ صبري نفسه، الذي يعرف الله ويخشاه، هو من قدم له هذا العرض؛ فمن يبقى ليدافع عنه؟!

قرر أن يصحب صالح في يده، ويترك سيد. لكنه سيعود يوما بعد أن يستعد، وهو يعرف أنه لن يستعد، ولن يعود.

الرحيل في بلدنا ليس حادثة، فالجميع يرحلون.. الطلاب المتعلمون المؤدبون الذين تحملوا مشاق السير عدة كيلومترات كي يصلوا إلى المدرسة أعواما دون كلل، أولئك الذين تربطهم بنا طفولة وصداقة، ثم يربطنا بهم سلام في الذهاب وآخر في العودة، ثم يختفوا ولا يربطنا بهم بعدها سوى بيع ممتلكاتهم إن وجدت، أو حضور عزاء آبائهم. كما يرحل الصنايعية، ويعودون للظهور مره أخرى، يفتتحون مقهى أو ورشة أو دكان، سرعان ما يتخلصون منه ويرحلون. هنا جيل كامل قد رحل، بعد أن أحرق كل متاعه، وعاد بعد مدة بستريو وتلفزيون ملون، أو حتى سيارة، لكنهم لم يتحملوا العيش في بلادنا التي تودع الزراعة، فعادوا من جديد لبلاد ترعى الغنم وتبيع الزيت. في عالمنا الصغير، الرحيل مستمر،

Twitter: @ketab_n

لكن أن ترغب في البقاء وتضطر للرحيل، فذاك أمرا مؤلم.

وعلى المقهى، قال "زوزا"إأن سيد لن يدع ذلك الأمر يمر، فهو حامي الطبع وقليل أن يقتل حسن. حسن، والذي كان يجلس مع سعيد الممتلئ المهذب، سليل عائلة سعد، على منضدة قريبة، أراد أن يبرئ نفسه أمام "زوزا" وكل الحاضرين، فقال إنه لم يُبلغ والده، بل أنه قاوم ذلك وتحمل ضربا وإهانة، لكن ليس ذنبه أن الجميع يعرف أن سيد يبيع الحشيش. صمت حسن واستأنف سحب كروت الدومينو بحثا عن "أبيض اليَك أو "البلاطة"

سواءً سيستمر تدفق الماء تحت ذلك النفق الخرساني أو لن يستمر، لم يعد لذلك قيمة، فالبيارات التي توقفنا عن نزحها منذ أن بدأت تصرف مخلفاتنا إلى باطن الترعة، وماء الشركة العذب الذي وصل إلى مناطق كثيرة بيننا عن طريق المواسير، قلل من شأن الترعة كثيرا، ولن نفتقد ـ نحن الجيل الأصغر ـ شيئا سوى الدبابير ذات الأجنحة الطويلة وصيد القراميط، أما الزراعة فهي لم تعد تعني سوى عائلتين أو ثلاثة، أراضيهم واسعة ولديهم عدة بهائم، يستأجرون آباءنا للعمل فيها، ويجنون ما يجعلهم يتمسكون بإخراج الثمر من الطين. وآباؤنا، العمال الموسميون، يبحثون في الجيزة القريبة عمن يستأجرهم في أعمال بناء، يحصلون بعدها على يومية كبيرة مقارنة بيومية الزراعة، غير أن العمل في البناء ليس يوميا.

تمكن البعض من الانخراط في أعمال الردم ورفع الطريق فوق الممر المائي المغطى، والشباب نجحت مراهنتهم على التجارة، خاصة وقد صنع الغرباء سوقا جديد رزقه كبير، تحديدا في بيع المأكولات والمشروبات،

Twitter: @ketab_n

السجائر، والحشيش، وهكذا لم يتمسك أحد صغار الفلاحين بالزراعة سوى الحمقى منهم، خاصة وإنها لم تجلب يوما سوى الفقر، والآن صارت أكثر إفقارا.

المدرسة الأقرب للقرية بها آلاف الطلاب، وأبناونا يذوبون فيها، فيعودون ليتحدثوا عن أغانٍ، وألعاب، وحلوى مغلفة.. والألعاب التي لعبناها تندثر.. الحلوى التي ضيعنا أعمارنا في اصطياد قروش للوصول إليها تندثر.. أغانينا، لم يبق سوى سيد مصيلحي وحسن ابن أخيه وسعيد ابن عبدالله النقاش يحفظونها ويغنونها ليلا في غيط عائلة مصيلحي، بينما يدخنون الحشيش على الجوزة ويشربون الشاي. حسن عرفة أجملهم صوتا، لكنه لا يحفظ أغاني الجدود وحدها، فهو قد اشترى قبل عيدين "تسجيل ستريو"، فيغني أغانيه الحديثة منفردا، كما قد يغني لأم كلثوم أو عبد الحليم. نعرف صوته حين يؤذن للمغرب.. دونا عن كل الصلوات، المغرب فقط يرفع حسن أذانه، ثم يختفى دقائق ويظهر في الغيط. وقتها يبدأ العمال والفلاحين في العودة إلى الغيط بهدوء وسكينة، يجلسون في حلقة، ويبدأ حسن في إعداد الشاي ومناولتهم جميعا، بينما يغني بوجه مبتسم، مستمتعا بكل كلمة ينطقها وكوب شاي يصبه، يبدو متوحدا مع اللون الأخضر المنطفئ لأعواد البرسيم ليلا، رائحة قوالح الذرة، والبراد الذي احترق فوقها مئات المرات، الطعم المكثف للشاي الثقيل في ذلك الدور الأول، قبل أن يبهت طعمه بفعل تكرار الأدوار، يغني وحده ونشترك قليلا، حين نتعرف على كلمات إحدى أغنيات الست أو عبد الحليم، ثم ينضم "سعيد فيغنيا سويا تلك الأغاني التي لا نعرف لها مطربا أصليا، ونقلها أجدادنا عن أجدادهم. تلك الأغاني معظمها فرحة واحتفالية، تحمل في طياتها بعضا من كلامنا الذي اندثر، فننسجم

Twitter: @ketab_n

في تذكر جداتنا وهن يمشطن شعورهن الذهبية، ويرددن تلك الكلمات الحكيمة النادرة، ثم ينضم سيد مصيلحي بعد صلاة العشاء، فنعتذر بأى عذر ونرحل، كي لا نتعرض لأذى. هو في الحقيقة لم يؤذ أحدا قط، لكن الاحترام يفرض علينا تصور ذلك.

توفي الحاج إبراهيم أبو سعد، ولم يعد لبيته حاكما سوى الست عنايات، والتى ترضخ لها كل النساء عن حب ومود، والرجال عن خوف وقلق. كانت وقتها قد بلغت حجما مهولا يحكى عنه، ولم يمر بعد وفاة الحاج إبراهيم كثيرا، حتى لم تعد قدماها المتورمتان قادراتان على حمل جسمها العملاق، فجلست على كرسي أمام الدار، في مواجهة آخر قطعة أرض بقيت لهم، والتي يقوم بزراعتها عمال، كلهم مأجورين، بينما بيعت باقي الأرض إلى اثنين: عرفة، الذي ضمها إلى أرضه، وعم فرج الذي بوَّرها ليبني عليها. لكن عم فرج توفي فاجأة أثناء الإعداد لفرحه، وكان قد تأكد من قدرته الجنسية، وظل يعشم نفسه بتلك الفاتنة، التي ستجعل لأيامه المتبقية مذاقا خاصا، وغرق في أحلامه حتى أنه لم يستيقظ. وتقدم سامح لخطبتها في العزاء، وقبل والدها الذي تأكد من كونها جالبة لسوء الحظ، أو هكذا ادعى كي يقلل من معجبيها.

ذهب سامح برفقة أمه وصديقه النجار ليخطبوها، و.ثرت رؤيتها في الصديق، لم تنجح كل محاولاته في تذكر "ورك الفرخ" الذي يلخص في ذاكرته الابتعاد عن الشهوات وازدرائها.. هو سقط منذ فتره في تدخين الحشيش، كي يجد ما يملأ وقته في ذلك المكان الممل، واستيقظ ليجد نفسه محملقا بها، بينما تدور تلك الأفكار برأسه، فينتبه وينصرف عنها بتأمل البيت المدهون بلون أخضر فاتح، وأضاف أحد الأطفال إليه رسوما، وأضافت له المياه التي تأتي في المواسير اصفرارا. يجلسون على

Twitter: @ketab_n

مقاعد بيضاء خشبية، مبطنة ومغطاة بقماش أحمر منقوش بالورد الذهبي الشهير، وأمامهم منضدة عليها شاي، وفي الجهة الأخرى عبير. هي كانت تقبل سامح، وتتغاضى عن البثور في وجهه، وعن كلامه غير المفهوم.. فرغم قوتها الظاهرة، كانت تشعر بالأسى كلما نظر أحد إليها ببجاحة، ويملؤها إحساس بالذنب تجاه والدها، كلما سمعت أحدا يتكلم عن مفاتنها. وسامح حين رآها لم يتكلم أو ينظر بتبجح، بل اكتفى بوضع شيء في سلتها، ومن ضمن الأشياء زجاجة عطر غالية، رائحتها مبهجة. شعرت وقتها أن ذلك الشاب هو من تستحقه، لكونه مهذبا ويحترمها، فلا تضطر لتوبيخه أو سبه، وبهذا تحظى معه بسلام نفسي.

إلا أن تقدم عم فرج إليها، وهو أحد الميسورين القلائل هنا، جعل عيناها تتسع وبدأت في تأمل حياتها ما بعد الثراء، وتنازلت في ضميرها عن كل مساوئ الرجل العجوز، كي تصبح من السادة، ويمنحها هذا السلام النفسي الذي تنشده. وفاة الرجل لم تكن محزنة، بقدر ما كانت مخيبة للآمال، وظهور سامح الآن مخيب أيضا للآمال، وصديقه هذا الهزيل معروف بكونه من يتحكم في الشارع، ما بين السوق والترعة، وأن أحدا لا يجرؤ على التطاول أو التعدي عليه والكل يلجأ له في لحظات الأزمات، خاصة تلك الخلافات التي تحدث بين السكان والغرباء. ذلك الشاب الذي يتأملها بطريقه مفضوحة للجميع؛ في خيالها أفضل من سامح.

لكنها تزوجت سامح، في فرح بسيط أقيم داخل البيت للحريم، وأمامه للرجال، وقدموا فيه دجاجا وأرز بالـ "دِمعة" للعشاء، وكان ذلك مكلفا جدا لوالدها، الذي كان قد اشترط ألا يتحمل أي نفقات في الزواج سوى الفرح، وحين أقيم الفرح اقتسم المصاريف مع العريس،

Twitter: @ketab_n

الذي تكفل بشراء كل شيء، وجهز غرفة في بيتهم، وكانت أسعد أيام حياته هي تلك التي تلت الزواج وسبقت وفاة أمه، والتي أنفق خلالها نصف مدخراته على هدايا لعروسه المتذمرة.

Twitter: @ketab_n

٢

كانت الترعة تربط بين مجموعة من القرى الصغيرة، بينها مزارع شاسعة لأصحاب الثروات، أولئك الذين لا يعرفون الزراعة، وأراضيهم "جناين فاكهة" يزورونها مرة أو اثنتين كل عام، ومقارنة بتلك المزارع، تبدو أراضة عرفة وعائلة سعد، مجتمعة مع القرية كلها، بقعة على جلباب. وتلك المزارع هي الأصل، ونشأت حولها قرى للعاملين والخدم، ثم استقدموا ـ أصحاب المزارع ـ عمالا وخدما أرقى، فبقينا نحن هنا بلا داع، وبدأنا في زراعة أمتارنا القليلة.

وبين المزارع الشاسعة، هناك عدة قرى مثل قريتنا، إلا أن قريتنا تميزت بأنها أقرب إلى الشارع الذي يفضي إلى السوق، ومن بعده يمكنك الوصول إلى منطقة سكنية مزدحمة، والآن، بعد أن اختفت الترعة، وبدأوا في إنشاء طريق، انتشرت على طول الترعة الخرسانية أعمال سرقة بالإكراه، وكل ضحاياها من سكان تلك الكفور الصغيرة، من الصنايعية أو المتعلمين الذين يضطرون إلى العودة ليلا، واتُهم أحمد النجار ورفاقه من القرى المجاورة سرا بذلك، حيث اتخذوا بين معدات البناء، وبمحاذاة الطريق ـ

Twitter: @ketab_n

الذي سيكون ـ منفذا لبيع المخدرات وتدخينها، وأصبحت تلك المنطقة هي نقطة تجمع للنجار وأشباهه، من كل القرى الصغيرة المحيطة، وعمال المزارع صاروا يأتون إلى هنا لشراء المغيب الرئيس للعقل، ذلك السحر الذي يعيد خلط الأوراق في رأسك، فترى المشهد من وجهة نظر مختلفة، تثير السخرية أو الخوف، وكلاهما شعور شيق.

كان من الطبيعي حين يتعرض أحد لسرقة بالإكراه من وجه يختفي خلف اللثام وصوت خشن، أن يتهم النجار ورفاقه، سرًا. لكن محمود قاسم قالها صريحة في وجهه، وأفتى له أنه سيُسجن على هذه الأفعال، حتى إن لم يكن هو الفاعل، وعليه الآن أن يتوقف عنها أو يوقفها. انزعج النجار من تلك الفتوى، بسبب الإساءة إلى سمعته، وهو الذي تعف يده عن السرقة بل إن نفسه تعف عن كل الشهوات، وكلما حاول شيطانه إغوائه، تجسدت في خياله صورة لطفل ممسك بنصف رغيف، داخله طعام، وهذه الصورة طريق مختصر لكبح جماح أي نزوة وجعلها ذكرى.

وتدخينه للحشيش لم يكن نزوة، بل كان قرارا رآه، وظل يراه حكيما، حيث إن حياته دون ذلك المهدئ بلا أي قيمة، فهو لا يسعى لشيء يسهر ويعمل ويدخر لأجله، كما لا تغويه النساء المباحة، ولم تسكن خياله من بعد فريدة سوى زوجة أحمد إبراهيم صديقه، الشابة التي تمكن من طردها من أحلامه بعد أن توقف عن رؤيتها وابتعد عن زيارة بيتهم، وبقى يعاشر نساء بلا وجوه في أحلامه، أو بوجوه لم يرها قط، حتى رأى عبير، تلك التي أصبحت زوجة لصديقه، فقطع علاقته بكليهما..

ليس هناك ما يضحكه أو يؤلمه، تبدو حياته راكدة كمستنقع، أو كالترعة بعد انخفاض مستوى الماء وارتفاع مستوى القذارة والوسخ.. حياته بلا

Twitter: @ketab_n

قيمة، فينام نهارا ويستيقظ ليلا، يبحث عن شيء يشغله، فيتدخل في كل المشاجرات، سواء عرف أطرافها أو لم يعرف، خاصة وأن المشاجرات في ذلك المكان رخوة وهادئة، إلا من قليل، لكن في الأصل المشاجرات هنا قليلة. يذهب للمقهى، يرى كل أصدقاءه وقد أرهقت عقولهم هواجس حول الأطفال، العمل، الزوجة، أو المال.. وكلهم يجلسون معه طويلا، لكنهم في النهاية لديهم ما يرحلون لأجله. هو الوحيد الذي يجلس للأبد، يعرف كل زبائن المقهى.. لم يكن لدى أي منهم طريق في العيش يعجبه، سوى "سيد مصيلحي" الذي يقضي الليل كله في تدخين الحشيش والغناء، في تلك الأراضي الفسيحة ذات اللون الأخضر، الذي يبدو قاتما على ضوء القمر، إلا من مناطق متفرقة تلمع بفعل الندى، وهواء منعش خفيف ينساب بين الجالسين، ليقشعروا بلمسة البرد غير المنتظرة، مع ارتفاع صوت حسن في لحظة انسجام، فيستدفئوا بالجوزة أو الشاي، ويروق البال على خلفية من صوت الصراصير يصاحبها بين الحين والآخر نقيق الضفادع، وقد ينضم صوت طلمبة ترفع المياه ليلا، ثم يعود صوت حسن ليغطي على كل ذلك في لحظة انسجام أخرى، وترد عليه جوقته الهائمة بين رائحة الهواء الطري ورائحة الحشيش الناعمة، حتى يبين الخيط الأبيض من الأسود، وتبدأ جماعة الشيخ صبري ذات الجلاليب البيضاء في الظهور على الطريق الترابي القريب، فيرحل المغني وفرقته تجاه بيوت تحوي الفطير والعسل والجبن، كما قد يجد أحدهم جزءً من طير ظل منتظره من وجبه الغداء وخضارا طازجا يُعد كسلاطة، فيملأ فمه بينما تُعد يداه اللقمة التالية.

ولولا الحشيش، لرأى النجار في "سيد" رجلا ضعيف الشخصية، يجالس الصبية في الليل للغناء، ولارتسم في خياله أن لا قيمة للطعام،

Twitter: @ketab_n

طالما لا غاية للحياة؛ وفي الأصل لا غاية للحياة، فلا قيمة لكل ما يبدو ممتعا، تلك الأشياء التي تقود الرجال تجاه البؤس، بأن يصبح في أرذل عمره كاللاشيء، يمر، يجلس أو يتكلم.. ولا يراه أحد. يقعده المرض، فتستمر الحياة وكأنما لم تره، ويموت دون أثر كأنه لم يكن.

فرأى ـ وبمنتهى الاقتناع ـ أن الحشيش يريحك من تلك الأفكار الكئيبة، ويحيلها إلى تأملات في طرافة النكتة، حلاوة الطعام، ونقاء الهواء، وتبدو تلك التأملات أكثر امتاعا. لذلك، وبكل صدق، رفع شعار "طباخ السم بيدوقه" فامتلأ بالدخان دون سواه، وقاوم حتى في لحظات السُطل التام كل النزوات والشهوات، التي ستقوده إلى اللاشئ، فامتنع عن مجالسة سيد والشابين الأصغر سنا رفاقه، طالما وجد لنفسه مكانا مميزا بين أشباهه، خارج هدوء القرية وبعيدا عن دكاكين الشارع، في الطريق الذي كان ترعة، ورفض كل الفرص السهلة التي أتيحت له للثراء، فهل يرضى الآن أن يتهم بسرقة، وبالإكراه؟!

أصبح أكثر تيقظا، مراقبا لكل رفاقه الجدد.. أولئك الذين وضع الله فيهم القدرة على معاقبة الآخرين، لا أحد منهم يقدر على قهر الآخر، وكلهم يسعون للقب "الأفضل" والأفضل هذا معيار متغير في عقولهم جميعاء قد يرونه يوما على أنه الأكثر صلاحا وابتعادا عن الإجرام، أو يرونه الأقوى، الأكثر ثراء، الأكثر فقرا، الأسرع في استخدام السلاح، الأطول قامة، الأكثر إجراما وابتعادا عن الصلاح!.. في كل عقل منهم كل المتناقضات، بحيث يعترف كل منهم بكل ذلك وفقا لمزاج كل جلسة.

لكن لكل منهم طريقته في تعطيل عقله تماما واتباع غريزته، ومن بين كل الرجال رجلان لا يفوقهم أحد هدوءا واحتراما، هما النجار

Twitter: @ketab_n

والأخرس. والأخرس ليست حالته، بل هو اسم التصق به، لأنه فضل أن يبقى صامتًا، بعد أن أصيب في طفولته بمرض أثر على أحباله الصوتية، فأصبح صوته مثل طفلة، وقد رأى فيه النجار العدو الأبرز، فصدق أنه من يسرق بالإكراه، وبدأ في تتبعه. إلا أن الأخبار أكدت أن للسارق صوتا خشنا ومزعجا، فبدأ النجار في الإنصات برهافه لك الأصوات من حوله.. فوجد أن للجميع صوتا خشنا وطريقة مميزة في النطقأ كي لا يظهر في طياتها اللون الريفي، فأضاف الأخشن صوتا إلى قائمة "الأفضل"، التي صنعها وصدقها..

بينما باقي السكان في حالة من الذهول، خوفا من عمليات سرقة سرية واعتداءات، في طريق كانت من قبل تستخدم في اصطياد القراميط أو الركض بالحمير، الطريق الآن مخترق من معدات تستبيح عالمك رأسيا وأفقيا، تنشر حولها الفزع.. تحمل داخلها معدات أخرى بلا إحساس، وجوههم جامدة جاحدة، يسخرون منا، يتأملون مؤخرات نسائنا، ونحن نتصدى لهم بالقول حينا وبالفعل الخجول حينا. أحيانا ننجح في إقناع النجار بحشد رفاقه لنصرتنا في أزمة أو مشكلة معهم، وقد ينصرنا وقد لا يقدر، وقد لا نقنعه وقد لا نحاول.. لنا انتصار وعلينا عشرة.

محركات ومعادن وسيارات، أدوات ورجال بلا وجوه، قد يشبهوننا أثناء الراحة أو الأكل أو المزاح، لكنهم حين ينفذون التعليمات لا يعرفون الإنصات أو المناقشة، تفقد أرواحهم التميز ويصبحون كائنات متطابقة دون وعي، تسحق ما نملك، فنقاومهم دون أدنى أمل في الانتصار، نقاومهم فقط كي نتمكن من النوم، أو النظر في عيون تنتظر منا النصر والعودة إلى سابق عهدنا، بعدما تبين أن أحلام البناء والازدهار، التقدم والنظافة باتت سرابا، وأن هناك طرفا آخر لا نراه يملك كل القرارات،

Twitter: @ketab_n

وإنا نقاوم فقط كي نتمكن من النوم، دون أدنى أمل في الانتصار.

حتى أولئك الذين تصوروا أن ما يحدث لن يصب في غير صالحنا، وأننا سنتحول إلى ميدان رمسيس الجديد، وبدأوا بالفعل في امتهان مهن جديدة تناسب وارتداء ملابس افرنجية، وتخلصوا من آثار اللكنة الرتيبة للزراعة في ألسنتهم، استعدادا لاستقبال العهد الجديد.. حتى أولئك داخلهم الشك، حين اتضح أن ذلك الطريق يبنى عاليا فوقنا، وأننا لن نُطل حتى عليه بوجوهنا العكرة وملابسنا الإفرنجية البائسة، وبضائعنا الرخيصة، كي لا نزعج من يمرون فوقه، أولئك الذين انتظرنا قدومهم بيننا، لكنهم أرسلوا عبيدا في معدات أصواتها مزعجة، جنودا لهم نفس ملامحنا لكنهم لا يرحموننا حين يأتيهم الأمر. وفي المدى، أسياد الزمن البائد مازالوا أسيادا، فمن كان يملك قوت يومه بقي كما هو، ومن يسر الله عليه الحياة زاده يسرا، ومن أطلقوا لحاهم وقبلوا الكتوف في عباءاتهم البيضاء الهفهافة بقوا بابتسامتهم الطازجة وجوههم اللامعة وكروشهم الممتلئة.. أما من عضه الفقر واختصه بنابه، فلم يتمكن من الهرب.

أحد أولئك المعضوضين بناب الفقر هو جابر، زوج فاطمة أم فاطمة، توقف عن الزراعة وبحث عن شيء يفعله ولم يجد، فعاد لزراعة أمتاره القليلة، والعمل في مزارع الفاكهة القريبة، ولم يتحسن حاله. لم يتمكن النجار حينها من تنفيذ وعده لفاطمة بمساعدة زوجها، حيث لم يكن يملك شيئا سوى بيت بنصف سقف، وقطع صغيرة من الحشيش يبيعها لينفق على طعامه وحشيشه، بينما يتألم لرؤية العائلة الوحيدة التي ينتمى إليها تعاني تلك المعاناة، "ما باليد حيلة" وهل يقول الرجال شيئا آخر حين يواجهون العجز؟

أكدت شيماء، صديقة فاطمة الأصغر سنا، وزوجة علي قاسم الأكثر

Twitter: @ketab_n

فقرا، أن عجز الرجال هذا سيفوت عليهن الفرص السانحة للثراء، تلك الفرص التي استغلها قلائل، مثل "محمود قاسم" الذي يقسم أن الفرص مازالت كثيرة، وليس عليهم سوى اقتناصها. لم تكن قد وصلت إلى آذان النساء ـ وقتها ـ مقولة "طلع من فوق"، والتي تصف حال الطريق، الذي اتضح أننا حتى لن نطل عليه، وبهذا تبددت أحلام التجارة مع المارينأ وبيع كل شيء بأعلى سعر لأولئك المسافرين الذين لا تعنيهم النقود. واستخدمت تلك الجملة القصيرة لوصف أي إخفاق وقتها، ففشل سمير في الالتحاق بمكتب محامي كبير، "طلع من فوق"، وتعذر إغواء أم ريهام في زياراتها لصديقتها "طلع من فوق"، بيع الأرض، العمل بالتجارة، رسوب أحد الطلاب، وحالة الفقر التي حطت على آل سعد، وعودة عمرو إسماعيل أبو سعد من الخليج دون ثروة.. الحشيش المغشوش، المحصول الهزيل، محاولات التودد إلى عبير أو النصب على زوجها.. كلمة واحدة تصف كل ذلك طلع من فوق"

لكن فاطمة وشيماء لم تتوقفا عن التفكير في الثراء القادم، ولن تتوقف إحداهما طوال حياتها الطويلة عن الظن بأن هناك حياة أفضل في متناول أيديها، ولا يعوقها سوى عجز الزوج.

بدأت شيماء تدفع "علي قاسم" ليعمل مع أخيه، دون أي إعتبار لمشاعر الخجل والنقص التي تملأ نفسه، حين تعدد هي أسباب فقرهم وضآلة مهنته، وتبدأ في شرح مزايا الرجال الآخرين ـ دون أي سوء نية منها ـ متصورة أن تلك هي الطريقة المثلى لدفعه للأمام. أما فاطمة، فكانت على ثقة أن لا شيء بيد جابر، زوجها الهزيل، فظلت تطارد أخاها النجار كي تلزمه بوعده. وبعد مدة ليست طويلة، أقنع النجار ـ دون أي عناء ـ سامح بأن يشارك جابر في "حراق"، وذلك لأن النجار كان يتقاضى أقل

Twitter: @ketab_n

مما يستحقه من الدكان طوال الوقت.

سعد سامح بفكرة أن يعاونه أحد، كي يتفرغ وقتا أطول لزوجته الفاتنة. وأخذ على عاتقه تعليم جابر كل شيء، من أسعار شراء العدس، الأرز والمكرونة وكمياتهم، البصل والثوم والخل، والطرق السرية لطبخ "الدقة" وتخفيفها بالماء، الشطة وكيفية إعادة تجميعها من الأكياس والأطباق الصغيرة المصاحبة للطلب إن كان من الفئة الغالية، وقدر الإضافات في الطلبات الأقل سعرا، الكمية التي يضعها في الكيس للصبية، درجة حرارة تسوية كل مكون، غسيل الأطباق، تنظيف الأرضية....

لم يعِ جابر إلا قليلا من كل ذلك، ورغم رداءة المنتج الذي كان يقدمه، وانتشار القاذورات على المائدتين والأرضية، اختلاط المكونات بالحصى، ونقص بعض المكونات أحيانا.. رغم كل ذلك، لم يخسر "حراق" زبونا واحدا، وظل الاختيار الأول لعمال الطريق والأطفال العائدين من المدارس، والنساء القلائل اللاتي لا يطبخن لفقر أو لانشغال. وهكذا دفعت فاطمة زوجها كي يستزيد من نسبته في المكسب، وذلك تحديدا بعد أن دعت عبير زوجها للاستزادة من حياة الترف والابتعاد عن العمل، فانصرف سامح عن الدكان، وكان قد توقف منذ فترة عن دفع أي شيء لعائلة "عم فرج"، واختار أحمد النجار أن يبتعد عن الدكان ويترك نسبته لأخته وزوجها.

أغرق سامح زوجته في الهدايا، بل إنه كان يصحبها خلفه على الدراجة البخارية، ليزورا حديقة الحيوان أو الأورمان ليستمتعا بالاختلاء ببعضهما أمام جمهور.. كما كان يصحبها لشراء احتياجاتها من أسواق ميدان الجيزة الكبيرة، وأنفق مبلغا كبيرا ليشتري لها تلفزيون ملون.

Twitter: @ketab_n

وفي حياة الصخب تلك، لم تصلح عبير كصديقة لأي امرأة من الكادحات زوجات الكادحين، وكانت دائما مسارا لسخريتهن وضحكاتهن المكتومة والمفضوحة، لكن جمالها المعترف به جعلهن يتحفظن على تلك السخرية، كي لا تبدو حقدا، أو كي لا يظهر الحقد الذي تكنه بعضهن تجاه تلك الصغيرة الجميلة المدللة. وبسبب كل ذلك، رأت فريدة أن عبير هي تجديد لشبابها وبهائها الذي بدأ في الزوال، وهي التي ستعيد للأذهان ذكرى كونها الأنثى الأكثر إثارة، وتحافظ لها على الدرجة الثانية.

تبادلتا الزيارات النهارية، تساعد كل منهما الأخرى في إعداد الطعام، وتشاهدان التلفزيون، وقد تخرجان للسوق للتمشية، وإثارة غيرة النسوان، وتملأ روحاهما بالزهو والنصر حين تميل النسوة على آذان بعضهن، بينما لا يرفعن العيون عن خطواتهن البطيئة المهتزة وملابسهن الملونة الجديدة. ثم تعود فريدة لخواء بيتها، حين يعود سيد من المقهى، فيغير ملابسه، وينصرف للتدخين والغناء، أما عبير فتعود لسامح، الذي أصبح يتناول جرعات كبيرة من الحشيش برفقتها، قبل أن يدخلا في نوبة حب صاخبة كل ليلة.

سعادة سامح وزوجته كانت مختلفة عن كل ما نعهده في الزيجات السعيدة، فهما لم ينجبا لرغبتهما في الاستمتاع، والشاب الأبله، المتلعثم، الهزيل، الفقير، صار مثالا للحظ حين يبتسم والله حين يرضى، فقد وجد بين يديه دكانا دون أن يدفع فيه شيئا، ثم وجد مُنتجه يروج، ويصبح ـ بقرار لا دخل له به ـ أكثر المنتجات التي تباع في تلك المنطقة، ثم تزوج تلك التي تبهرنا كلما مرت، ولم تكن تتمنى الإنجاب كما لم يتمن هو، فقضى وقته في جمع المال لإنفاقه عليها وعلى متعته الشخصية. ذلك أثار أحقاد الرجال، واستمتع هو بكونه محل النظر، وعُرف بين الجميع وتناقل الأطفال والمراهقين قصصا عن بذخه وحياته الصاخبة وإنفاقه

Twitter: @ketab_n

الهائل، ودفعه ذلك إلى التهادي في تلك الحياة المرفهة، فاشترى "دش"، وسافر للأسكندرية، ثم اشترى مراوح للبيت من "عم مجلع"، بعد أن انفضت شراكته مع محمود قاسم، الذي أصبح مثارا للجدل أيضا، بعدما حطت عليه ثروة لا بأس بها، فاشترى "أتاري" لأولاده، وظهروا مميزين بملابسهم التي تبدو جديدة طوال العام، والفضية التي تملأ جيوبهم. وقد يكون دخل قاسم أكبر من سامح، لكن قاسم كان أكثر تقليدا لسلوك المصيلحية والعائلات الكبيرة المندثرة، فشابه بذلك نموذج السعادة الذي نعرفه، وادخر كي يجهز ابنتيه على أكمل وجه، ليتزوجا من متعلمين حين يأتي ذلك الزمن.

ذلك الزمن لاحظنا فيه الثراء، فعرفنا الفقر. فقبل ذلك، كانت الثروة هي منحة إلهية، إما أنك ولدت بها، أو أنك لن تصل إليها أبدا. حتى رحلات الخليج، لم يجن أصحابها شيئا حين عادوا، أو جنوا فلم يعودوا. رأينا المال يسري بين أناس منا لم يخرجوا من تلك البقعة الضيقة، فعرفنا ذلك العدو الذي تعايشنا معه منذ سنين، واعتدنا وجوده حتى لم نعد نلحظه، فلم يكن يعني شيئا أن تقضي الحاجة الذهاب إلى بيت العائلة أو الأقارب للغداء، وربما للإقامة يوما أو اثنين، كما لا يجد الموظف حرجا في اقتراض جنيها أو اثنين لفك كرب حتى أول الشهر، ويكرر العملية كلما احتاج، ويطلب أكثر إن شاء، كما لم يكن الشراء الآجل "الشكك" دلالة على شيء، فكلنا كنا متساويين، أولادنا متشابهون في الشارع والبيت والمدرسة، الكل كان يعاني المشاكل ذاتها ـ إلا السادة ـ فاعتبرنا أن تلك المشاكل هي الجزء المشترك بيننا، وتركنا الباقي لنتفاوت ونتمايز فيه.

لذلك، أوقات التنازع كان يصف المتعلمون والموظفون الفلاحين والصنايعية بالجهلاء أو الأغبياء، ويصف الصنايعية الفلاحين بالكسالى

Twitter: @ketab_n

والخبثاء، ولا يتورع الفلاحون في لحظات الثورة عن استخدام كل بذاءتهم ومعايرة الخصم بأسراره التي يتناقلها الجميع سرا.

ولم يكن من تلك الأسرار التي تسئ إلى سمعة صاحبها الفقر، لم يشعر أحد بكون الفقر مخزيا أو محرجا، إلا منذ انتابت ميسوري الحال في القرية حمى الشراء. فبعد أن تجاوزنا ازمة التلفزيون.. التلفزيون الملون، ظهر الأتاري، ثم الدش.. ثم المنتجات الغذائية المعلبة.. لعب الأطفال المعقدة.. المراوح، التسجيل، التسجيل "ابو بابين ملابس الأطفال الملونة، أردية النساء المطرزة.. والذهب لمن استطاع إليه سبيلا!

فوضى إظهار اليسر قادتها الرغبة في التملك وهوس الشراء، وهنا شعر من يقترض جنيهين ليصل لمقر عمله ويعود، ومن تصحب الأطفال إلى جدتهم ليأكلوا، هنا فقط رأوا رفيق حياتهم الكئيب ذا الوجه المعفر الرمادي، والإحساس المحبط بعدم القدرة والنكد، هنا فقط رأى من لا يدفع لـ"زوزا" بقشيش، أو من لا يشرب سوى كوب شاي واحد طوال الجلسة، هنا فقط رأى نفسه ضئيلا.. هنا رأينا ذلك المسخ ذا الجسد الطول والعين الشامتة، الفقر

دُفع الجميع دفعا لمقاومة الفقر وطرده من بيوتهم، تزامن ذلك مع الحدث الأشهر، والجملة الوحيدة "طلع من فوق"

* * *

نجح البعض في إكمال تعليمهم، ثم هجرونا أعواما وأعواما، وعادوا بفقرهم كما رحلوا.. وكأنه وحمة أو عيب خلقي، يمكنك مدارته بعض الوقت، لكنه أبدًا لن يزول، كـ"عمرو إسماعيل أبو سعد"، الذي عاد وأقام مع أولاده وزوجته في بيت العائلة، حيث تقيم أمه، وذلك بعد

Twitter: @ketab_n

أن سكن أحمد إبراهيم أبو سعد بيتهم الخرساني، وكلا البيتان يعانيان العوز، فالأرض بيع أغلبها ـ والباقي منها لا يزرعونه بأيديهم ـ فذلك الجيل لا يجيد الزراعة ـ فتؤجر كل موسم، ويخرج منها ما يكفي بالكاد للطعام، خاصة أن الست عنايات لا يعنيها شيء سواه، وكلما دَخلت أو مَررت بذلك البيت في أي وقت ستشم رائحة التقلية، حتى قيل إن رجال عائلة سعد يشحذون ثمن الدخان، بينما في بيتهم وليمة يوميا. بالغ البعض في إلقاء اللوم على الطريق الذي يبنى، وأنه المتسبب في الفقر، وأن ذلك الفقر هو أصل كل الشرور، والفاعل الرئيس في كل حادثة أو كارثة.. امرأة هربت مع سائق من ناحية السوق، طفل آخر توفي، حامل أجهضت، امرأة لا تحمل، فتاة لا تتزوج، شاب شاذ.. أي شيء كريه يعكر المزاج العام يرجع إلى الفقر. والحق، أن شيئا مثل وفاة الأطفال بعد أن كان للجميع وبأسباب مختلفة، بدءا من الهزال والمرض وصولا إلى الحوادث، حتى أنه لا يوجد بيت لم يدفن طفلين أو ثلاثة، خاصة في الجيل الأقدم، حين كان العدد أكبر في الإنجاب، الحق أن الموت الآن بدأ يبتعد عن أبناء الميسورين، ويقترب أكثر منا، نحن الذين لا حول لنا ولا قوة ولا شيء. أغلبنا يعتمد على أبنائه في الإنفاق على الآخرين جوار تعليمهم، كي يحصلوا على فرص أفضل، أو يحصل أحدهم على فرصة للثراء َفينتشل الجميع، لذلك نستمر في الإنجاب وكأنه الوسيلة للنجاة من البؤس، إلا أن الأمور تزداد سوء بزيادة العدد في أحيان كثيرة، لكننا مازلنا نقتنص لحظات الفرح بالمولود الجديد، وأول خطواته وعثراته، ومحاولاته المضحكة في الكلام.. نقتنص البهجة بالأطفال، ويقتنص الموت البهجة أحيانا قبل أن يمشوا أو ينطقوا أو حتى يصبح لهم أسماء نتذكرهم بها، تلك البهجة المغدورة.

Twitter: @ketab_n

وفى البيوت التي تعاني حظا عثرا، تأتى المصائب مجتمعة.. فعائلة "خميس السائق المنكوبة، توفي لديهم طفلان، وتجاوز والدهم ذلك، وأنجب عددا لا بأس به ـ لم يفصح أبدًا لأحد عن عدد أبنائه الحقيقي، ولم تجد محاولات الفضوليين إحصاءهم نفعا ـ حين اشتد عود أبنائه وبدأوا في مشاركته الإنفاق، تعرض لتلك الكارثة، واضطر لترك بيته، وترك سيد هنا خلفه، لا أحد يعلم عنه شيء سوى أنه يجالس "رجال ما تحت الكوبري" لكنه لا يشترك معهم في تدخين الحشيش أو بيعه، وذلك عهد أوصى أبوه "أحمد النجار" أن ينقله إليه. كان هدف سيد هو البقاء على قيد الحياة، لحين الانتقام من "عرفة" وابنه "حسن"، فلم ير في ابتعاده عن الحشيش أي شر، كما لم ير في اقترابه من مخبر الحكومة "أحمد مسعود" سوى الخير.

المخبر يُقيم جوارنا بعد السوق، وعمله لم يكن سرا على أحد. لديه زوجة وأولاد، ويحيا مثلنا بالكاد، إلا من نوبات "عز" تأتيه أحيانا فيترفع عن مجالستنا على المقهى أو لعب الطاولة على المشاريب، ويرتدى نظارة شمسية أو بدلة، وتتساقط كلمات إنجليزية من فمه، لا يدري أحد إن كانت حقيقيه أم من ابتكاره، لكنه سرعان ما يُفلس ويتشاجر مع زوجته ويضرب أبناءه، ويأتي إلى المقهى ليشكو الغُلب، ويلعب الطاولة على المشاريب، ولا يشرب إلا إن ربح.

عرف المخبر سيد على عالم جديد، عالم الأسياد الحقيقين، أولئك الذين يمكنهم سحق عرفة وعائلته، بل القرية كلها. أولئك الذين يملكون ضرب النار وتجارة المخدرات من بابها، أولئك الذين يمكنهم وقف بناء الطريق واستكماله، بل يمكنهم إزالة ما بنى منه. إنهم يملكون تلك الأرض وما عليها، وافتتن سيد بالعمل معهم.. وانضم رفاق له

Twitter: @ketab_n

طوعا وقسرا، هؤلاء يمارسون حياتهم الطبيعية طالما كانوا منفردين، أما إن اجتمعوا فهم يشكلون خطرا يجب التراجع أمامه، لأنه يجب أن ينتصر وتُنفذ مشيئته، ولا أحد يدري ماذا قد يحدث إن فشل رجال "أحمد مسعود" في تنفيذ الأوامر الموجهة إليهم، فالسادة يمكنهم تصعيد الأمر حتى إزالة المنطقة من على وجه الأرض، وللحق لم يتم تصعيد أي مواجهة مع رجال "أحمد مسعود"، خوفا من العواقب. لكن الأزمة التي ظهرت بانضمام ذلك الجيل الجديد، أن لا أحد يمكنه التفريق بين الأوامر الموجهة إليهم وبين مشيئتهم الشخصية، أصبحت تلك المجموعة أكثر عنفا وثقة، وصاروا هم من يديرون كل التجارات والأعمال المشبوهة من تحت الكوبري، حتى يوم قاموا بتحريض أحد الشباب على سرقة إحدى مزارع الفاكهة، ثم قاموا بإلقاء القبض عليه وسلموه. انفض الجمع من تحت الكوبري، ولم يبق سواهم يحملون السلاح. حتى أحمد النجار، كان عليه الاختيار في تلك اللحظة إما أن يبقى بينهم ويتحول رسميا إلى مجرم ويغرق في الشهوات حتى أذنيه، أو يعود إلى القرية ليتزوج وينجب ويسمو عن ذلك الوسخ.

عاد ليبحث عن عروس، وحاول الحفاظ على علاقة طيبة بكل أبناء الطريق ورجاله، وتوسط أكثر من مرة لإعادة شيء مسروق، ودفع مبلغا نقديا نظير استعادته، كما كان الآباء يوصونه باستعادة أبنائهم الجامحين إن هم ذهبوا إلى هناك في لحظة تهور. وكان للنجار أيضا دور رئيسي في وقف مجزرة، كادت أن تحدث حين اعتدى أحد المساطيل من تحت الكوبري على صنايعي، وسرق عدته وكل ما كان معه، لكن الصنايعي عاد وبرفقته فرقة من زملائه وأقاربه وكلهم غرباء، لكن عددهم كان مهولا، وظل المدد يأتيهم لمدة طويلة، سيارة أجره تتوقف بعيدا وينزل

Twitter: @ketab_n

عشرة رجال يركضون، ثم سيارة، ثم أخرى.. حتى حاصروا المقر الرئيسي لتجمع المخبرين والمرشدين ومسجلي الخطر استخدموا أنابيب البوتاجاز في صنع دائرة من لهب حولهم، ولم يحاول أحد المحاصرين بدء الشجار، خاصة وأن عددهم لم يكن نصف عدد العدو. ولولا تدخل النجار وأحمد مسعود لدى عائلة الصنايعي وزملائه، وإعادة كل ما تمت سرقته، بالإضافة إلى السلاح الذي استخدم في تهديده، كتعويض مناسب واعتذار من الجميع، لما انفض ذلك الحفل.

وحاول "مسعود" استخدام النجار كمرشد، إلا أنه تهرب منه، واستقر من جديد في بيته على طرف الشارع، بعد مجموعة من الدكاكين والبيوت ذات الطابقين. أكمل النصف المتبقي من سقف البيت، وأصبح ذلك البيت هو الأقرب للطريق الذي شق القرية. تلك الحادثة أنهت في الخيال الجمعي تصور أن رجال أحمد مسعود محصنون، فهم لم يتمكنوا من استقدام أحد ليدافع عنهم، وأخذت سطوتهم في التراجع، وعاد البعض للاشتراك معهم، لكن بتحفظ.

النجار ـ الذي أصبح طرفا وسيطا في أي أزمة، لأنه أكثر الشخصيات قدرة على التعامل مع الخطرين والمسالمين بنية صافية للحل، وانتماء حقيقي للجانبين ـ يريد الزواج. هو لا يعرف أما أو خالة تخطب له، كما لا يوجد في عائلتهم الصغيرة من تصلح له، وهو لن يرضى بجمال أقل من عبير، أو مال أقل من بنات مصيلحي، لن يرضى بلسان طويل، كآبة تدين، أو بلاهة الخجل، يريد بنتا من عائلة تدعمه، لكنها لا تضغط عليه في الإنجاب أو تربية العيال أو العمل، وماذا يعمل؟

كان أحمد مسعود قد عرض عليه عملا موسميا، بعد أن رفض الالتزام معهم في عمل دائم. وكان العرض أن ينضم لهم كلما احتاجوه في شجار،

Twitter: @ketab_n

أو أمن غير رسمي، أو إحداث فوضى مقابل مبالغ مغرية. لكن النجار لم يرض، فهو كان متأكدا أن قدرته ليست في ذراعه، بل في غضبه، وتحديدا حين يدخل في تلك النوبة التي يختلط فيها الواقع بالذكريات، ويدق إصبعه بعنف، وهو لا يدري إن كان بمقدوره افتعال ذلك أم لا، وقد يحاول الوصول لتلك الحالة ولا ينجح، وبالتالي يفشل في مهمته ويعرض نفسه لكارثة. ثم إنه أراد من الأصل الابتعاد ـ قدر الممكن ـ عن الشر، فهل يذهب بقدميه إلى الحكومة؟!

كانت القواعد إن احتار أحدهم، أن يذهب إلى أكثر شخص متعلم يثق به لينصحه. وفي حالة النجار، كان سمير هو ذلك الشخص. سمير توصل إلى مكتب محاماة لا يتقاضى فيه أجرا، لكنه لم يحتج له، فنسبته من بيع الأجهزة الكهربائية كانت تكفيه. وبعد أن خرج من تلك الشراكة التي لا تليق بوضعه كمحامي ـ وفقا لأخيه بولس ـ تكفل أخوه بمصاريفه مرة أخرى. لكن بولس تنيح، وأرادت أرملته أن تعود بأولادها إلى بلدتها الأصلية القريبة، حيث لهم هناك أقارب، غير أنها كانت تكره هذا المكان منذ أن رأته، ففي قريتها الأصلية كانت الشوارع هادئة، والبيوت نظيفة وتزين المنطقة ـ التى كانت تقطنها ـ الأشجار بين المباني والورود على الشرفات وصورة العذراء على الجدران. كانت تتخيل قريتها القديمة جنة، وترى ذلك المكان قبرا، بينما فرضت على أولادها نظاما صارما، وعزلتهم قدر الإمكان عن الأطفال من عمرهم، وأصرت بعسف أن يكملوا تعليمهم، رغم أن الابن الأكبر بدا لوالده منذ اللحظة الأولى أن لا أمل في تعليمه. بولس تنيح ولم يعد الوقت مناسبا للنجار كي يجد الحل لدى سمير، فذهب إلى بيت عمه الشيخ صبري، ورأى العجب في المدخل..

Twitter: @ketab_n

ثلاثة شباب ينظفون الأرضية، ويوزعون "شلت" وحصر لمجلس سينعقد، على ما بدا. وفي المندره يدخن الشيخ الشيشة مع غريب يرتدى بدله، وبالداخل ثلاثة نساء ومجموعة من الفتيات يقمن بالدوران حول أنفسهن دقا للهون وتخريطا للملوخية وتنقية للأرز، سكاكين تتقاطع وخضار يتمزع، ماء يتطاير وصحون تُلمع، دكر بط يحاول النجاة من مصير زميليه.. والفوضى عارمة. البيت كله مطبخ، رائحة زكية ملأت أنفه، لكن السلام البارد أشعره أنه غير مرحب به، فرحل.

فلجأ إلى الحل الأخير، والذي حاول تجنبه قدر الإمكان، الفصيل الصاعد ـ الأكثر خطورة ـ ذلك الثلاثي المزعج. فاطمة أخته، ولها من شراسة وحدة طبع ما يخيف كل النساء وجل الرجال، شيماء: وقد قضت معظم حياتها في الشارع، ولا حدود لها حين تغضب، فألفاظها المبتكرة في السباب المركب ليست أقصى قدراتها، فهي حين تشتبك تستخدم أظافرها إن لم يجد الشبشب نفعا، وزينب، التي برغم هدوئها وطيبتها الظاهرة إلا أنها متغلغلة في كل البيوت بحكم صداقاتها المتعددة وبحكم "رحرحة" زوزا أخيها في الكلام، كلما جاء لزيارتها كي يشاهد التلفزيون أو يذوق الزفر ـ وزوزا عامل المقهى الذي يعرف كل شيء عن كل الناس ـ فكانت لدى زينب كل الفضائح والأسرار.

وذلك الثلاثي يصطدم دائما بثنائية "فريدة/ عبير"، اللتين تملكا مقومات أخرى كثيرة، فانقسمت باقي النساء بين الفصيلين، بعضهن يؤيد ويساند فاطمة وصُحبتها بسبب الإعجاب والتشابه أو الخوف من بطشهن، والبعض الآخر لم يتمكن من مقاومة الانبهار بحياة الترف وانصهار الرجال أمام الثنائي المثير. في كل الأحوال، لم تكن قضية النجار حين زار أخته فاطمة كل ذلك العبث الذي قصته زينب عليه، والتى

Twitter: @ketab_n

تهوى جمع القصص والفضائح لنشرها. حاول إسكاتها قبل أن تبدأ في عرض تفاصيل مشاجرة بين رجل وامرأته لا يعرف كلاهما، فظلت تذكره بالرجل ونسبه. ادعى أنه لا يعرف شيئا، فوصفت هيئته وشكله، فسألها عن زوجها، فأجابت باقتضاب وعادت تصف المرأة. قاطعها مستزيدا من أخبار زوجها، فنسيت قصتها الأصلية وأخذت تقص عن زوجها. اطمئن النجار أن لا سبيل لإسكاتها، فأشار لفاطمة، التي قامت بدورها ونهرت زينب فرحلت، ثم نهرت أخاها وأخبرته أنها ليست خاطبة لكا يزورها حين يريد الزواج، وأنه إن كان أمام عينها ويودها كما يفعل كل الأخوة، لكانت تذكرت من نفسها وزوجته من بنت الحلال، لكنه مختفٍ كما الأموات.

وفاة بولس الحلاق لم تكن حادثا عارضا، فقد توقف الجميع ليترحموا على الرجل الهادئ المسالم، الذي لم يسمع أحد عنه شجارًا أو مشكلة، ولم ينقل سر أحد، رغم كونه "حلاق مهنته هي قص الشعر، والكلام. اختلف البعض حول عائلته، هل لديه أربعة أبناء ثلاثة بنات وشاب، أم أن لديه فتاتين وشاب، وتلك الثالثة هي أخته، أو أخت زوجته ـ والتى لا يعرف أحد شيئا عنها، رغم علاقتها ببعض النساء ـ أسرة غامضة نسبيا، في بيتهم أربعة متعلمين، منهم انثتان، وهي نسبه مذهلة للإناث المتعلمات في ذلك المكان. كان ذلك الغموض حول أسرة تحيا بيننا منذ زمن شيء مدهش وقدرة عجيبة، إلا أن الأكثر عجبا وإدهاشا هو السؤال الذي طرحه خبيث ما وانتشر إلى رؤوس الجميع، من سيحلق لنا؟

الحلاق الآخر بعيد، فيما بعد السوق. وهناك آخر في قرية مجاورة، لكن الطريق إليه أصبح خطرا، بعدما لفظت القرى سكانها غير المسالمين إلى الطريق الرابط بينها. عائلة بولس لم يبق منها هنا سوى سمير، والذي لا

Twitter: @ketab_n

بجيد مهنة الحلاقة.. إذًا فالدكان سيباع. لكن المفاجأة كانت أن الأرض والبيت أيضا سيتم التخلص منهم، الشاري دائما هو أحد بيتين يملكون المال الجاهز، إما عم فرج أو المصيلحية، لكن كلاهما لم يتحرك، فانتظر سمير أحد الذين يتمتعون بطفرة اقتصادية، لكنهم تأخروا في الظهور، الوحيد الذي أراد الشراء كان الشيخ صبري!

هوجة البيع والتحول للتجارة لم تستمر طويلا، أما هوجة البناء على الأرض فقد بدأت هوجة، لم تتوقف، ولا يبدو أنها ستنتهي. الكل في ذلك الوقت لا يقدم على المغامرة، بعد أن تأكد الجميع أن الطريق "طلع من فوق"، وتبددت أحلام التجارة والثراء. الشيخ وحده يملك مالا، ويريد الانتقال لبيت أوسع كما يريد أن يملك طينا. وسمير لا يذكر سوى أنه يكرهه، ولا يذكر حتى السبب، فسخر سمير منه أمام محمود قاسم وأحمد إبراهيم قائلا إن مقاطعته للحلاقة لا تعني ألا يقدم العزاء في الحلاق، مشيرا إلى لحيته ومبديا اعتراضه على أن يختفي الشيخ وقت العزاء ويظهر للشراء. ارتبك الشيخ، وضحك أحمد إبراهيم كي يمر الأمر كدعابة، لكن محمود قاسم امتعض وشعر أن ذلك مهين للشيخ، خاصة وإنه صادر من مسيحي. رسم الشيخ ابتسامة مفتعلة على وجهه الأبيض الممتلئ، وتعذر بانشغاله في أمور هامة، لكن سمير، والذي كان مضطربا بفعل وفاة أخيه واضطراره لبيع المكان الوحيد الذي يعرفه، تمادى في السخرية وسأله، فيم ينشغل إن كان لا أحد يعرف له عملا. وقبل أن ينطق أحد، أضاف هو سؤالا حول إن كان مصدر المال هو صندوق الزكاة أم من ميراثه عن عائلته الثرية.

سحب أحمد إبراهيم سمير من ذراعه إلى دكان الحلاقة، بعد أن استأذن الرجلين. لم يغير الشيخ ابتسامته الهادئة الصامدة في وجه أي إهانة، وكأنه

Twitter: @ketab_n

توقف لديه الإحساس ـ حين يشهروا تلك الابتسامة في وجهك، عليك أن تدرك أن لا شيء ستقوله أو تفعله سيتم استقباله وترجمته في أجهزتهم العصبية الفريدة.

رحل الشيخ بإحساس خيبة أمل، حيث لم يحصل على البيعة. في الليل زار أحد أتباع الشيخ سمير، وزار الشيخ بنفسه أحمد النجار. الشاب الذي زار سمير كان متعلما، من أسرة فقيرة لدرجة الجوع، يسكنون في بيت مؤجر فيما بعد السوق، وبالكاد يدفعون الإيجار، وقد تعرف على الشيخ عن طريق أحد زملائه في المدرسة، وتعلق به من أول رؤية جاءته في المنام، فصار تابعه الشخصي المخلص والمكلف بالأعمال التي يعف عن تأديتها. كلفه الشيخ أن يُعلم "سمير" أنه سيبيع شاء أو أبى، وقد أوصاه الشيخ بأن يكون حازما ولا ينتظر إجابه. فعل ذلك على مضض، فهو كان أحد الذين اقترحوا على الشيخ صبري طرد الشاب غير المسلم وأخذ ما لديه كحق، وأفتى في من أفتى بأن الشراء منه عطفا لا مبرر له من سيدنا الشيخأ ويجعل أولئك يتمادون في التطاول.. لكنه التزم بالتعليمات.

الشيخ قابل النجار عند الأوناش، ودعاه إلى بيته، فتذكر النجار كيف عامله باستهانة يوم جاء يطلب منه وساطة لدى عروس، أي عروس، وأصر النجار أن يتكلموا في منزله الجديد. لم يناور الشيخ، واتجه مباشرة إلى طلبه من ابن أخيه، بحق ما ألقاه في القطار وهرَّبه فيما مضى، أن يتشفع له عند سمير ليتم البيعة، قبل أن يلتفت إليها أحدهم فيرتفع السعر. لكن النجار ـ وبحق الله ـ لا يتمكن من إجبار أحد على البيع، لكن يمكنه التأثير وبقوة، فقط إن ساعده الشيخ على إكمال النصف الباقي من دينه.

بعد يومين، وفي قرية قريبة، كان النجار بجلبابه البلدي جوار عمه،

Twitter: @ketab_n

في بيت من ثلاثة طوابق، محاط بسياج خشبي منقوش مغطى باللبلاب. كل ما حول البيت بدا نظيفا منتعشا.. حديقة مزروعة ومعتنى بها جيدا، أشجار ونباتات متسلقة وورود، ممر مبلط ببلاط أخضر اللون، يقودك إلى سلم قصير، من بعده باب خشبي كبير، على يمينه ويساره شلت وكراسي متناثرة تحت مظلة من حجر ملون. بعد الباب الخشبي ممر أخر صغير، يقود إلى المندرة، وهناك صالون مذهب مغطى ببياضات صفراء نظيفة، انتزعتها مراهقة ـ بعد أن تسلمت الضيفين من الغفير ـ وكشفت عن قطيفة حمراء مطرزة بورد ذهبى بارز، ثم رحلت في اتجاه الباب، في فستانها المنقوش ذي الأكمام وحجابها المُحكم.

لم يكن قد رأى شيئا مثل هذا من قبل. اتسعت عينه دهشة حين رأى كل تلك النظافة وكل ذلك الأثاث. بعض البيوت التي عرفها كانت كبيرة، وبها مساحات واسعة لا تجد ما يشغلها، حتى أن مقاعدنا المكسورة لا نلقي بها، كي نملأ الفراغ. في بيوتنا دائما سرير، مرآة ودولاب، وقد تحوي سريرًا آخر أو اثنين في أكثر البيوت بذخا، صندوق لملابس الأطفال، بعض المقاعد المهترئة، طبلية، وأضيف مؤخرا الأنتريه ومنضدة التلفزيون. هناك دائما أشياء بلا قيمة موجودة، بألوانها المطفأة وأرجلها المكسورة، حُصر مفروشة أو كليم، ولا شيء يُدخل البهجة في النفس مثل ذلك المقعد الضخم المريح الملون، الذي يجلس عليه النجار. حتى في أفخر الصالونات لدى آل سعد وأمثالهم من متوسطي الحال، لا شيء بهذا البهاء. لكنه مجرد كرسي في المندرة، فماذا يا ترى داخل البيت؟!

دخل عليهم رجل طاعن في السن، يستند إلى شاب، ويرتدي كلاهما الجلباب الأبيض القصير. انتفض صبري من مكانه، وذهب ليسند هو الرجل بدلا من الشاب الذي رفض، فأمسك صبري بيده الأخرى.

Twitter: @ketab_n

المشهد غير مفهوم للنجار، وفكر أن عليه فعل شيء، فقام واقفا، ثم فكر أكثر، فقرر أن يزيح العوائق في طريق الموكب. وقبل أن يحرك ساكنا، أشار له صبري بعينيه أن يبقى مكانه.

جلس العجوز، والتقط صبري يده ليقبلها، فانتزعها واستغفر عاد صبري إلى مقعده جوار النجار، وأخذ العجوز يداعب لحيته وهو يتمتم بآيات من القرآن الكريم. رفع عينه بعد لحظات إلى وجه أحمد، فارتبك.. هو لم يلق في حياته شخصا بهذا القدر من الاحترام والثراء، ولا يعرف كيف يتعامل معه أو ماذا يقول له. هو لقى كل أصناف البشر كما كان يتصور، لكنه في تلك اللحظة تحديدا اكتشف أي عالم ضيق عاش هو به، فما بين الميدان والبيت لم ير سوى القاع وما دونه. "هو لا يمكن أن يرضخ" هي الجملة التي ظهرت واضحة في خياله، وأثارت حماسه لدرجة أفاقته من تلك الأفكار التي دارت برأسه، حول كيف سيواجه هذا الجالس أمامه، وبما يستطيع الانتصار عليه، فتذكر الثري الوحيد الذي تحداه ـ عم فرج ـ وكيف رضخ في النهاية لطلباته. لكن ذلك الرجل ليس عم فرج، فهذا البيت به على الأقل خمسة عشر رجلا، خمسة في كل طابق من طوابقه الثلاثة، غير الغفراء و... أفاق النجار من أفكاره تلك، على صوت طرقعة أصدره الشيخ صبري عن طريق حركة بإصبعيه الوسطى والإبهام، التفت إليهما وبدا أنهما ينتظران إجابته على سؤال لم يسمعه، فقال "نعم"، فأتاه الرد "ما شاء الله والله"، كان ذلك دليلا على إجابته السليمة.

رفض صبري أن يبقيا حتى الغداء، واكتفيا بالشاي وبعض المعجنات المقدمة معه، ولم يلمسوا الفاكهة المقدمة إليهما. تلك الزيارة التي لم تستغرق ثلاثين دقيقة كانت كفيلة بأن ينبهر النجار ويمتلئ بالحماس تجاه

Twitter: @ketab_n

ذلك البيت ومن فيه. لم يتكلم الشيخ صبري في شيء وقتها، وأخبر النجار أن عليه الآن إتمام الجزء الخاص به من الصفقة، كي يذهبا في زيارة ثانية، وفي الزيارة الثانية يُفتح الكلام، بعدها ستكون كل المسؤولية على النجار، ولن يعطيه الشيخ مليما، وعليه أن يرفع رأسه. ورغم أنه لم ير العروس، لكنه كان ممتلئا بالحماس كي يدخل ذلك البيت. سيكفيهم كلمة ثقه من الشيخ أنه فلاح أو نجار، ولن يسألوا عنه أكثر من ذلك، وإن سألوا في منطقته فلن يخذله أحد. لكن الأزمة في أنه لا يملك شيئا، فآخر مليم أنفقه على إتمام بناء البيت.

في اليوم التالي، زار فاطمة كي يأكل طبيخا، فقابلته بصحن بصارة وفحل بصل. قص عليها ما رآه، فانفعلت عليه ووبخته قائلة ما معناه ـ إن افترضنا أنها قالته بأدب ـ أن مثل أولئك لا يتزوجون سوى أبناء عمومتهم أو أبناء أخوالهم، وفي الأصل أعمامهم وأخوالهم من نفس العائلة، ثم إن حدث وتجاوزوا حدود العائلة فهل يأخذوا "جربوع"؟.. توقفت للحظة وانحنت لتلتقط جثة الصرصار الذي سحقته، ألقته، عادت تقول بصوت أكثر هدوءً إنهم إن وافقوا به عريسا، فهذا إثبات كافٍ أن ابنتهم تلك معيوبة. الأرض الخشنة التي كان يجلس عليها والطبلية التي تتراقص بفعل احتضار أحد أرجلها الأربعة، فتهز الصحن المعدني مطفأ اللون الملئ ببصارة، وجثة الصرصار الذي قتل بينما كان يبحث عن شيء يأكله، وشبشب اخته القديم المهترئ، وكعبها الخشن الرمادي.. كل ذلك جعله يتأكد أنه سيدخل بين أولئك السادة، حتى وإن كانت البنت معيوبة؛ لكن مصاريف الزواج من أين؟

كل ما يمكن جمعه من نقود المخدرات لا يكفي، فاقترض من محمود قاسم، الذي ـقسم أنه لن يسترد المبلغ قبل أن يقف على قدميه في تجارة

Twitter: @ketab_n

ما، واقترح عليه أن يشارك عم مجلع في تجارة البهائم. لقى النجار عم مجلع بعدها بقليل، واكتشف أن قروشه القليلة لا تسع أي تجارة. قفزت فكرة إلى رأس النجار لحظتها، ثم تحولت إلى خطة.

سمير لم يرضخ لضغوط عائلته وُيتم البيع لأي كان، وكان رد فعل الشيخ السلبي، حين تعمد السخرية منه، سببا كافيا لجعله يتمادى، فتجرأ عليه أكثر، حتى صار يتصيده ليسخر منه، والشيخ لم يقاوم ولو لمرة واحدة، لارتباكه في المقام الأول، وفقدانه القدرة على المواجهة دون استخدام سطوة لحيته، وتأثيره على أولئك الشباب الذين يتحلقون حوله أينما حل. هو، إن طلب منهم التدخل، سيوقفوا سمير عند حده، لكن ذلك سيزيد الأمور تعقيدا مع المحامي الشاب، وبدأ الشباب ينقلون قصص وفكاهات المحامي، حتى صارت نكت، أضاف لها المراهقون والأطفال لمسات، كان بعضها جيد والبعض الآخر لم يكن. أثار ذلك بعض الشباب أولئك الذين يتحلقون حول الشيخ. كانوا في قمة الغضب؛ وهم في الأصل غاضبون، ناقمون، ساخطون على المجتمع الفج، الذي تجلس فيه النساء مع الرجال في السوق، ويتحدثن إلى الغرباء، ومعظمهن يرتدين الحجاب وكلما وددن الظهور بمظهر حسن ألقوه. يخرجن اثداءهن لإرضاع الصغار، ويضحكن بمنتهى الفجور، بينما الرجال يدخنون المخدرات، يلعبون الكوتشينة في المقهى، يشترون التلفزيون، غير كل البدع الأخرى التي تباع في ذلك الزمن. كانوا ناقمين على أنفسهم لعدم إقامتهم حدود الله، غاضبين بسبب الأحلام الجنسية التي تراودهم بسبب رؤية تلك المؤخرات المهتزه في الجلباب البلدي الضيق، لا يقدرون على الاندماج في العالم الخارجي، بسبب فقرهم كما لا يملكون صنعة. هم بلا شك مملؤين بالحقد والكراهية، ولم ينقصهم سوى

Twitter: @ketab_n

أن يُهان الشيء الوحيد الذي قد يحترمهم البعض بسببه، الشيء الوحيد الذي لن ترهقهم أو تكلفهم معرفته، ذلك الشيء هو دين الإسلام، والاستزادة منه كانت لهم طوق النجاة الذي أنقذهم من اللاشيء. الآن فرصتهم لأثبات قوتهم وسطوتهم، وأن يصبحوا شيئا ذا بال، ودون أي عناء أو تأنيب ضمير. الآن فرصتهم لإنزال العقاب المستحق على ذلك الخارج عن دين الله. لم يهدئ الشيخ حماسهم، كي يبقوا حلا أخيرا لديه إن لم تنجح المساعي التي يقودها النجار. لكن مساعي النجار كانت في اتجاه إقناع عم مجلع بالشراء، والضغط على سمير للبيع بأقل سعر. نجح النجار في ذلك الجزء، ورغم يقين الشيخ من أن النجار هو من دفع عم مجلع للشراء، وهو من جعل سمير يبيع بذلك السعر البخس، إلا أنه وافق أن يصحبه في الزيارة الثانية لبيت العروس، لسببين، أولهما: أنه لم ينتهي من قصة الشراء الملعونة تلك، وأن النجار قد يقنع عم مجلع بالاحتفاظ بالأرض والبيت لنفسه. السبب الآخر هو أنه كان على يقين أن تلك الزيجة لن تتم، ولذلك اختار من البداية تلك العائلة الثرية.

تمت الزيارة الثانية، وأصبح النجار قادرا على الذهاب بمفرده، واشترى الشيخ البيت والأرض بضعف المبلغ الذي دُفع لسمير، واقتسم النجار الفارق مع عم مجلع، الذي كان سعيدا بذلك الربح السهل. لم يكن أحد غاضبا وقتها سوى "المتحلقون" ذوي الأردية البيضاء القصيرة، نفروا من شيخهم الذي تباطأ حتى هرب المسيحي، ولم تلق فكرة الاعتداء على عم مجلع بدلا من سمير ترحيبا بينهم، فهم حتى تلك اللحظة ـ ودون وعي كامل ـ يخشون من القوم الأثرياء. أودع النجار نصيبه من الربح في تجارة المخدرات، وجاء بصبية من كل صوب وحدب، متعلمين أو فلاحين يبيعون لحسابه.

Twitter: @ketab_n

وقتها كان يشاع سرا أن "شيماء" زوجة علي قاسم على علاقه بعبد الرازق مصيلحي أكبر أبناء عرفة. محمود قاسم انتهت زهوته، وعادت تجارته للركود، وأسرف في تدخين المخدرات. فريدة تعاني الوحدة، فتلتصق بعبير، التي تعاني ضيق الحال، بعد أن دفعت فاطمة زوجها إلى الاستيلاء بنسبة كبيرة على دخل "حراق"، ويعاني سامح مرضا يجعله لا يقدر على الاستيقاظ وقتا طويلا، وتذبل صحته بعد أن أنفق كل مدخراته، وباع دراجته البخارية، وأخيرا أقعده المرض.

*

النجار يسيطر بيد من حديد على الصبية، ولا يجرؤ أحد على سرقته في مليم، بينما يستعد لإقامة فرح كبير، وتستمر المعدات الثقيلة في إثارة الأتربة وإزعاج السكان، وتعزز الفصل بين الجانبين. جانب له الزراعة على قدر المستطاع، وآخر ليس له شيء واضح، يبحث عن مغزى لوجوده.

علي قاسم، الذي يجوب شوارع العاصمة بقميص متسخ وبنطلون قاتم ـ تظهر الخيوط البيضاء في "حجره" ـ بني أو رمادي ـ لا يتمكن هو نفسه من تحديد اللون الأصلي ـ لحيته لم تكن حليقه سوى الأيام الأولى في زواجه، وبعد ذلك كانت تبدو دائما نابتة حتى إن أزالها بالموسى يوميا. زملاؤه في العمل لهم أسلوبهم المميز في فرض بضائعهم على زبائن المقاهي، ربات البيوت، أصحاب المحلات، أو حتى المارة. يفرضون وجودهم فرضا، وقد يستخدم أحدهم كلاما مسجعا أو يفرط في الابتسام وإلقاء الدعابات، لكن علي لم يكن له صبر على أي من ذلك، واستعاض عنه بمجهود مضاعف، حتى أنه كان يعود إلى البيت ليوقظ زوجته تعد له شيئا يؤكل، ويسقط نائما على الطبلية، ثم أصبحت

Twitter: @ketab_n

تترك له الطبلية مجهزة وإلى جوارها وسادة، وعلى هذا تمر أيامه، حتى يأتي الخميس، فيتعمد أن يعود مبكرا ولو ساعة، ويحدث جلبة جوارها كي تستيقظ، حتى تراه وتدرك ما يريد، فتدخل معه في جولة مجاملة له ليس أكثر، دون أي شعور بالمتعة، بينما تلك الجولة هي متعته الوحيدة في الحياة. لذلك، صدق الجميع شائعة كونها ترافق عبد الرازق مصيلحي، والذي لا يرتبط اسمه سوى بالنساء.

شيماء كانت أول زوجة تسقط علانية، حتى أن فاطمة ترقبت خروجها من البيت، وسألتها إلى أين تنوى الذهاب، فلم تتلعثم شيماء، وأجابت إلى "المصيلحية" شيماء لا تعرف ماذا يجعل الرجال ينشغلون بذلك الفعل المقزز اللزج، هي لا ترى فيه أي متعة، لا تشم سوى العرق أو رائحة الفم المثيرة للغثيان.. ذلك الفعل الممل من الإدخال وإعادة الإدخال ما هو إلا عملية تنقيب عن الأطفال بداخلها، فإن لم تكن تنوي الإنجاب، يصبح ذلك الفعل لا مبرر له. ارتاحت حين وصلت علاقتها بزوجها لذلك المستوى، وتمنت أن تختفى ليلة الخميس من حياتها.

الشبهات التي أثيرت حولها ليس لكونها تعمل في بيت المصيلحية، فكثيرات قبلها خدموا في بيوت الأثرياء. لكن عبد الرازق ضاجع كل من دخلت ذلك البيت ولم تكن محرمة عليه، حتى وصل إلى عائلته وابنة عمه تحديدا، التي كانت وقتها مراهقة، واضطر إلى الزواج منها كي لا تحدث كارثة في البيت. تلك المراهقة كانت كفيلة بجعله يكتفي، بل كان يُقصر في حق زوجته الأولى بفضلها، لكنه لم يتمكن من مقاومة لمس الخادمة الجديدة، وهي لم تمانع أن يتحسس جسدها. لم يفعل أكثر من ذلك، وأعطاها يوميا طعاما كي لا تعترض على فعله، أو تطلب الانتقال للخطوة التالية، بينما تلك الخطوة التالية وما بعدها لم تحدث إلا في خياله،

Twitter: @ketab_n

وهو يقص لأصدقائه كيف استدرجها وغواها، وكيف صارت تعشقه، كي يُرضي غروره ويمتلئ زهوا، هو الذي أدرك أنه لا يقدر على امرأتين، فأخذ في المبالغة. لم يكن لدى أحد سبب للتشكيك فيما يقول، انتشر الخبر سرا، حتى وصل للجميع دون "علي"، ولم يتغير شيء سوى نظرة الشفقة في عيون البعض، ونظرة سخرية واستهزاء في عيون آخرين. وتطاول أحدهم عليها في طريقها للسوق، فلقى قبقابها الخشبي على رأسه، وزفته فاطمة بالسباب، واكتفى الجميع بالنظر إليها إما باحتقار أو رغبة.

النجار سيتزوج أختا فاضلة، لم يرها حتى اللحظة. لكنه لم يفكر في ذلك الجانب المتعلق بطبيعتها وهيئتها، واكتفى فقط بأنها ستدخله إلى عالمها (عائلتها). لم يكن مسموحا لأي من أفراد العائلة الزواج من غريب، وكان كلما ولد ذكر ولدت أنثى له، حتى تمرد بعض الشباب وخرجوا على تلك القاعدة، وسعت بعض الفتيات إلى ذلك، لكن مشاريعهن لم تكتمل لسبب أو لآخر. وكان أحد أشد المدافعين عن ذلك التقليد هو ذلك الدرويش، الذي أصبح فجأة كبير العائلة، واستمر على منهجه هذا، إلا أنه كان يعرقل الزيجات التي يرى فيها زوجا غير ملتزم، حتى وإن كان ابنه. لم يعد يهتم سوى بدرجة التزام الزوج، ولقى اعتراضا واسعا حين وافق على طلب الشيخ خليفة بأخذ ابنة أخيه المتوفي لقريبه الـجربوع. لكن الرجل ظل مقتنعا بأن يناسب الشيخ صبري التقى الصالح، واشتد الخلاف بين الطرفين في العائلة، حتى ارتضوا أن يكون رأي "هاجر ـ العروس ـ هو الفيصل، هي تركت التعليم قبل الحصول على الشهادة الإعدادية، ليس لعادة العائلة، فقد كان في ذلك البيت طبيبة نساء، قبل أن تنتقل مع زوجها إلى الحضر، وخريجات من التجارة والحقوق تزوجن، بقيت بعضهن وبعضهن رحلن، ومعلمة،

Twitter: @ketab_n

وهي الوحيدة التي تمارس عملا من بين كل النساء المقيمات هناك. لكن هاجر كانت لا تصلح للتعليم، فهي كانت مترددة في كل شيء، شاردة في التفاهات أغلب الوقت، تشرد في جملة قيلت عرضا في الفصل، وتتصور أن الهدف الخفي من ورائها هو السخرية منها، كما تشرد في تأمل حالة الطالبات الرثة، وترى أنها أرقى منهن، تخشى أن تتكلم كي لا يلحق أحد بها أذى، لا تحب المذاكرة، وتلتصق بأمها أينما كانت، وسعدت بقرار إخراجها من التعليم، وقبعت في المنزل في هدوء، تحاول الابتعاد عن المشاكل. حتى حين سألها عمها عن رأيها، خشت أن تقول شيئا يتسبب في إيذائها، فضغط عليها لتنطق، فخشت أن يكون صمتها هو المؤذي، فبكت.

في اليوم التالي، كان التصور السائد أنها ترفض لكن لا تريد إغضاب عمها الكبير، ولم يرض الرجل بتلك الإجابة فسأل أمها، التي هي في الأصل ابنة لخاله وعمته، وكان رأي الأم أن تتزوج من الغريب، طالما هو رجل صالح، بعد أن نصحتها الطبيبة بالاكتفاء من زواج تلك العائلة. فناهيك عن تشابك علاقات القرابة وتشابه الأطفال لدرجة التطابق وتكرار الأسماء بصورة عبثية، يضطر فيها الشخص لتعريف اسم أمه وجده لأمه، كي يتم التمييز بينه وبين آخر يحمل نفس الاسم واللقب؛ أحيانا يتكرر اسم الأم أيضا، كل ذلك كان مدعاة فخر للعائلة، ولم يكن مزعجا لأي منهم، ولعبة الأسماء تلك بإمكانهم إيقافها في أي لحظة، بأن يستخدموا أسماء أخرى، لكنهم يستمتعون بها. الشيء الوحيد الذي أخاف الطبيبة، ونقلت خوفها للنساء، هو ظهور ثلاثة أطفال معاقين، غير أن أغلب المواليد الجدد ناقصو النمو، يلزم إبقاؤهم في الحضانات لفترة، وقد يعودون من حيث أتوا. فأصبحت الأم، الطبيبة، وزوجة

Twitter: @ketab_n

تاجر السيارات، وهن مراكز ثقل في تلك العائلة، يدافعن عن موقف كبيرهن، وبهذا لم يصبح تشدق الفريق الآخر ببكاء العروس مجديا. اضطر الشيخ أن يساعد النجار، كي لا يخسر علاقته بكبير تلك العائلة، وظل لفترة مندهشا كيف وافقوا!

هو اختارهم تحديدا ليقينه أنهم لن يرضوا بذلك "الصايع عريسا. كان يعلم أنهم لن يحرجوه في الزيارة الأولى، لكن في الثانية سيتلقى الرفض المهذب، وحسب تخطيطه لن تأتي تلك الزيارة إلا بعد إتمام صفقة الشراء. لكن بعد تلاعب النجار وعم مجلع، اضطر للشراء بسعر عالٍ، كما أصبح الآن من واجبه أن ينفق من ماله الخاص، كي يظهر بمظهر يشرفه أمامهم، وهنيئا لذلك الصايع المحظوظ بنت الذوات، وهو الشيخ الذكي المجتهد لم يحصل سوى على ثلاث فلاحات فقيرات!

علم الجميع بالخبر، النجار سينهي أي سبب لنظرة الانتقاص في أعين البعض بارتباطه بتلك العائلة التي نسمع عنها أساطير، وسيؤكد على أنه السيد في هذه المنطقة، ويدحض أي نفوذ للقوى القديمة، كعائلة مصيلحي، أو للقوى الجديدة "صيَّع ما تحت الكوبري.

كان للنجار وقتها صبية يكثرون وينتشرون، كما ساعده صبري على تأثيث بيته ليليق بالزوجة، وبدا كل شيء على ما يرام، ومرت تلك الاستعدادات وما قبل الفرح بصوره احتفالية. وقبل ليلة الحنة بليلة، جمع النجار كل من يعرفهم، بل كل من رآه وصافحه من المنطقة أو المناطق المحيطة، وقدم لهم الكيف مجانا، وقدم بعضهم كيفا في المقابل، ونثر آخرون زجاجات البيرة على الموائد، ثم دارت الجوز وأطباق تحوى قطعا من جوافة وبرتقال. غنى حسن عرفة، بينما يناوله صبي الجوزة،

Twitter: @ketab_n

فيلتقط نفسا بين الكلمة والأخرى، وتجمع الأطفال من حولهم في ذهول، واصطحب بعض الآباء أبناءهم ليستمتعوا برفقة الرجال، ويستمعوا إلى أحاديثهم الهزلية عن الجنس والحشيش والكوتشينة بينما يبحثون بأعينهم عن العريس، الذي بدا زعيما مطلقا في تجوله بين الحضور وتلقيه التحيات، مرتديا جلبابا أبيض، يشف عن ملابسه الداخلية، وقد حلق ذقنه وترك شاربا عريضا. لم يحضر "عرفة" تلك الليلة بسبب مرضه، لكن سامح حضر رغم مرضه الأشد، كما لم يحضر أي من أتباع الشيخ صبري، الذين اختلفوا معه منذ هرب سمير، وانشق كثير منهم عليه، ونصَّبوا أحدهم إماما بدلا منه، ثم انضموا لشيخ آخر من خارج القرية. علي قاسم، الذي عاد من العمل نائما في الأتوبيس، ثم سار نصف نائم حتى دخل المنطقة، رفع جفنيه بالكاد، ورفع يده ملقيا على الحضور التحية، فلم يلحظه أحد، واستأنف نومه أمام البيت، كي يحظى ببعض الهواء الطري.

لم يفهم أغلب الحضور سر السخاء في تلك الليلة، إلا حين ادركوا أنهم محرومون من الذهاب إلى الفرح. فإن كان النجار قد جمع في ليلة ما بين الفلاحين، التجار، الصيع، والمشايخ، حتى إن كل من تعرض لسرقة أو إساءة في ليلة تحت ذلك الطريق جلس تلك الليلة إلى جوار خصمه، وقد يكون ناوله الجوزة، أو أخبره نكتة، وعلى أقل تقدير فهم دخنوا نفس الحشيش، وسمعوا نفس الغناء الفاتر من "حسن عرفة"، لكن ليس من المنطقي أن يجلس أولئك الفلاحون والصيع إلى جوار التجار والملاك والمشايخ الحقيقيين. ومن حسن حظ النجار، أن هاجر والدها متوفٍ منذ ما يقل عن عامين، وقد استغل عمها الكبير تلك الحجة ليضفي على الفرح الوقار والهدوء، بل وصل الأمر به إلى فصل الرجال عن النساء. الأمر الآخر هو أن كثيرين من العائلة الكريمة لم يكن يرضى بذلك

Twitter: @ketab_n

النسب، فتعمدوا أن يرحلوا مبكرا. وأراد الشيخ فرحا يليق به، فتولى هو الإنفاق على الطعام، فلم يتكلف النجار شيئا ذا بال، وخرج الفرح كئيبا هادئا، رغم أن الطعام المقدم فيه يكفي لإقامة ثلاثة أفراح مبهجة، كأن الشيخ ورفاقه لا يستمتعون سوى بالطعام. ولهذا، لم ينزعج أحد من عدم دعوته لليلة الكبيرة، وامتنوا لليلة ما قبل الحنة الصاخبة.

عاد النجار بشيء ما إلى البيت، وأجل استكشافه إلى الليلة التالية، بسبب التوتر الشديد الذي عانى منه كلاهما، لكنه حين استيقظ على صوت ينادي عليه من خلف النافذة، وكان بيته قد أصبح مليئا بالأثاث، بفضل مساعدة الشيخ صبري، فانشرح صدره، وشعر أنه سيرفع رأسه أمام أقربائها حين يأتون. وفي تلك اللحظة، أدرك أن تلك النائمة جواره لم تحصل منه على شيء تحكيه للنساء حين يأتون، فأيقظها بهدوء، آملا في بدأ علاقة هادئة، لكنه رأى في عينها ذعر طفل تائه، فطمأنها، ووعدها أن يُبقي حياتها مستقرة وآمنة، وهو الوعد الآسر، الذي جعلها تقبل كل مساوئه حين تكتشفها، ولم تر الإثم في الإبقاء عليها مستقرة كما هي في ذلك المستنقع، بينما يتحرك الجميع، حتى هو؛ بل حتى المستنقع يتحرك في أي اتجاه، لكنه أبدًا لا يستقر.

والمستنقع ـ القرية ـ لم يعد الشارع ملحقا به، فقد أقام "العبيد" وآلاتهم قاعدة هرمية كبيرة، ممتدة إلى ما لا نهاية، يقطع اتصالها شيء مثل بوابة أو نفق، هو في الأصل طريق لكن الطريق الفوقي أصبح سقفا، وشكلت قاعدته الهرمية جدرانا يمينا ويسارا، فبدا الطريق الأصلي كنفق، تمر عبره الحمير والبهائم عموديا، فوق ما كان حتى وقت قريب ترعة. تلك الجدران العازلة أنهت تماما ارتباط الشارع بالقرية، وانضم إلى العالم الأقرب وهو السوق، ملحقاته، مساكنه، والمنطقة التي تعقبه، وأصبح

Twitter: @ketab_n

بيت النجار هو أول البيوت في تلك الأرض الخلاء، التي كانت فيما كانت غيطا للحاج مصيلحي، وقد أخذه سيد أخوه حين أراد الانفصال، ورده حين وجده بلا أي قيمة، وعاد إلى حظيرة عرفة.

الباقون من عائلة سعد ـ بعد رحيل المتعلمين، ووفاة من توفي، وعودة من عاد ـ باعوا بقية أملاكهم في القرية، وبنوا بيتا مواجها لبيت النجار، مكونًا من ثلاثة طوابق، يجمع ثلاث أسر، هي. أسرة عبد الله النقاش نسيبهم، مع زوجته وأبنائه الخمسة، أسرة أحمد إبراهيم أبو سعد وأبنائه الثلاثة، وهو الوحيد الذي بقي يملك بيتا في الجهة الأخرى، وهو ذلك البيت الذي ورثه عن "إسماعيل أبو سعد عمه، وانتقل معهم إلى هذه الجهة كي يحافظ على حقه في البيت الجديد، أسرة عمرو إسماعيل أبو سعد، الذي عاد من الخليج دون مال، وله من الأبناء أربعة وزوجته حامل من جديد، ويعاني كل مظاهر الفقر بعد أن عاد لعمله الأصلي كمدرس رياضيات في مدارس الحكومة. تلك العائلة كانت قد فقدت ارتباطها بالزراعة منذ زمن، وفقدت ارتباطها بالبيت القديم منذ وفاة الست عنايات، آخر من صمد من الجيل القديم، وسارت الأمور كما أرادوا، حتى ظهر وجه لم يكن أحد يذكره، رجل نحيل مثل عود القصب، أسمر، انتشر اللون الأبيض فوق رأسه ولحيته النابتة، على وجهه ابتسامة خجولة مع سنتين صفراوتين ولا أثر لبقية الأسنان، يرتدى قميصا أسود، به أشكال هندسية مبعثرة بأحجام وألوان عدة، يرسم العرق على ظهره خطا متعرجا من "ملح"، ويحمل فوق حاجبه بقعة.

وقد عاد، لم يتعرف عليه أحد حين سار بيننا يبحث في الوجوه عن وجه يعرفه، ويسأل عن أماكن ليس لها وجود. نقل الأطفال الأخبار إلى الجهة الأخرى، ووصل إلى أحمد إبراهيم أبوسعد أن رجلا مجهولا يقف

Twitter: @ketab_n

أمام داره ويريد أن يدخلها، فترك الزبون الذي كان يحاول إقناعه بشراء عقد عمل في العراق، التي لم تؤثر الحرب بها كما قال له، وركض تجاه البيت رافعا طرف جلبابه تحت إبطه، غير عابئ بكون اللباس قصير.

في الطريق، كان الحقد يتنامى في قلبه، وتذكر كيف وصل الأمر به إلى تلك الدرجة من الفقر، وكيف أصبحت عائلته، التي كانت من الأسياد، تبحث عن شيء لتطعم أطفالها به، وكيف رفض سيد مصيلحي نسيبهم مساعدتهم، وكيف التهم البيت الجديد ومد مواسير الماء إليه كل ما جنوه من بيع البيت القديم والأرض، ولم يعد لديه سوى ذلك البيت الذي وصل إليه الآن. ورأى ذلك الرجل الذي يحاول التعدي عليه، فهدأ قليلا وسأله عما يريد، فرد الغريب أنه يبحث عن سكان هذا البيت: الحاج إسماعيل ابيه والست عنايات أمه. ارتبك أحمد إبراهيم، وحاول ألا يتذكر شيئا أو ينكر معرفته أو يدعي أي شيء، لكن الذكرى كانت تعود من بعيد. قاومها، وحاول أن يمنعها من الوصول، أخذ يفكر في كل مساوئ الحياة كي لا تصل الصورة إلى رأسه.. قاوم كثيرا، لكن اسم بقعة خرج من فمه مذهولا، حين رأى تلك العلامة فوق الحاجب الأيسر، وكان نطق الاسم كفيلا بجعل الذكريات تتدفق بحرية، ليستعيد صورا من أيام الطفولة الهانئة. وانفرجت أساريره للمرة الأولى منذ ما يزيد عن شهر، واحتضن زعيم طفولته، بينما يخبره أنه أحمد ولد عمه إبراهيم أبو سعد.. يا خبر انتشر في القرية ومحيطها في لحظة، بقعة قد عاد.

عاد كما رحل، ولا أحد يدري ماذا فعل، كي يعود كما كان تماما دون أي شيء، بعد أعوام من الاختفاء. كان منتشيا بقميصه الملون وحذائه اللامع، إلا أن الارهاق كان باديا على وجهه، ولا يدرك أحد قدر المعجزة التي حققها كي يعود كما رحل، وكم المشاق التي تحملها كي يعود بذلك

Twitter: @ketab_n

التعادل. "ارحل كما جئت" هي أفضل الصفقات التي حصل عليها، واعتبر أنها عادلة، بل أنها مربحة، فترك القليل الذي جمعه، مقابل السماح له بالرحيل. كما لا يدرك أحد قدر المعاناة التي عاناها كي يعود رشيقا كما رحل، بعد أن أمضى الأعوام المنصرمة بذلك الجسد الثقيل، وتلك الصعوبة في الحركة، وذلك الإرهاق الدائم، فهو كان، رغم فقره الشديد، يزداد وزنا يوميا، حتى أعاقته السمنة عن القيام بأي مجهود، فزاده ذلك ارتخاء، وزاده الارتخاء سمنة. كان يهتم بمظهره، وأفسدت السمنة المفرطة ذلك المظهر، فاتبع ـ رغم بدائيته ـ حمية غذائية، ومارس تمارين رياضية، بل امتنع عن الطعام أياما، كي يعود لمظهره القديم، وأبدا لم ينجح، بل كان يزداد ويقترب بسرعة من هيئة والدته الست عنايات. حتى لاحظ في يوم أنه يتحول، فأصبح يأكل كالحوت ورغم ذلك يفقد وزنا، حتى عاد رشيقا بمرض السكر، ومرض في قلبه غير معروف.

كما لا يدرك أحد قدر المعجزة التي حققها كي يعود كما كان، حرًا، فبعد سنين من الأسر صباحا والحرية المتحفظة ليلا، بعد سنين من معاشرة كائنات الليل، التي ـ وبرغم اختلاف أنواعها من زواحف حيوانات وبشر ـ تحمل ذلك القدر الهائل من الخوف، وقدرا مساويا له من الغدر. بعد سنين من التخفي وراء نظارة ولحية واسم مستعار ـ وكم اشتاق لسماع اسمه ـ بعد كل تلك السنين والخبرة في الهروب، سقط، وأمضى سنوات أخرى في أسر حقيقي، غرفة يشاركه فيها كائنات ليلية من حشرات وبشر، وينهره يوميا لسبب أو دون ذلك الضخم المهيب ذو الزي الثابت. رأى النور بعد ذلك أياما محدودة، لكنه لم ينسجم مع تلك المخلوقات النهارية، التي، وباختلاف أنواعها، تحمل قدرًا هائلا من الطموح، وقدرًا مساويا له من العجز. لم ينسجم مع تلك الحرية

Twitter: @ketab_n

المشروطة، فعاد باختياره إلى أسر الليل، قبل أن يعود الآن إلى مكانه الوحيد الآمن، بقميص ملون، حذاء لامع، ولا شيء آخر جناه.. حتى الوزن الذي كان قد زاده، فقده.

تأمله عمرو أخوه كثيرا، قبل أن يحتضنه ويبكي.. وصافحه البقية بجفاء. لم يكن يعرف أحدا منهم، وبالكاد يذكر "أحمد إبراهيم"، الذي تذكره حين أخبره أنه الأخ الأصغر لفريدة، التي ظلت في خياله طول الوقت، وكانت ذكراها تنمو وتتطور، حتى إنه كلما ضاجع أنثى وأصابته تلك الحالة من الضجر والتقزز بعد الانتهاء، برر ذلك لنفسه برداءة الأنثى التي انتهى منها، وأنهن جميعهن لا ترقى مضاجعتهن إلى رؤية فريدة، وأن مجرد رؤيتها أكثر إثارة ونقاء من تلك المومس، اللاتي تتقاضين مالا أو مخدرات أو حتى لا تتقاضين شيئا، يتركن بيوتهن وأزواجهن ليحاولن إمتاعه ولا ينجحن؛ بينما فريدة تمتعه بمجرد تذكرها، وتحولت في روحه إلى سحر، شيء لا يدرك أحد مداه.. تحولت إلى إله.

لكن ذلك "الإله" كان منفصلا تماما، ولا علاقة له بتلك العجوز التي مدت يدها لتصافحه، بينما تدعو الله بسخرية أن يخرب بيته، وتسأله باندهاش كيف أصبح في عمر والدها. ولم يقتنع سريعًا أن فريدة التي ارتسمت في خياله كجائزة كبرى، سيحصل عليها حين ينتهي من تلك الرحلة التعسة "طلعت من فوق"!

تعرف على الأطفال والشباب بجفاء، ولم يهتم به أحد سوى "سعيد"، الذي فقد برؤيته الأمل، فقد ظل مقتنعا بقصص الحاج إسماعيل عن الثروة والنفوذ بالخارج، وحين عاد عمرو مفلسا يتحدث عن رخاء قد كان، أكد تلك الفكرة لدى سعيد، وظن أن الإفلاس جاء نتيجة لسوء

Twitter: @ketab_n

تدبير عمرو، لكن بعد أن عاد هذا أيضا بلا شيء، تأكد أن لا أحد يعود قبل أن يبدد الثروة، فيبيع القصور والسيارات التي تركها الحاج إسماعيل لهم.

انفعل أحمد إبراهيم على زوجته في غرفة النوم، حين رفضت أن يقتطع من شقتهم غرفة للعائد، وسألها أيهما أفضل، أن يترك غرفة هنا له، أم بيتا كاملا هناك؟

العائدون لا يعترفون بالأمر الواقع، وقد يثير عدم الترحيب به في البيت الجديد أزمة البيت الآخر، أو نصيبه في البيت الأصلي للعائلة. كما أن الأطراف الأخرى، سكان البيت الجديد، لن يرحبوا به بينهم، كي تُثار تلك الأزمة ويوضع البيت القديم محل دراسة.

لم تقتنع، وكل محاولاته باءت بالفشل. كذلك لم تقتنع أي من الزوجات بإخلاء شبر واحد للضيف، وتوقع أحمد إبراهيم أن الأزمة ستثار في أي لحظة، لكنه لم يتكلم أثناء الغداء، كي لا يبدأها هو، الكل كانوا في جانب واحد، متوقعين أن تفتح عودة بقعة أزمة تم السكوت عنها طويلا، وهي البيت الآخر. أحمد إبراهيم يملكه بحكم الأمر الواقع، عمرو يرى أنه الأحق لأنه من بناه في الأصل، وعبد الله النقاش يرى أنه من حق الجميع. الكل انتظر أن ينطق الشاب كي يسوي ذلك الأمر مرة واحدة وللأبد.

لكن الشاب المنهك، حين جلس للطعام تذوقه، ثم أسند رأسه على يديه ونام. فأفسحوا له مكانا في أقرب غرفة بها سرير، واضطروا أن يعيدوا توزيع الأطفال والشباب، بحيث ينام الذكور سويا سواء كانوا إخوة أو لم يكونوا، كذلك الإناث، بعد أن كان التوزيع وفقا للإخوة. استمتع الأطفال بذلك، بينما انزعج الأكبر سنا.. على كل الأحوال لم تغير

Twitter: @ketab_n

عودة بقعة شيئا سوى حصول الأطفال على حرية النوم في أي مكان.

فى الليلة نفسها، اجتمع النجار مع سامح، ومحمود قاسم، وأحمد إبراهيم. وأُضيف إليهم أحد أصدقاء النجار من تحت الكوبري، كما حضر تلك الجلسة عمرو أبو سعد وحسن عرفة. كانت الجلسة احتفالية بعودة زعيم طفولتهم، جلسوا في أرض فضاء بها بعض مخلفات البناء، قريبة من الكوبري، ووزع النجار المخدرات مجانا، بينما تولى صبيته إشعال الفحم ورص الأحجار والدوران بالجوزة، كما جلب صديق النجار صندوق بيرة من نوع جديد رخيص، يدور بالعقول بسرعة رهيبة، وانسجم الجميع على صوت حسن عرفة، على غير العادة.

غنى حسن في تلك الليلة أغنية "للصبر حدود" لأم كلثوم، لكن تأثير المخدر في رأسه جعله يغنيها بشكل مغاير عن الست. بدأ طبيعيا ورتيبا، لكن فجأه انتبه الجميع إليه يصرخ قائلا "مانا ياما صبرت"!.. بدت الجملة خارج السياق الهادئ والاحتفالي للجلسة، فالتفت إليه الجميع فزعين متصورين أن شيئا قد حدث، لكنهم حين أدركوا كون الجملة جزءًا من الأغنية، سخروا منه وعادوا ليستأنفوا أحاديثهم. لكن حسن، والذي كان قد توحد مزاجيا مع "الست"، وأدمن سماعها كل ليلة، بل أنه تحايل على "عرفة" والده، واستغل ضعف ذاكرته، في الحصول على مبلغ كبير، ثم باع خاتمه الفضي وساعته الموروثة، ليشتري من عم مجلع جهاز "فيديو" مستعمل، ثم، وفي رحلة خرافية حول الجيزة وضواحيها، جمع شرائط حفلات الست.

ظل بعد ذلك مسحورًا لمدة تزيد عن عام. فبعد أن يقضي يومه بأي طريقة، وينهيه بتدخين المخدرات والغناء للفلاحين، يعود ليدخن وحيدا، ويشاهد حفلا واحدا، يذوب تماما، فيتوقف عقله عن العمل إلا

Twitter: @ketab_n

في متابعة "الست"، تأمل حركاتها والتفاتاتها، وابتسامتها الوقورة، حركه يدها، والغضب على وجهها، وابتعادها ثم الاقتراب من الميكروفون المعلق، حتى أنه كان يجد نفسه أحيانا يقوم بحركة تلقائية بيديه، ثم تقوم "أم كلثوم" بنفس الحركة، ولم يدري أبدًا إن كان قد توحد معها أم حفظ الحفلات إلى هذا الحد. ذاب في اللون الرمادي للمسرح، وانبهر حين استوعب الكلمات، وأدرك مدى الترابط بين الصوت واللحن والمعنى، كأن تلك الأغنيات لم يصنعها بشر، إنما هم فقط قاموا باكتشاف وجودها، لأن تلك الدرجة من الكمال هي من صنع الله، وموجودة في أشياء كثيرة، ليس علينا سوى اكتشافها.

وقد قام مفزوعا في ليلة، بعد أن أنهى حفل "فات الميعاد"، وكان يستعيد في ذاكرته أجزاء من الأغنية، فوجد نفسه يتذكر اللحن، ثم ترد عليه "الست"، وفي منطقة ما بين الصحو والخدر والحلم، في عالم جديد ليس ككل ما نعرف، فسر كلمات الموسيقى وصوتها الرجولي المستعطف، حين تعلق أم كلثوم قائلة: "وإن كان.. على الحب القديم وقساه.. أنا نسيته أنا.. ياريت كمان تنساه"، ثم تتساءل بيأس "تفيد بإيه ياندم؟"، ثم تسترسل حتى تصل إلى الخلاصة "فات الميعاد" يبدأ رد الشريك ـ الموسيقى ـ الرجولي مرتبكًا، لا يجد ما يقول، يبدأ بالدباجة وإعادة كلمات مما قالته، كي يكسب وقتا للتفكير، ثم يقرر أن ينفعل دون سبب، كي ينهي الجدل عند ذلك الحد، فتُمسك الكمنجات بالخيط، وتبدأ في التأكيد على شيء يبدو حادا، فيعود للدباجة كي لا يبدو قاسيا، يهدأ كمن يبحث في ذاكرته عن سبب أو علة، يعرف أنه سيجدها، فيتحرك ببطء وثقة، فقط كي يكسب وقتا، ثم تعود الكمنجات لحدتها مرة أخرى، فيصرخ أحد الجمهور "الله"، يهدأ من جديد ويعود للملاطفة، وفي المرة الثالثه تبدو

Twitter: @ketab_n

الكمنجات أكثر ليونة، فتقاطعه أم كلثوم بقولها "الليل، ودقة الساعات تصحي الليل تبدأ في البوح بما في نفسها، حتى تتذكر سببا أكثر وضوحا: "قسوة التنهيد"، ويتدخل اللحن بهدوء مبديا تعاطفه، لكنها تقاطعه وتعيد عليه ما قالته. في المرة الثانية، يقاطعها بالطبلة كي تنصت إليه، لكنها تعيد ما قالته مرة أخرى.. لا ييأس، ويحاول مرة أخرى، فتنفعل. "عايزنا نرجع زي زمان؟" وقبل أن يجيب بـ"نعم"، تستدرك قائلة: " قول للزمان ارجع يازمان"، فيندهش ويرفع حاجبيه في صمت، ويعرف أنها لن تلين، فتتذكر قولها المعبر" تفيد بأيه يا ندم؟" وتتساءل في أسى في الإعادة، حتى تصل إلى قناعة " كفايه بقى تعذيب وشقا"، لتعود الموسيقى بهدوء الاستسلام، وقبل أن تبدأ الكمنجات في محاولة جديدة، تنهي أم كلثوم بـ"فات الميعاد" لكن ـ وهنا السحر ـ في تلك اللحظة، تعود الموسيقى هادئة مستعطفة، تذكرها بأشياء مرحة ومبهجة، وكأنها وجدت ما كانت تبحث عنه، فتنطلق بعد التعثر، وتتلاعب، ثم تنفعل الكمان وتنفعل، فيتراجع الناي وتعود للهدوء..

حسن، لم يعد يؤثر به شيء سوى صوتها "من قسوتك وانت حبيبى"، فيبكي.. وقد يقوم من النوم مفزوعا ليسمع الست، التي احتلت روحه، فصار ينطق بمعنى الكلام، وتصوره عن اللحن، وما يريد أن يقوله، لكنه لا يتمكن من التعبير عنه مهما حاول واجتهد كي ينقله لآخر، يفشل ولا يتمكن من إيصال ذلك الشيء الذي يجعل قلبه ينبض حين يسمع للمرة المئة نفس الكلمات: "بيني وبينك ليل وفراق.. وطريق انت اللي بديته"

"فات الميعاد" صارت جزءًا من روحه، ثم أصبحت روحه جزءًا منها، وانتهى إلى أنه لا يصلح لغنائها ولن يحاول، كما أنه لن يدنس ذلك الكمال بصوته وحمقه وعدم فهمه، فيشعل الجوان ويتأمل كيف

Twitter: @ketab_n

تنهي الحفل، وذلك التعبير الغاضب على وجهها، فيضع الجوان ليصفق. لذلك، لم تمر تلك الليلة ككل الليالي، فكل من حضر، وتحت تأثير ذلك الكم من مغيبات العقل، قد أدرك مره ثانيه معنى الكلمات في أغنية "للصبر حدود"، والتي ألقاها حسن كما يفهمها، بتلك الدرجة المتصوفة في حب "الست"، فنقل جزءا من روحه ـ الفاقدة للصبر ـ لكل الحضور، عن طريق إخراج الكلمات دون أن يفتح أسنانه "ماتصبرنيش بوعود"

ثم ينفعل. "مانا ياما صبرت"، ويهدأ "واهي غلطه" يشيح بيديه، ثم يؤكد بإصبعه "ومش هتعود" فيتراجع "ولو ان الشوق موجود" ثم يتدارك ضاما ذراعه، ثم يفرده في الهواء عن آخره "أهي غلطه!" ويتنهد. "إنما للصبر حدود"، ويتمادى في أدائه المبالغ المنفعل ذلك، حتى يأسر كل الحاضرين الغائبين عن الوعي بنسبة كبيرة، فيذوبون في معان تصل إليهم مختلفة، وتثير في أنفسهم الحسرة، ويدفعهم المخدر إلى مزيد من الحسرة، فيتذكر كل منهم شيئا يمتصه، وتمر عليهم نسمة هادئة تنعش أنوفهم وتتسبب في قشعريرة، لينتبهوا ويرفعوا زجاجة البيرة، أو "يباصوا" الجوان، ويتذكروا كيف غابوا منذ لحظات في رؤية.

يشعر كل منهم أنه وحيد في تلك الحالة، فيراقب الجميع، يعرف أن ما يدور بعقله هو فعل المخدرات، ويؤكد طوال الوقت على عقله أن يبدو طبيعيا، كي لا يراه أحدهم مبتدئا، أو يسقط من نظرهم كـ"حشاش فيرهق عقله في مطاردته لسلوكه وحركات جسده ونطقه للألفاظ، كي يبدو طبيعيا ويغرق تماما في نفسه. حينها ينتشلهم جميعا "حسن بصوته، الذي ينقلب إلى صراخ أشبه بالشجار "ولقتني وانا وياك.. خلصت الصبر معاك"، وتمر نسمة هواء منعشة، فينظروا إلى حسن، الذي يبدو منوما مغناطيسيا، وينقل إليهم جميعا التنويم، يفلتون منه واحدا تلو

Twitter: @ketab_n

الآخر، ثم يسقطون واحدا تلو الآخر.

من بعد تلك الليلة، لم يعد "حسن" كما كان من قبل، فقد صار جزءًا من حياتهم جميعا، ينقل إليهم سحر الكلام بصوته الهادئ، وطريقته المفتعلة العصبية في الغناء، التي تتسبب في جعل تلك العقول المخدرة تستجيب للمثير الصوتي، ثم تهرب منه إلى غيب المخدر ولا وعيه، وتظل تتأرجح هائمة في أفق الولع بـروح "السـت"

غنى حسن في سبوع "رجب"، الابن الأول للنجار "للصبر حدود"، كما لو كان "حسن الأسمر" هو من يغنيها، لكن بأداء غاضب ثائر منفعل، وانبهر الحضور رجال ونساء، فأصبح حسن نجم كل المناسبات. حمل سعيد طبلة خلفه، وانضم لهم شاب صغير اسمه "باسم"، يعزف على الناي الذي لم يحتاجوه كثيرا.

باسم من منطقة السوق، وهو جار لعبير، وقد تعرف عليهم بعد وفاة سامح، أثناء تقديمهم للعزاء في البيت الوحيد الذي كان ينتمي سامح إليه، وأصبحت "عبير" بوفاته شؤما رسميا. باسم كان قد سمع حسن وأداءه الفاقع اللون في فرح فاطمة بنت أخت النجار، والتى تزوجت صغيرة من شاب صغير يعمل بائعا في السوق، لديه عربة كارو ورأس مال ضئيل، يتكفل بالانفاق على والده وأخته ويتشاجر ثلاثتهم بصورة يومية، ويسكنون في حجرتين، بعيدا عن السوق بمسافة تُقطع في عشرة دقائق على الكارو بالحمار، أو نصف ساعة بعد أن بيع الحمار ليقام الفرح.

قررت عبير الابتعاد عن ذلك المكان الذي يراها شؤما، فتزوجت من تاجر غريب، ورحلت معه قبل مرور عام على وفاة سامح. وبهذا استقر "حراق" في يد فاطمة وزوجها، فانتعشت حالتهم الاقتصادية، حتى

Twitter: @ketab_n

بدأت فاطمة الأم ترى أنه من الأفضل لابنتها أن تتخلص من "رزق"، زوجها الفقير الكئيب، الذي تطول يده عليها بصورة شبه يومية، وتعود فتنعم معهم بأكل اللحم والطير، بينما حسن يملأ القرى المجاورة صراخا "ماتصبرنيش ماخلاص"، ويندفع الدم في عروقه ويحمر وجهه حين يضيف " أنا فاض بيا" ويلتقط أنفاسه ويقول بهدوء "مليت"، بينما يرفع كتفه ويفرد كفه، وتتبعه الطبلة "دوم دوم" بنشاذ يشد الانتباه.

* *

القرية الآن نائمة، في ليلة شتوية تفني كل مظاهر الحياة بعد العشاء بوقت قصير، لكن في تلك الممرات التي تركها بنَّاءوا الطريق الدائري، كي يمر السكان السفليون من جانب إلى آخر، يستدفئ الرجال حول النار، ويتكئون على أحجار، تاركين السلاح قريبا من أياديهم. والمرور بعد أن يجتمع أولئك مستحيل، إلا أن كنت تعرف أحدهم.

الأوناش والمعدات والحجارة مازالت موجودة، إلا أن العمل متوقف منذ فترة، والحال أيضا متوقف. مرت بنا لحظة استقرار، ودخلت مجموعة من البشر حياتنا المزدحمة. وقتها ظهرت "أم ريهام" صديقة شيماء، زوجة علي قاسم. جاءت أم ريهام مستترة خلف النقاب، وظلت تبحث مع شيماء عن مسكن. لجأت شيماء لأحمد إبراهيم، الذي يعرف نفسه بالسمسار، ذهبت له عند المقهى، الذي لا يجلس فيه غرباء، والغرباء أصلا لا يصلون إلى هذا المكان. خطرت الفكره في رأس أحمد إبراهيم، وقرر أن يقنع أحدا ببناء بيت من عدة طوابق، ليؤجر بأكمله، بعد أن زاد الطلب على هذا النظام، بعد كثرة العدد وضيق الحال. وافق سيد زوج فريدة أخته على تمويله، واستغل أحمد إبراهيم توقف العمل في

Twitter: @ketab_n

الطريق، وبقاء العمال دون ما يشغلهم زمنا طويلا، فدفع لهم أجرا نقديا وحشيشا، مقابل عملهم في البيت الذي يبنيه، وساعدوه في استعارة المعدات والخامات المكدسة عند الأوناش.

لكن أم ريهام لم يكن لديها مكان كي تنتظر كل ذلك الوقت، فأقامت مع شيماء في البيت، بعد أن تأكدت أن زوجها لا يظهر طوال اليوم، وفي الليل ينام بالخارج، حتى في ليالي الشتاء الباردة.

فى تلك الأثناء، أصبح صبية النجار أكبر عددا، وأكثر خطورة. كانوا في درجة مذهلة من النشاط، يدخنون المخدرات في مرحلة المراهقة، ويجيدون استعمال السلاح، فشكلوا عصابات تفرض على طلبة المدرسة القريبة الأتاوات، ويسرقون طعامهم ويفسدون كتبهم، ومن يقاوم من الطلبة أو الطالبات يتعرض لضرب وإهانة، وقد يخرج بجرح أو علامة لا تزول، فأصبح على الطالب أن يدعو الله كل صباح ألا يقع فريسة، وتدعو الطالبات أن يكتفوا بالسخرية منهن أو مغازلتهن بتلك الألفاظ الفجة.

النجار لا يعرف كيف يوقف رجاله.. هم صبيته سرا، ومن يشكو إليه، يفعل ذلك تحت شعار أن النجار هو جهة تحقيق العدل وفض النزاعات، ويتدخل النجار في حدود ذلك الشعار، رغم أن الجميع يعرف أن أولئك هم رجاله، الذين يعتمد عليهم في كل شيء، بدءًا من إزعاج معارضيه، وصولا إلى حراسة هيبته وزعامته لهذه المنطقة، مرورا بكل القذارة التي تعف عنها يده. هم بدورهم أدركوا كونهم الهيئة الأكثر قدرة في البلد، فاستمتعوا بفرض سيطرتهم، واستخراج النقود من جيوب الجميع، لكنهم وجدوا أن الأثرياء وذوي النفوذ قادرين على استرجاع حقوقهم،

Twitter: @ketab_n

وذلك يدخلهم في معارك مرهقة، لذلك ابتعدوا عنهم بتعقل، وركزوا شرورهم على الكادحين والطلبة. وأغراهم انبطاح السكان وابتعادهم عن الأذى وحبهم للسلام والاستقرار، فتمادوا، وتمادوا؛ لكنهم في أقصى درجات الشطط لم يفكروا مجرد تفكير في إيذاء النجار أو التجرؤ عليه، فهو راعيهم وزعيمهم الأعلى. لكن بعيدا عن تلك المشاعر الإنسانية، التي يفتقدها كثيرون منهم، كانوا متأكدين من أنه قادر على سحقهم، وأن تلك التركيبة التي هو الرئيس الأعلى لكل فروعها هي ما تجعلهم "باشاوات" والمغامرة بتغيير أي شيء فيها قد تجعل ذلك العز يزول. لذا، بالغوا في الدفاع عن اسمه، واختلاق القصص والمغامرات التي يتناقلوها عنه بكثافة حتى صدقوها هم أنفسهم، وسقط السكان الأكبر سنا في حيرة أنهم لم يروا تلك الأحداث، التي كان النجار بطلها، ولم يشعروا بتأثيرها، لكنها حقيقة لا محالة، والدليل القاطع موجود. ذلك الدليل الذي لا يمكن التشكيك فيه، كما لا يحتاج مستخدمه إلى إرفاق أي شروحات أو إشارات: "كل الناس عارفة" أو الدليل المساوي له، لكنه أكثر إقناعا "مافيش حد ما يعرفش"، وأنت آخر من يعلم.

النجار كان المصدر الرئيسي للمخدرات في القرية، وذلك كان مصدر قوة إضافيا له، المعلم الذي يشترى منه النجار الحشيش يسكن في قرية قريبة، لكنه لا يبيع لسكان هذه المناطق، وإنما يتخذ منها مركزا للتوزيع في أماكن أكثر رقيا، وكان يهدد النجار بين الحين والآخر بأن يقطع عنه الإمدادات إن تأخر في دفع ما عليه. وفي ليلة، جاءه خبر أن المعلم يريده في أسرع وقت، امتطى حمارا أخذه من أحد الفلاحين قهرا ـ لكنه سيعيده بلا شك ـ وأوقفه في الطريق "أحمد مسعود" المخبر، وأراد أن يأخذ هو الحمار كي يقضى مشوارا.

Twitter: @ketab_n

النجار يعلم أن ذلك الطلب كان لاستفزازه فقط، وحاول أن يتفادى الشجار مع المخبر، لكنه لم ينجح. ودارت المعركة التي انتهت بإصابة مسعود في وجهه، وهروب الحمار. اختفى مسعود، وبقى النجار ليبحث عن الدابة مع أصدقاء له من تحت الكوبري، وحين طالت فتره البحث بقي النجار وحيدا يبحث عن الحمار، كي يعيده للفلاح ونسي موعده مع المعلم. وبعد أذان الفجر بقليل، كان يجلس على الأرض قُرب الجزء الأول الذي انتهى العمال من تركيبه في ذلك الطريق، ورأى البوكس وبداخله مسعود قادما، في أقرب منطقة يمكن للسيارات دخولها.. بعدها رأى الحمار، بينما هو داخل البوكس.

فى الحجز، تعرض للضرب وسُلب منه ما كان معه، إلا أنه في لحظة معينة دخل في نوبة غضب، جعلته يهشم وجه أحد المحجوزين معه بين الباب والجدار، بينما تتسابق على ظهره ورأسه الأيدي والأرجل، دون أن يكف، حتى سقط المحجوز، وظن الجميع أنه قد مات، وقامت الدنيا وانقلب الوضع في نقطة الشرطة، وسحبوا النجار مكبلا إلى غرفة النوبتشى، كي لا يفتك أو يُفتك به. لم يمت، ولم يكن الباشا ـ الضابط ـ الذي طلب من مسعود استدراج النجار موجودا، فلم ير زميله أي سبب للتحفظ على الرجل، ولم ينجح مسعود في إقناع الباشا أن تعدي النجار عليه سبب كافٍ لعقابه، فكلاهما أمام الحكومة ـ الباشا ـ صرصور.

عاد النجار بقصة خيالية، واستثمرها رجاله في صياغة أسطورة من حوله، وتلفيق بطولة جديدة.

استدعى "مسعود" النجار مرة أخرى، وشفع له عند المعلم كإثبات لحسن نيته؛ لكن النجار لم يرض أن يصبح عينا للحكومة، فتلك خيانة.

Twitter: @ketab_n

من يترك ولاءه لأرضه وإخوته ويلجأ للسلطة الأكثر قوة، كي تمنحه شيئا هو لا يحتاجه، ولن يصبح ـ بعد حين ـ مقبولا في هذه الجهة أو تلك، حيث إن الحكومة لا تقدِّر رجالها وتلقي بهم في السجون، كما يُفعل بكل العملاء حول الأرض. واندهش النجار كيف يرضى أن يقايض أحد أهله وعزوته وأرضه بحفنة أموال؛ لكنه لم يجد أي سبب كي لا يتعاون مع الحكومة للإبلاغ عن الملتحين، الذين بدأوا يقوضون سلطانه المطلق على تلك البقعة.

بعد أن انشقت اللحى عن الشيخ صبري، انضموا لشيخ خارج المنطقة، يُسهل لهم السفر إلى الخارج للجهاد، أو يمنحهم مجالا لإفراغ غضبهم في العاصمة وما حولها. هم في الحقيقة كانوا مزعجين لكونهم كُثر، وعلى استعداد دائم للشجار، وفي شجارهم يتحولون إلى آلات لا تفقه فكرة الكر والفر، فهم لهم اتجاه واحد هو الركض تجاهك. وفي قرية مجاورة، منطقة أغلب سكانها مسيحيون، فحاولوا دائما تمييز منطقتهم بجعلها أكثر نظافة ورقي، وكانت الاشتباكات والمشاجرات كلها تبدأ بأن يلوث أحدهم جدارا، أو يلقى مخلفات في حارتهم. لكن شجارا جديد حدث، تدخل فيه أحد الجلاليب القصيرة، وسرعان ما استدعى زملاءه. انتصروا نصرا ساحقا، وكان ذلك ظهورهم الرسمي الذي استدعى انتباه النجار لقوتهم الصاعدة، وقبل أن يزدادوا ثقة ونفوذا، كانوا يسقطون تباعا في أيدي تلك القوة الغاشمة التي دخلت إلى بلاد مجاورة، واستقدمها النجار إلى هنا.

*

هنا يرحل الجميع.. فمن يكمل تعليمه يرحل، من تتزوج من ثري

Twitter: @ketab_n

نرحل، من يبحث عن حياة أفضل، ومن أجبر على الذهاب، من سافر للجهاد، ومن طُرد.. الكل هنا يسعى للرحيل. وبهذا، لم يكن مدهشا رحيل المنشقين عن صبري، ولم يكن مدهشا أيضا أن أكثرهم حلما ووداعة هم من سقطوا في يد الحكومة.

كانت تلك الليالي مشئومة، فسيارات الشرطة وصلت حتى مشارف القرية، بل إن بعضها دخل. وعند صلاة الفجر أو قبلها بقليل، يقتادون شابا أو اثنين، ويختفون إلى الأبد. عشنا في ذعر، واختفى الشيخ صبري في المزرعة التي كان يعمل بها خفيرا فيما سبق، عند معلمه وأستاذه الأوحد الأستاذ صبحي، الذي طمئنه وأخبره أنهم أبعد ما يكون عن تلك "الشوطة" وأن الشباب المتحمس فقط هو من يُختطف.

الكُل كان يختطف، إن كنت متحمسا أو فاترا، تصلي بانتظام أو تدخل المسجد للراحة ساعة أو قضاء حاجة، الكل كان يسقط. في البحث عن ثلاثة أشخاص كانوا يسكنون بيننا، وجدوا عشرات من المصلين، فأخذوهم بدلاء، واختفى الاتباع المنشقين، ليكتمل عقد الراحلين بـ. من خاف رحل.

لكن العدد دائما في ازدياد، الإنجاب لا يتوقف، والأرض تتقلص في مقابل المباني، الجهة التي مازال بها الزراعة ارتفعت بها أسعار الأراضي لدرجة الجنون، فباع الكثيرون ورحلوا إلى ناحية ما وراء الطريق، وبنوا بيوتا لم تنتم لبيوت الفلاحين أو مباني المتعلمين، غير أن بعضهم استخدم عشش العمال والخفراء الذين انتهى دورهم، وعززوها ببعض الخرسانة والطوب الأحمر، فأصبحت أكثر تشوها.

الأطفال كُثر في كل مكان، جيل يذهب للمدارس بانتظام، يعمل

Twitter: @ketab_n

أباؤهم في السوق، أو صنايعية، أو خارج محيط القرية وملحقاتها. وفي أحوال نادرة يعملون كموظفين لدى الحكومة، أو فلاحين لدى ملاك المزارع. العدد في تزايد بشكل عبثي، رغم أن لم يأتنا أحد من الخارج سوى العاهرة وابنتها.

لم تكن أم ريهام عاهرة يقينا، لكن سلوكها كان مختلفا عن كل النساء، حتى من سقطت منهن لم تكن في مثل فجاجتها في مغازلة من يعجبها أو التلذذ بسماع الغزل. كما إن إقامتها في بيت علي قاسم شيء ملفت ومثير.. ثم إن رحيل عبير، وظهور جيل المراهقين الذين لا يرون في فريدة أي جمال، جعل أم ريهام هي القصة الأكثر تشويقا. ولم يعرف الكثيرون عن علاقتها بـ"علي قاسم"، الذي تغيرت حياته على يديها. فبعد أن كان يقضي أيامه وكأنه ينفذ حكما ما، عرف شيئا اسمه المتعة، شيئا لم يخبره مع زوجته.. فأم ريهام تضحك، تتأوه، تطلب، وتصرخ أثناء المعاشرة. كما أنها قد أشعلت خياله أياما قبل أن يصل إليها، وكانت تتعمد إثارته بملابسها وأقوالها، وتبتعد كلما قهر الخجل وتقدم تجاهها، فيضطرب ويرتبك، ويبقى أياما يتحاشاها، ويبتعد عنها، فتعترض هي طريقه، وتتبجح أمامه بقول، أو تكشف له عن ساقيها بينما ترفع طرف جلبابها لتنفض عنه التراب. شيماء، أو "أم عبد الله" كما صار اسمها نائمة، بينما تجلس أم ريهام مع زينب زوجة محمود قاسم، أو "أم رشا" كما صار اسمها، وتتعمد أن تتأخر حتى ينام الكل بما في ذلك علي أمام البيت على الدكة، فتنزل هي من فوق السطح حيث الغرفتين، وتخرج إلى المدخل لتتعثر به وهو نائم، يستيقظ، وفي هذه المرة لم يدع الخجل يهزمه، فهي ليلة الخميس وقد نام مستاءً بعدما لم يتمكن من الترفيه. وفي الداخل، حيث البيت الأصلي للأسرة، ولا يزال داخله "عم قاسم ـ الذى صار

Twitter: @ketab_n

جدا ـ وزوجته نائمين، وعلى السلم في الطريق المؤدي إلى السطح، حيث الغرفتين للأبناء، دارت علاقتهم الأولى، وانطلق بعدها علي في حياته، بعد أن أصبح له هدف. هدفه أصبح الانتهاء سريعا مما يحمل، كي يعود إلى متعته. وجعله ذلك أكثر حماسا في البيع، وحقق نسبة مكسب أكبر، فادخرها لصالح تلك السيدة التي جعلت لحياته معنى. ربما علمت "أم عبد الله"، وربما لم تعلم، لكن المؤكد أنها لم تثُر أو تنفعل على أي منهما، وأيضا لم تمض الحياة كما كانت، فالعلاقة بين ثلاثتهم تغيرت، فترت الصداقة القديمة بين السيدتين، بينما تجنب علي زوجته بدافع الإحساس بالذنب، بعد أن كانت هي من تتجنبه، وتحررت هي تماما من إحساسها بالذنب تجاهه لعدم تلبيتها رغباته، فأصبح البيت أكثر سلاما. كما أضافت أم ريهام لحياتها المملة هنا عنصرا مبهجا، وتلك السيدة وابنتها هم من الوافدين القلائل من الخارج، أو ربما لم يفد غيرهما إذا استثنينا "عادل"، الذي ظهر فجأة على المقهى، ولا أحد يعرف عنه شيئا.

فى تلك الأثناء، كان صبية النجار يتشاجرون يوميا، بسبب أو بدون، مع أي من السكان الغلابة أو حتى مع بعضهم بعضا. وكان زوزا القهوجي أحد الضحايا الذين تمت سرقة كل ما معهم، فلجأ إلى حسن، باعتباره ابن عائلة كبيرة، ويمكنه مساعدته على استعادة ما سُرق، أو يُقرضه مبلغا من المال، لكن حسن، الذي كان يغني حينها في ملهى ليلي، عرض عليه أن يوصله بـ"سيد خمرة" وهو فرد الأمن أو "البودي جارد" أو خيال المآتة الذي يقف على مدخل الملهى، وهو من نفس القرية في الأصل، لعله يساعده.

سيد خمرة له احترامه في كل مكان. هو نصف مجنون، لكن في يديه قوة تفرض على الكل احترامه. كان تقريبا بلا أصدقاء، وكل من عرفهم

Twitter: @ketab_n

حافظ على مسافة كبيرة تبعدهم عن تفاصيل حياته، لكنه بعد أن تشاجر مع الأستاذ محمود قاسم، التصق به شخص كان وقتها مجهولا، هو "عادل"، وتوطدت علاقتهما، ثم بدأ سيد في تحسين علاقته بأصدقائه القدامى، وهو من دل حسن على الملهى الذي عمل به.

رغم كراهيته لـحسن، لكنه كان مبهورا بصوته وطريقته المفزعة في الغناء، تلك الطريقة التي تتركك تشرد في حالك في البداية، وحين تهيم في الخيال يعيدك إلى الواقع، فترى تأثير المخدر، فتستزيد، ويهدأ صوته ثانية فتغيب في بؤسك، ليصرخ من جديد فتركض خلف صوته كمن يحمله الموج. يتحرك بسرعة في لحظة الهدوء، ويظن النجاة، ثم تعيده الأمواج لنقطة الصفر. في لحظة بين الوعي والغيب، يبدو كل ذلك متعة لا توصف.

مجتمع جديد تعامل معه حسن، وهرب منه سعيد، الذي ترك الطبلة مرغما، وأجبره والده على العمل معه كنقاش في بيوت ودكاكين أولئك الذين لا يهتمون بالطلاء سوى في الزيجات أو بعد حدوث معجزة اقتصادية. لكن العضو الثالث في فرقتهم، وهو باسم، بقي ليساعد حسن، وأصبح تابعا له، وبسرعه مذهلة كان قد تخلص من الناي وكل محاولاته الفنية، وصار هو الخادم الشخصي للفنان دون أي موارية. وتولت فرقة محترفة في الملهى العزف لحسن، فبدا ذلك النموذج الغنائي الصاعد أكثر لمعانا، وانهالت عليه عروض لإحياء الأفراح والليالي، وقبلها كلها، فجمع قدرا جيدا من المال، وخرج من بيت العائلة، بعد أن ساءت علاقته بعبد الرازق ـ أخيه الذي يسعى لخلافة عرفة على العرش ـ ولجأ لعمه سيد مصيلحي، الذي كان صديقا مقربا له زمنا طويلا، وهو مدمن مثله للغناء والمخدرات، وأضاف مؤخرا "النسوان" لقائمة هوسه. أعطاه

Twitter: @ketab_n

عمه سيد شقة، في البيت المكون من أربعة طوابق، الذي يبنيه بمشاركة أحمد إبراهيم. وكانت حاله الشقة لا تصلح للسكنى، فرغم انتهاء العمال من البناء كعمدان وحوائط، أسقف وكمر، في الطابق الأول، إلا أنهم مازالوا يخلطون الأسمنت لصبه في أعمدة الطابق الثاني، ويسرقون بعض الخامات من أعمال الطريق، ويخطفون ساعة راحة على صوت حسن، وشاي باسم، وحشيش أحمد إبراهيم أبو سعد كل ليلة.

سيد خمرة، الذي أصبح وجوده مألوفا، لم يزعج النجار في شيء، فهو لم يبع الحشيش في منافسته، ولم يفرض سيطرته على أي شخص أو منطقة، وجل ما فعله في قضية "زوزا" أن توسط لدى النجار ليرد ما سُرق من الغلبان. أراد النجار تحسين صورته أمام السكان، فأمر رجاله برد ما بقى، ودفع الفارق من جيبه الشخصي، وساعده ذلك في رسم صورة الرجل الصالح العادل، الذي لا يعلم شيئا عن تصرفات الرعاع المحيطين به. لكنه تركهم يعيثون في الأرض فسادا، واحتمى خلفهم في أي مشكلة، كي لا يضطر للاشتباك بيديه، وهو مازال على يقين أن تلك الحالة التي تأتيه حين يغضب ليست إرادية، وقد لا تأتيه فيتعرض للإهانة ولا يتمكن حينها من الرد والدفاع عن هيبته.

وهيبته تلك هي كل شيء بالنسبة له، خاصة بعد أن تأكد من استحالة الاستفادة من زوجته بنت الأكابر، فهي حتى إن حق لها أي إرث، ووافق اهلها على تسليمه لها، لن يتمكنوا من حسابه أو إخراجه من بين الممتلكات المعقدة النسب والملكية بالميراث، فتأكدت نبؤة فاطمة أخته أن تلك الزيجة لن تفيده في شيء. ولكن للحق، زوجته كانت مطيعة وهادئة، لا تفعل شيئا طوال الوقت، ولا تستمتع بصحبة النساء، خاصة وأنهن رأينها منذ اللحظة الأولى متعالية، ورفضن التقرب منها، فلم تجد

Twitter: @ketab_n

أنيسا سوى "فريدة"، التي صارت وحيدة تماما بعد رحيل عبير. وكانت ظروفهما متوافقة من حيث الوحدة والإحساس بالتميز، واستمتعت فريدة بأن تتذكر معها كونها من عائلة "سعد"، وشطت بخيالها وهي تتذكر ممتلكاتهم وثرواتهم، ووصلت إلى حد ترديد أكاذيب الحاج إسماعيل. لكن العائق بينهما كان أن فريدة قد عادت مع زوجها لبيت العائلة في جهة الزراعة، بينما كانت "أم رجب" تسكن في الجهة الأخرى. وتخطى النجار ذلك الحاجز، بأن تركها تذهب كل عصر لبيت المصيلحية، فقط كي يذهب بعد المغرب ليرافقها في طريق العودة، كي يستمتع بدخوله المتكرر للبيت الثري وشرب الشاي مع سيد مصيلحي، الذي ينافس عبد الرازق ابن أخيه على العرش.. ثم يستمتع بمروره مرتديا الترنج، متأبطا ذراع زوجته في جلبابها المحتشم الغالي أمام زملائه وتلاميذه من الرعاع تحت الكوبري، ويلقى عليهم السلام فيردوا عليه بحفاوة وترحيب ودعوات للمجالسة، فيفتل شاربه ويشير إليهم أنه رايح وراجع

Twitter: @ketab_n

٣

الموسيقى التي تأتي معلبة في شرائط لا تنجح هنا، ولا يهتم بها سوى قلائل. وهم يستوعبونها جيدا ثم يعيدوا تقديمها بصورة أكثر ملاءمة لذلك المكان، الذي لا يحتمل سكانه سماع المقدمات، ويبحثون في القصة عن الجزء المثير، وفي النكتة عن الجزء الأخير، وفي اللون عن لفت النظر؛ ليس لشيء سوى أن أحاسيسهم الطبيعية مغطاة بقشرة سميكة من مآسٍ وصعوبات عاشوها، تجعل الذي يقص عن رجل لا يجد قوت أطفاله قصة مألوفة، وامرأة تقبل العبث بجسدها مقابل قروش شيئا يتمنوا أن يبقى بعيدا عن بيوتهم، والجمهور الطبيعي للموسيقى الحديثة من الطلبة والمتعلمين يبحثون فقط عن شيء واحد يقضون أعمارهم فيه، هو الهرب إلى مكان آخر قد يستمتعوا فيه بتلك الموسيقى.

لذلك كان حسن طفرة، فهو تمكن من استيعاب موسيقى أم كلثوم، فيروز، وعبد الحليم.. ووجد الجمال الخفي في المقدمات الموسيقية الطويلة، واللغة غير المستخدمة من قبل الخلق، وأعاد إنتاجها بفظاظة تخترق تلك القشرة التي كونوها على إحساسهم كي لا يشعروا بالعجز

Twitter: @ketab_n

والهزيمة طوال الوقت، كنوع من الدفاع الذاتي.

كذلك القصص التي تأتي مُعلبة لا تعني أحدا، فنحن نبحث عن شيء يشد الخيال، وينتهي قبل أن يعود الخيال لمشاغله، فكانت الأخبار التي تنقل عن الشباب الأكثر خطورة في المشاجرات، والأحداث الأكثر غرابة وإدهاشا، والنساء الأكثر إثارة وانحرافا، كل ذلك ينقل شفاهية من شخص لآخر، وسواء كان له أصل في الحقيقة أو لم يكن، الكل يضيف إليه، بينما ينتقل من لسان إلى أذن إلى لسان، فيتغير ويصبح مثل أسطورة. النساء كالرجال في تناقل القصص، إلا أن بعضهن يضفن إلى قائمتهن الحديث في يوميات الأخريات، واختلاق الأكاذيب حول عدوَّاتهن، وفي أغلب الأحوال، تلك العداوة لا يكون لها أصل، فقط عداوة فطرية.

النكات ليس لها بطل واضح، فمن يلقي النكتة هو صاحبها، وهو من يملك القدرة على إضحاك المستمعين، ليست النكتة في حد ذاتها، فالمستمعون يضحكون مجاملة لصاحب النكتة إن كانوا يحبونه، يخافونه، أو انتشرت حوله شائعة خفة الدم. وقد يتقن صاحب النكتة روايتها، لكن المعنى لا يصل لذهن المتلقي، ذلك المتلقي الذي يشتري ملابسه وفقا لكم من المال يملك، وبعدما كان الجلباب الحل الأمثل لعقود، تدخل القميص والبنطلون. لكن المتعلمين فقط هم من يتمسكون بهذه الملابس التي تبقيهم متيبسي المفاصل طوال الوقت، ومتألمين بفعل الحذاء الناشف، أما من لم يكن فلاحا ولم يعد يدرس، فليس له زي محدد، والسوق بالجيزة به كل شيء، لكن كل شيء يمر أمام عينه أو عينها بلا تأثير، بينما هي أو هو يفكر في كيفية العودة إلى البيت ليلا، بعد أن يكون الرعاع قد عقدوا اجتماعاتهم في الطرق المؤدية للبيوت، مستعدين لسرقة أو ابتزاز أي من المارة، إن مروا.. أو تفكر فيما ستفعل كي تأمن شر أولئك

Twitter: @ketab_n

الذين يعتدون على ابنها صباحا، ويسرقون مصروفه الضئيل ورغيفه الفينو أو يفكر في كيفية سداد ثمن المخدرات التي أحرقها، وسوف يظل مطاردا حتى يدفع، لكنه لا يملك شيئا.

بينما هم غارقون في أفكارهم تلك، لا يقدر على إفاقتهم وإعادتهم للواقع سوى لون صارخ، أو رسوم مزدحمة على فانلة يبدو سعرها مناسب، فتحملها دون أن تشعر بالسعادة، فقد اشتريت بديلا لما اهترأ، ودفعت مبلغا كبيرا في شيء بلا قيمة، وكل ما يهمك الآن العودة قبل تأخر الوقت. تلك القطعة التي اشتريتها رغم فجاجتها ومغالاتها، بالكاد تكفي كي تخرق الحاجز الذي تكوَّن فوق مشاعرك بفعل حياتك الصعبة، كما تثبت للجميع بما لا يدع مجالا للشك أنك اشتريت "طقم جديد.

ملاعب الكرة الترابية، التي كانت في الجهة المزروعة انعزلت فيما انعزل، وتحولت إلى قطع أرض خلاء محاطة بأسوار تخبرنا أن لا وكيل عليها، وأنها ملك لورثة. الورثة هم من بنوا ذلك السور الذي يقفز من فوقه الأطفال والشباب ليلعبوا الكرة في الصباح، ويحرقوا قوالح الذرة والبانجو ليلا، وقد تستخدم في لحظات نادرة من قبل الشباب الأكبر سنا في ممارسة الجنس، وهو ذلك الفعل الذي تقوم أثناءه بإدخال وإخراج العضو الذكري في أي فتحة كانت، مؤخرة أو فم لشابة أو شاب، والكل يعرف هنا أي الشباب يستخدم لتلك العملية، ويسخر منه الأطفال طوال الوقت، حين يمر أمامهم، فيمثلوا دور الفاعل بينما يمثل الفراغ دوره، ويؤدون حركات تضحك كل من يعرف وضع ذلك الشاب. ويتخلى المفعول بهم عن ذلك الدور بانتهاء فترة المراهقة أو أثناءها، أو يجدون طريقا للخروج من المكان الذي يحتقرهم ويسخر منهم طوال الوقت، أو يتمكنون من الوصول لطريقة سرية تبقيهم وعاداتهم في الخفاء. لكن

Twitter: @ketab_n

سرعان ما يُفضح الأمر وتتأكد الشكوك.. أحدهم لم يكن يبالي بمسأله السرية والتخفي، ووصل الخبر لزوجته، التي كانت على يقين وعلم مسبق، لكن الفارق أن الكل الآن يعرف أنها تعرف، فطلبت الطلاق. رفض في البداية، وبقي غارقا في نزواته الفاجرة التي كلفته سمعته، وجزءا كبيرا من ماله، وجراحا في ظهره، حيث كانت عادة أحدهم أن يحصي مرات استخدامه بعلامة في الظهر وأخيرا تم الطلاق، فباع بيت جده، واشترى بيتا في الجهة الأخرى، صار ملتقى للفجر والفحش من كل نوع، ووفر على نفسه عناء الذهاب لميدان رمسيس بالقاهرة وحاناته السرية كي يجد شريكا. واستقدم الشركاء من كل مكان محيط إلى البيت، الذي أصبح اسمه "جوافة" ولا أحد يعلم تحديدا سبب التسميه تلك، إلا أن الاسم انتشر فترة قصيرة بين الرجال والمراهقين، وتألق في زمن قصير فصار مركزا للجنس المقلوب ـ وهو النشاط الأصلي ـ وملتقى لبائعي المخدرات، والعاهرات، وزجاجات الخمر المهربة، وألعاب الكوتشينة الأكثر احترافا.

كان الشاب المالك لـجوافة ابنا لعائلة ميسورة، تسكن في كفر قريب، جاء والده مع جده إلى هذا المكان، ليمدوا سلطانهم إليه، لكنهم اصطدموا وقتها بنفوذ الحاج مصيلحي وشراسة ابنه عرفة، فارتضوا أن يكتفوا بقطعه الأرض التي اشتروها، وتوقفوا عن الشراء من الفلاحين إكراما للحاج مصيلحي، والذي جمعه بهم نسب توطدت بعده العلاقة، لكنهم لم يتمتعوا بالنفوذ الكامل كما في قريتهم الأصلية، فعادوا واحدا تلو الآخر، وبقي لديهم البيت والأرض الذي بنى بثمنهم مركز الترفيه الأكثر شهرة، جوافة.

أما ملاعب الكرة في الجهة الأخرى فقد وجدت بتلقائية في المسافة

Twitter: @ketab_n

الفاصلة ما بين المعدات والعربات التي تعمل في بناء الطريق، وبين أول البيوت في اتجاه السوق، وذلك البيت الأول لم يعد بيت النجار، فقد ظهر بيت من طابقين لأحد أبناء عم فرج، وفي مقابله البيت الجديد لعائلة سعد، ومن بعده "العمارة" التي لم تكتمل بعد، ويسكن في طابقها الأول حسن عرفة، غير بعض العشش المنتشرة بلا أي نظام، وجوافة، وبيت أيضا لم يكتمل بناؤه يملكه ـ صوريا ـ عم مصطفى البقال، الذي طعن في السن ولم يعد يتحكم في أي شيء، والمالك الحقيقي بطبيعة الحال هو محمد ابنه البكر، الذي مازال يبيع قمصان النوم والملابس الداخلية للنساء سرا، وتجمعه ببعضهن علاقات حميمة، وقد أهدر الكثير من الفرص لتطوير تلك العلاقات لأبعد من ذلك، بسبب إقامته في بيت العائلة المزدحم، الذي يصعب على أحد التسلل إليه، لأنه بالكاد يكفي سكانه، كما أن الدكان ليس مكانا صالحا لأكثر من لحظات، بعدها يصبح وشريكته عرضة للخطر، كما أن تسلله هو إلى بيوتهن مبدأ مرفوض، كي لا ينكل به إن تم اكتشاف وجوده.. ولا يمكنه نسيان تلك التجربة المريرة، التي تعرض لها، حين تسلل لبيت زبونة، اعتقد أنها أرادته لكنها لم تصرح بذلك، فذهب إلى البيت الذي يعرفه جيدا، كما يعرف كون زوجها يعمل في الخليج. وبعد أن تلقى صفعاتها وصراخها، قفز إلى الخارج يطارده شابان تبدو عليهم الصحة، ولم ينجه سوى دخوله السوق وتبخره بين الزحام. وبقي معتقدا أنه كان على صواب، وأنها أوحت إليه بالذهاب، وكلما مر يوم دون أن تبلغ أهلها عن هويته تأكد من إحساسه، فبدأ في بناء ذلك البيت، لكنه توقف قليلا عندما ظهر جوافه.

Twitter: @ketab_n

تلك الليالي الباردة التي تمر بهدوء، لا يذكرها أحد، فتلك الليالي الصاخبة أجدر بالذكر.

الشيخ صبري علاقته متوترة بـمحمد ابن عم مصطفى البقال، منذ رأى زوجته الأصغر مرتدية لباسا أخضر صغير، ورأى في الأسبوع نفسه اللون الأصفر على زوجة ثانية، ولم يكن ليلتفت لتلك الأشياء الصغيرة، إلا أن زوجته الثالثة ـ أكبرهن ـ أخبرته أن زوجتيه تتركان محمد البقال يتحسس جسديهما، وينتقي لهما الملابس الداخلية، بينما يتودد إليهن. الشيخ، الذي ثار، استفسر من زوجتيه من أين اتَيَتا بتلك الألوان، وتأكد من المعلومة. كان الشيخ قد توسط فيما سبق بين محمد البقال ومجموعة من الرجال الغاضبين، وتذكر كيف عامله محمد بازدراء، فقرر أن يجمع أتباعه ويذهب ليرهب البقال، ويلقنه درسا، لكن الخطة تعطلت، حينما اشتبك أتباعه ذوي اللحى مع رفاق محمد، الذين تجمعوا ما إن رأوا الهجوم قادما، وكانوا مشحونين ضد أولئك الأتباع وزملائهم، منذ أن أجبروا جوافة على الرحيل، بعد أن أحرقوا البيت. أولئك الأتباع هم من أفلتوا من قبضة الحكومة أثناء الهوجة، وعادوا الآن أقوى.

دارت الحرب أمام الدكان، المرتفع بثلاث درجات عن مستوى الأرض الترابية، وهرب أتباع الشيخ، بعد أن ظهرت مؤشرات تدل على أنهم لن ينتصروا. كان محمد مصابا في رأسه داخل الدكان، ذهب إليه الشيخ للتفاوض، لكن محمد أخذ يتفنن في وصف تفاصيل زوجتيه، رغم أن علاقته بهن كانت لا شيء، لكن الطبع الغالب على ذلك الشاب أكسبه شعبية بين الذكور وجعلوه قدوة، خاصة وأنه أقرب أصدقاء عبد الرازق ابن عرفة، وأن عبد الرازق قد مارس بالفعل مع العديد من النساء. كان محمد لا يملك سوى عدد من المحاولات الفاشلة، وتجربه أو اثنين

Twitter: @ketab_n

يعتبرهم قمة النجاح، في واحدة وصل إلى تقبيل ومداعبة جسد مراهقة، لم ترض بتكرار تلك الفعلة، وصارت تأتيه بصحبة أختها الأكبر، قبل أن تختفي تماما. تجربته الثانية، التي يعتبرها أحيانا ناجحة، ويؤكد لنفسه دائما أن السيدة الأربعينية، التي خلعت أمامه العباءة، كاشفة عن مساحة كبيرة من الصدر والذراعين، قد رأته حين كان يفك أزرار بنطلونه، ولم يكن شيء ليفسد اللقاء سوى اندهاشها من حجمه وانتصابه، لذلك صرخت فيه ورحلت. أما باقي القصص، فيستمد تفاصيلها من خياله، مدعوما بقصص حقيقية بنسبة كبيرة، يرويها عبد الرازق. وحين يجتمع كلاهما أمام جمهور، يتناوبا على شرح كيفية اصطيادهم "للنسوان"، وحين يقص أحدهم شيئا تفصيليا، يتسلم من الآخر بـ "ده انا عملت اللى ألعن من كده"، ويبدأ في رواية أخرى، ويستخدم في قصته مناطق وتوقيتات حقيقية، فيرتبط خيال المستمع بالواقع، حتى يلتبس عليه الأمر ويفقد القدرة على تحديد الكذب من الحقائق، ويتخيل سيدة أو فتاة بالمواصفات التي يسمعها، ويصر أن يعرف الاسم، لكنهما لا يرضيا أبدًا.

بدون ذكر أسماء" كانت القاعدة الوحيدة الثابتة، فيرحل كل مستمع وهو متأكد ـ بفعل الحشيش ـ أنهم لم يذكروا الاسم، فقط لأنه كان جالسا، ويبدأ في المقارنة بين المواصفات وبين حريم عائلته، ويطارد خياله كي يصل إلى يقين بنفي أو إثبات، وإن وصل إلى أحد اليقينين لا يستقر كثيرا، ويشك من جديد، فيعود لمتاهة الأفكار، بين حقد على ما لم يمكنا من فعله ولم يتمكن هو منه، وبين جحيم الاستغفال، فينتهي لمراقبة الإناث المطابقة للمواصفات يوم، يومان، وينسى. تعود الأمور لطبيعتها، لكنه في اجتماع آخر معهما يسمع قصة أو اثنتين جديدتين، فيعود للدورة من أولها.

Twitter: @ketab_n

فى المقابل، كان الشيخ صبري يعاني من تعدد الصدمات. فبعد الصدمة الأولى برحيل "فراودة" شبابه إلى شيخ غريب يسهِّل عليهم طريق الجهاد، جاءته الصدمة الثانية، بعد أن جر النجار رِجل الحكومة إلى هنا، وأخذت معها الكثير من شبابه الودعاء، وهم الأقرب لقلبه، وهم من يحافظون له بسلوكهم القويم وابتسامتهم الفاترة على محبة السكان، واضطر هو أن يختبئ في مزرعة الرجل الأهم في حياته، وأقام في غرفته التي كان قد نساها، وبقي لفترة بين الخفراء والعمال من قريته، كأنه واحدٌ منهم. حين عاد، لم يرد سوى استرداد وضعه القديم. بدأ بجوافة، وكان نصره محققا؛ لكن معركته مع محمد البقال هرب منها رجاله، ولم يكن ليحتمل صدمة جديدة، فذهب ليتفاوض مع محمد، لكن محمد، الذي كان متابعا جيدا لكل الأجساد ودرجات اهتزازها، الأحجام بالضبط، لون الجلد، وتفاصيل دقيقة يجمعها من المشاهدة ويكملها بخياله، اغضب صبري حتى كاد يقتله، لكن صبري قاوم الفكرة ورحل.

تلك الفتنة الكبرى تدخل فيها الجميع، كل الأطراف كان لها دور، وكالعادة تمتد الانقسامات حتى داخل البيت الواحد، فقد ساند عبد الرازق صديقه، بينما وقف سيد مصيلحي إلى صف الشيخ، فقط ليعادي ابن أخيه علانية.. عرفة، الذي كان حيا يرزق حتى ذلك الوقت، كان عائما فوق الفتة، أو نائما يأكل أرز مع الملائكة، ولم يتخذ أي موقف وابتعد حتى إسميا عن منصب كبير المصيلحية. سيد خمرة وجد لنفسه دورا، كما وجد عادل ـ ذلك الملتصق به ـ أيضا دورا.. بدا وكأن الجميع جزءا من الشجار، حتى أولئك الذين يفضلون الابتعاد عن أي مخاطر والمشي أو الزحف على بطونهم أسفل الحوائط، كان عليهم في تلك اللحظة أن يدافعوا عن الدين. ورغم كراهيه الكثيرين للشيخ، وخوف آخرين من

Twitter: @ketab_n

أتباعه، إلا أنهم يحقدون على محمد وعبد الرازق بسبب النسوان، فهذان هما من يذكرانهم بضعفهم وعدم قدرتهم على اصطياد الجميلات، كما يهددون آلهم في أعراضهم، لذلك دعم الثلاثة أرباع أو أكثر قليلا جانب اللحى، الذين يحيون مثلهم، ولا يُشعرونهم بالنقص.

كانت قصص محمد مصطفى وعبد الرازق هي الأوسع انتشارا تلك الأثناء، وأجبرت الأمهات بناتهن على مصاحبة الأخوه معهن، كي لا تتعرض أي منهن للإيذاء، بعد أن ألهبت تلك القصص خيال الكثير من المراهقين، وسكنوا شخصيات بعينها محل الشخصيات المحجوبة أسمائها، فصاروا يداعبون الشخصيات الافتراضية بجرأة، ثم أصبحت تلك هي طريقتهم في مغازلة كل الأناث، وإن حدث وابتسمت أو ضحكت على قفشة أو تعليق قاله أحدهم، يتقدم ولا يتمكن أحد من إيقافه. أولئك الشباب كانوا في المجالس، حول أكواب الشاي وفي الطرقات، يدافعون عن محمد البقال، ويتمنون لو استطاعوا طرد من أسماهم التلفزيون "إرهابيين" من منطقتهم الآمنة. لم يكن كل ذلك غريبا، فتلك الأحداث تدور طوال الوقت، وبعد الحشد والتعبئة من كل جانب يهدأ الوضع من جديد، ويعود إلى سابق عهده، فينصرف الناس إلى صمتهم، ويعودون ليحتدوا وينقسموا حول مباراة، لأن الحكم أعطى وقتا إضافيا مفتوحا، حتى يسجل الأهلي هدفا.. أو رهان كوتشينة، لأن من يسرق لا يطالب بها راهن عليه، أو عشرة دومينا. كان يجب ضرب الدورجي لفتح الدو، إلا أن الهدوء المؤقت الذي عقب الاحتشاد لم يستمر كثيرا، فقد صادفت حادثتان أشعلتا الأزمة تماما، فقد كانت أخت أحد أتباع الشيخ تشتري الخضار، بعد أن تخلصت من أخيها المزعج وعادت للظهور، فتجرأ شاب

Twitter: @ketab_n

تعرفه ويعرفها وخاطبها. خشيت أن يراها أحد يبلغ أخاها، فتجاهلته، لكنها ابتسمت ابتسامة سرية، توحي له أنها لا تبغضه. سار خلفها حتى السوق، يداعبها بكلمات ترتعش أطرافها لها، توقفت لشراء الطماطم، وبقي على مقربة منها، حين انحنت لتلتقط ثمرة قد وقعت على الأرض ـ وفقا لمعجم عبد الرازق ومحمد مصطفى ـ فهم الشاب المتابع أن تلك الحركة لا تهدف إلا إغراءه، فتقدم حتى التصق بها.. وحين اعتدلت، كانت الفكرة قد اثارته لحد الجنون، فلم يتمكن من المقاومة، ودفع بجسده خطوتين أخرتين للأمام، ثم دفع بعضوه لينزلق على مؤخرتها، لا يفصلهم سوى جلبابه الخفيف وجلبابها الضيق. صرخت من المفاجأة، ثم اندهشت وصرخت من جديد، فركض الشاب هاربا. البائعون رأوه، هي تعرفه، والكل يعرفه، أخوها الذي لم يكتف بضربها، ولم يكن ليتوقف عن ذلك الانتقام الوحشي منها، تحت نظر وبكاء وصراخ الأم، ومشاهدة أبيهم وأخوتهم المنكسرة الصامتة.. هي تقسم والكل يقسم أن شيئا لم يحدث وأنها ضحية، بينما هو مجروح في كرامته، سمعته، ودينه.

تركها حين فقدت الوعي، وخرج إلى الشارع. كان ثائرا كمجنون، فهو قد رأى الفاجرة في السوق مرتديه الجلباب الضيق الذي حذرها من ارتدائه، ورأى مجموعة من البائعين متحلقين حولها يستفسرون عما حدث، ويربت أحدهم على كتفها وهي تبكي، وما إن رأته حتى صرخت، وحاولت الهرب. لحق بها، والكل يحاول إقناعه بأنها هي الضحية، لكنه كان يدافع عن الأخلاق، الشرف، ودين الإسلام!

هو الآن يبحث عن الشاب، استوقفه شابان في نفس طوله تقريبا، لكن لا يساوون وزنه مجتمعين، وحذروه من أي حماقة، فلم يرتدع، فتشاجروا.. وكان ذلك كمينا له، فظهر كل من كانوا مختبئين، وهم

Twitter: @ketab_n

أقارب وأصدقاء الشاب بطل واقعة الجلباب، يدافعون عنه استباقا. لكن الجلاليب البيضاء تدخلت لإنقاذ زميلهم، ومن حسن حظه أن الكمين كان في أرض خلاء قريبة من المسجد، فجاءه الدعم سريعا. اتسع الشجار، حتى جاء محمد ابن البقال مع أصدقائه ليناصر الشباب وينتقم ممن اعتدوا عليه، وبدا كأن الشيوخ يهزمون، لكن تحولا نوعيا قد حدث، فبعد أن كان المعتاد رؤية سلاح أبيض يلمع يُهدد به فقط ولا يُستخدم، كان الجديد هو سماع صوت سلاح ناري، فانخفض عدد المشاركين في المشاجرة، حتى انفضت الي مشاجرات صغيرة عديدة في أماكن متفرقة.

ذلك اليوم شهد تحول جديد، حيث استمر الشجار في كل مكان في القرية والشارع وتحت الكوبري، وما يحيط بنا. كل من سار وحيدا في أي طريق تعرض للإيذاء، تمركز جانب في بيت الشيخ صبري، والجانب الآخر في دكان البقال، خرجت استغاثات النساء والمسنين على الطرفين كالسيل، سيد خمرة وعادل لا يعرف أحد إلى أي جانب هم، فقد اشتركوا في البداية ضد فريق المتحرشين، لكنهم انسحبوا حين أصبح للشيوخ الغلبة. وحين ظهر السلاح الأبيض يركض في الطريق، يبحث عن محمد أو الشاب المتحرش، استوقفهم سيد ورأى أن السلاح ليس مجرد تهديد كما اعتدنا، فابتعد عنهم واشتبك ضدهم بالحجارة والزجاجات، وانضم له بعض الخائفين ليحاولوا منعهم من دخول الشارع في اتجاه السوق. وكانت صرخات النساء لا تدل سوى على تجدد الاشتباك، ونصب كل جانب عدة أكمنة لاصطياد أعدائه، بينما اجتمع كبار العائلات المفككة الضعيفة بالشيخ صبري وعبد الرازق، علهم يوقفون المهزلة.

وأراد أحمد النجار، الذي يبحث لنفسه عن دور أن يحضر ذلك الاجتماع، لكنه قوبل بالرفض من الكبار، الذين يرون فيه وصحبه

Twitter: @ketab_n

أصل كل البلاء. افتعل الغضب وثار، لكن لم تأته النوبة، فلم يفعل شيئا ورحل، اعترضه كمين يبحث عن محمد، فحاول أن يشرح لهم من هو أو من أين أتى وارتبك، فتلعثم وخرجت كلماته مضطربة وبلا معنى. رأى في تلك اللحظة تحديدا أن سلطاته انهارت، فبعد أن وافق على التعاون مع الشيطان، ليقوض سلطة الشيوخ الصاعدة، وسُجل بذلك لدى "أحمد مسعود" على أنه عين، وفقد الكثير من تميزه وأصبح مثل أي مرشد، هاهم يظهرون من جديد، هذه المرة أقوى، فهم اكتفوا بالتهديد فيما سبق، ولم يتعرضوا لأحد سوى لـ "حسن" الذي كان يصطحب راقصة زميلته في العمل كل ليلة إلى بيته، ويخرج صوت الموسيقى من بيته طوال الليل، وأثناء ذهاب المصلين لصلاة الفجر يقابلونه وهو يستند عليها أو تستند هي عليه، تفوح رائحة الخمر من كل جسديهما. لم يطبقوا شرع الله على حسن، واكتفوا بأن ضربوه بعد أن تبجح فيمن حاولوا أن ينصحوه بالحسنى. أما الآن، فهم يمارسون سلطاتهم على الأرض، يمنعون المحال من البيع أثناء الصلاة، وفي أيديهم السلاح لمن لا يستجيب، يضربون في أكمنتهم الليلية من يجدونه مخمورا أو مسطولا، أحرقوا جوافة، وهددوا المقهى، ينتظرون انتهاء الشيخ من التفاوض كي ينفذوا خطتهم ويهجموا على دكان البقال. وحتى إن كان الفريق الآخر مجتمعا وفي أقصى درجات استعداده، لن يتمكنوا من الصمود في وجههم نصف ساعة، خاصة وقد انضم لهم إخوان من مناطق مجاورة، يحملون السلاح الناري ويجيدون استخدامه، غير أن بعضهم تلقى تدريبات على القتال، ويعرفون جيدا كيف ينفذون تلك العمليات. الآن يستوقفون النجار ويفتشونه، فيجدون معه حشيشا. تلقى نصيبه من الضرب والسباب، وأتلفوا بضاعته، وأبقوه مقيدا إلى جذع نخلة، حتى أشرقت الشمس. كانت هذه

Twitter: @ketab_n

هي الحادثة الثانية التي تسببت في تحويل مسار المواجهة.

السكان يمضون أغلب أوقاتهم داخل المنازل، الرجال لا يذهبون للعمل ليلا، والأطفال لا يذهبون للمدارس صباحًا. الآن لا تفاوض، ولا أمل في حل الأزمة وديا، فصبية النجار يجيدون استخدام السلاح الأبيض، ورفاقه من حول القرية يجيدون بث الرعب وإشعال الحرائق الصغيرة التي تجعل المشهد يكتمل، بينما سبابهم يملأ الهواء مختلطا بلغة الفريق الآخر الفصحى الضحلة. المعركة تندلع كل يوم، يحشد كل جانب رجاله، وينتظر صفارة البدء. تندلع المعركة ثم تنتهي، بعد أن تهرب فرق النجار وزملاؤه المنضمين إلى محمد وعبد الرازق، مشكلين مجموعات صغيرة كثيرة غير منظمة، لها هدف واحد دائما، هو استفزاز الشيوخ وجرهم لمصيدة، ثم الهروب سريعا قبل أن يُقضى عليهم. تذهب السيدات إلى الأسواق في الصباح، ويقابلن المعاملة الغليظة من البائعين، فآخر من تجرأ وضحك مع زبونة كُسرت عربته الكارو وبُعثرت بضاعته على الأرض الطينية للسوق، وتلقى علقة بالعصي من الرجال المسيطرين على السوق، الدكاكين، والطريق.. هم يسيطرون على كل شيء تقريبا، إلا بؤرة تجمع محمد مصطفى ورفاقه، وبؤرة النجار ورفاقه تحت الكوبري.

في الليل، يخرج النجار وصبيته كي يظهروا للناس أنهم يمارسون حياتهم الطبيعية، إلا أنهم يحاذرون طوال الوقت أن يقعوا فريسة لهجوم خاطف، فأنت إن سقطت واضطررت للشجار دون استعداد وتخطيط لن تنتصر عليهم، فهم يتعاملون بمنطق غير منطقنا، الشجار لديهم لا يمر بمراحل السباب والمناكفة، بل يبدأ بالضرب مباشرة، ويُصعَّد حتى يصل إلى الرصاص والمولوتوف. فبعد تلك الأيام الأولى، التي اشتبك فيها رجال النجار ورفاقه معهم، وبدت المعركة متوازنة باستخدام

Twitter: @ketab_n

السلاح الأبيض وحرق إطارات السيارات، انتهى الأمر بالهرب والبقاء تحت الكوبري، والآن لا آمر ولا ناهٍ لهذا المكان وما حوله سوى رجل غريب عنا، يسكن لدى الشيخ صبري في بيته الجديد، الذي اشتراه من سمير قبل أن يرحل.

فى تلك الأيام الكئيبة، كان الجو خريفيا، لا نعرف تحديدا إن كان حارًا أم باردًا. كان الجو خريفي، والظلام يبدأ بُعيد منتصف اليوم، يبدو على كل الوجوه الكدر، ويداري البعض إحساسه بالضعف بادعائه الاقتناع أن ذلك ما أراده الله للأرض. عم حمدي، مالك المقهى العجوز، رفض أن يقفل مقهاه، مصدر رزقه وتسليته الوحيدة في الحياة، وبعد أن كُسِّرت مرتين، أغلقها. زوزا العامل الوحيد لديه اختفى تماما، حين اتُهم أن زبائن المقهى صاروا يلعبون الكوتشينة سرا فوق سطح بيته، النساء يمشين في جماعات إلى السوق، يخبئن أي شيء قد يبدو مثيرا، وبالنسبه لمن يعانون الكبت ـ المتحكمين ـ فإن الزي الواسع والأكمام الطويلة وغطاء الرأس الممتد إلى الرقبة فتنة.

الحال واقف بالنسبة للكثيرين، صوت التلفزيون انخفض، مباريات كرة القدم دون رهانات على مشاريب، الأطفال يلعبون حول البيت فقط، والرجال يتباحثون سرا ما الحل؛ ولا يبدو أن أحدا لديه حلا. كل من تعرض لضرب مبرح، أو لأي أذى، لا أمل له فيصمت.. من خسر مالا أو عملا لا قدرة لديه على فعل أي شيء، فيقبع في داره.. من كانت تسليتها مناكفة ومفاصلة البائعين لا سبيل لها، فتدفع دون فصال.. السيدات فوق الحمير والكارو يتخذن طريقا طويلا ليدرن حول الشارع، كي لا يتعرضن لأي مضايقة، وفي الليل يدفع المار من تحت الكوبري إتاوة للرجال المذعورين الباحثين عن أي هيبة أو سلطان يمارسونه، قبل

Twitter: @ketab_n

أن يُتخذ ضدهم القرار ويبدأ الهجوم المنتظر. في البداية كانوا مقاومين أقوياء، هددوا ذلك المد الذي ظن الجميع أنه مؤقت ونابع من شجار؛ لكنه لم يكن مؤقتا، والشجار أصبح اثنين، والحادثة حوادث، وأخذت المقاومة تضعف حتى اختفت، وهرب في جنح الليل محمد البقال، وبقي عبد الرازق في بيته لا يغادره. علي قاسم لم يعترض أحد طريقه في ذهاب أو عودة، إلا أنه فقد أم ريهام، ففقد معنى الحياة، فحين سيطر أولئك على المنطقة هددوه إن لم يقنن وضع هذه السيدة أنهم سيرجمونه، فرحلت هي وابنتها إلى الطابق فوق حسن، في البيت الذي لم يكتمل بناؤه، الذي يبنيه سيد مصيلحي مع أحمد إبراهيم، وأحمد إبراهيم ترك لحيته والتزم باللون الأبيض لجلبابه ودافع عن تطبيق شرع الله على الأرض، وهاجم المسيحيين القلائل في السوق، النساء الحاسرات، والكاشفات عن شعورهن.

أياما طويلة وليال أطول مرت، حتى تراخت اليد القابضة على السوق، وعادت النساء إلى الضحك والثرثرة، والأطفال عادوا لمدارسهم، لكن الكل مازال مهددًا، فالسلطة الأعلى الأقوى في البلد لا تراعي حرمه بيت أو ضحكة طفل. لا تراعي السلطة المطلقه شيئا ولا يحرجها أو يزعجها إيذاء برئ، وتهمته دائما جاهزة ومعدة: مخالفة أمر الله، والتعاون مع من يروجون للفجور. الكل مهدد، لكن سيد خمرة لا يشعر بذلك التهديد، ولا يعترف به.. يقاوم يوميا ويشتبك، ولا يقدر أي منهم على أسر ذلك العملاق، كما أن التعليمات الصادرة إليهم تحذر من استخدام السلاح، كي لا يقعوا في الخطأ الذي وقع به إخوانهم في مناطق أخرى، فاستجلبوا الشيطان بذاته، وفتحوا بابا لدخول الحكومة. الحكومة التي لا تعرف سوى الأسلحة الآلية، التي يضغط على زنادها مرة واحدة، فتنطلق

Twitter: @ketab_n

ثلاثون رصاصة تائهة، لكنهم ـ الحكومة ـ يضغطون ثلاثين ضغطة على زناد السلاح، ويملكون مئات الأسلحة.. الجانب الآخر يملك مثلهم سيلا من الرصاص يقاوم به.

بعد أن ألح النجار على أحمد مسعود، رفع الأخير الأخبار إلى سيده ذي النجوم على الكتف، كان السيد يعاني قلقا بسبب وجود جثة في مكان قريب، وليس لديه أي معلومات حولها، فأعد تقريرا ورفعه مع الجثة إلى سيد أعلى، فانطلقت الرصاصات من الأسلحة الآلية حولنا، بيننا، أمامنا، وفي السماء.

كل شيء يحترق، صرخات لا مصدر لها، ودماء تتدفق بلا ثمن، جثث ظهرت هنا، لأول مرة نرى القتلى على جانبي الطريق، وللمرة الثانية تدخل سيارات الحكومة، لتطارد أولئك الشباب التائهين بين المقاومة والهرب. السكان يخافونهم، لكن يعرفونهم، فيخبئوهم. تدخّل سيد خمرة في معركة الرصاص، حاملا سيفًا يبحث عمن تسبب في أذيته، وانتقل من بيت لبيت ليثير مزيدا من الذعر وللمرة الأخيرة، يظهر ذوى الجلاليب البيضاء حاملين السلاح جهارا نهارا، في ذلك اليوم العصيب انهار العالم، برك ماء لا مصدر لها، وقمامة تملأ الأرض وكأنها هبطت من السماء، حرائق صغيرة كثيرة، وحريق كبير لا يطفئه سوى جيرانه.. خراب، صراخ، جثث، ومعتقلين.. دمار وكأن الحرب مرت من هنا.. كل ذلك، بعد أن وضعت الحكومة ـ الدولة ـ قدما واحدا، بل إصبعا في البلد!

صوت حسن يجلجل من جديد، لكنه توقف عن ترديد أغنيات أم كلثوم، بعد أن اقتنع أنه لا يصح لأحد أيا كان أن يعيد ترديد أغانيها

Twitter: @ketab_n

وأن اقصى ما نملكه هو مشاهدة الست والانبهار. صار يغني أغنيات باللغة العربية الفصحى، حذرته الفرقة الموسيقية من تلك الأغاني وأنها لا تناسب ذوق جمهوره، وقد بدا ذلك منطقيا للجميع، فمن يذهب للمهى ليلي كي يسمع غناء هادئ باللغة الفصحى؟!.. لكن حسن، الذي يبدأ هادئا ويدخن جوان في الفواصل الموسيقية، ثم يرفع زجاجة البيرة ويتجشأ، يغني هادئا حتى يصل إلى الذروة ويطغى المخدر على عقله، فيبدأ في الصراخ دون النظر إلى موضع ذلك الصراخ في الأغنية، كأن يغني لعبد الحليم فلم تزل تلقاني هادئا، و"تستبيح خداعي صارخا، ثم يكررها حتى تفقد معناها في شفتيه، فيقوم أحد أصدقاؤه الحاضرون بتحيته بجوان، فيرد التحية " وسرت وحدي شريدا..ياحمرة"، فيغار أحد الحضور من عدم ذكر اسمه، فيقوم يحيي المطرب بنقوط "يابوسعد... محطم الخطوات" ويستمر ادعاء السعادة من الجميع، إلا أن ما حدث أكبر من النسيان، خمسة وعشرون شابا ضحية المجزرة الخريفية، التي فخرت الحكومة بأنها قامت بها دفاعا عن أمن وسلامة البلد، وكرموا أسر المجندين الذين لن يعودوا بمئات الجنيهات، ولقب فقد قيمته منذ أن أهدر على الألسنه "شهيد"، وضع البهوات نجوما على كتوفهم، ليصبحوا ـ وبطبيعة الحال ـ باشاوات. باسم، المساعد الشخصي لحسن، وجد وظيفة أكثر إلهاما، حين دعته راقصة مبتدئة أن يصبح مساعدها. كانت تحاول أن تُصلح أخطاءها، فهي كلما أتت بمساعدة أنثى سرقت منها زبونا أو اثنين، قبل أن تختفي لتعود وتظهر كراقصة منافسة لها، وفي دائرة معارفها. وافق باسم، الذي تحول اسمه منذ ذلك اليوم إلى "باسيم" كما تنطقها هي، بذلك الصوت المثير وتلك الياء الممدودة الممتلئة بالغنج.. تخلع ملابسها أمامه، ويحمل لها حقيبتها، بينما يشاهد أردافها عارية.. تنحني فتخبئ صدرها، هي لم تسمح له بأكثر من رؤية مؤخرتها

Twitter: @ketab_n

وجسدها من الخلف، أما الواجهة، فكما قالت إن آخرين يدفعون كي يحظوا بتلك الرفاهية. هي لم تكن تحتاج له، فهي يمكنها تدبر أمورها كما كانت تتدبر أمور سيدتها القديمة، لكن المساعد أو التابع هو جزء رئيسي وجوهري في تلك الأماكن، فهو يحسن من صورتها ويرفع من قيمتها، كما أنه يتلقى في أحيان كثيره الإكراميات والنفحات فلا تحتاج لأن تدفع له مبلغا كبيرا.

هو، كان غارقا في حبها، لا يفكر في شيء سوى ذلك الجسد العاري والبياض النقي، يتذكر لفتاتها، واللحظات التي اختلسها ورأى فيها صدرها، الذي بدا له كالشيء الأكثر كمالا على الأرض، اللحظات التي يتبادلان فيها الحديث بهدوء حول أمر ما، النكات البذيئة التي تضحكها تلك الضحكة المفزعة، اقترابها منه بثقة وملامستها له.. كل ذلك يدور في خياله كل ليلة، فيهيم بالحشيش بين الحب والشهوة.. باسيم يملك بعض المال من سرقتها، ومن نفحات الزبائن ونفحاتها، اشترى الحشيش، وكي يأمن النجار ورجاله ـ وهم الأكثر خطورة في ذلك المكان ـ شارك سيد خمرة، وبهذا اتزن الوضع.

أُغلقت العديد من المحال أو غيرت نشاطها، وصل الفيديو جيم إلى هنا، وفي كل ليلة يكسر اب أو اثنين عصا أو اثنتين على ابنه، ويجبره على الذهاب إلى بيت "آل سعد"، حيث يتلقى دروسا في الرياضة والعربة والعلوم، على يد الأستاذ عمرو، الذي يكنز قرشا فوق الآخر، بينما يعاني أخوه الأصغر بقعة من كل أمراض ذلك المكان، بدءا من ضغط الدم والسكر، وصولا إلى فيروس سي والقلب، يجلس شاردا أمام البيت، يتأمل التراب والنجوم.. يمر أحدهم فيتبادل التحية معه وينتهي الأمر هنا.

Twitter: @ketab_n

هنا، انتهى أمره ينتظر شيئا ما لا يعرفه. ذروة شبابه ونشاطه أفنيت، ولم يبق له منها سوى الذكريات. صحته لا أمل فيها، وعمره يتهاوى أياما تجر أيام، لا يفعل شيئا، وإن تبادل كلمتين مع أحد المارة كان ذلك حدثا. يدخن الحشيش ويغرق في تذكر كم كان قويا، جميلا، خفيف الظل، ويعود ليتأمل حالة جلبابه، وجهه، ولحيته، وعدم قدرته على فعل أي شيء. يسهر أمام التلفزيون بعد أن ينام الجميع، فيشاهد كل شيء حتى تصبح الشاشة نقاطا رمادية وسوداء تتحرك بسرعة مذهلة، فتبدو كأنها لا تتحرك، وتصدر صوتا باعثا للملل، لكنه لا يمل من مشاهدة تلك الشاشة، حتى يأتي أحمد إبراهيم أو عمرو أو أي شخص يغلق التلفزيون أمامه دون أن يأذنه، ويعود ليكمل نومه، فيخرج بقعة من جديد إلى الشارع، يدخن ما يجده من سبارس ألقاها هو أو غيره. يشعر بالرغبة في التبول، لكنه منذ أن أصابه مرض السكر أصبحت سيطرته ضعيفة على مثانته، يتسرب السائل، ولا يرى سببا يجعله يبدل جلبابه، فهو في كل الأحوال متسخ، فيبقى مكانه يتذكر أياما كان يملك الأرض فيها، قبل أن تضعه الحكومة في ذلك السجن، الذي افقده كل شيء حتى إحساسه بالتقزز من ذلك السائل الذي يتسرب من جديد.

هاجر، زوجة النجار صارت ملهمة النساء، فهي تجيد اختيار ملابسها وتبقى محتشمة، لم تكن الأولى ولا رقم ألف التي ترتدى "جيبة"، لكن الجيبه التي ترتديها لا تبدو كتلك التي ترتديها الموظفات، وتبدو كأنها النصف السفلي من جلباب أسود، ولا كتلك التي ترتديها المسيحيات وتبدو، رغم كشفها عن جزء من عضلة السمانة، أكثر احتشاما من العباءة، كما أنها ليست كتلك الجيبات الملونة التي ترتديها الفتيات في العيد. كانت مميزة، لدرجة أنها جرَّت كل المراهقات خلفها في ارتداء تلك الجيبات

Twitter: @ketab_n

الضيقة من أعلى وتتسع باتجاه الأرض، فتخدع عين الرائي وتبرز ما أرادت إبرازه. الألوان كانت متحررة، كما ألوان الأطفال، إلا أن الأحمر كان ممنوعا عليها. قادت الشابات إلى التخلي عن الفستان، ولم يقلل ذلك من احترام أحد لها أو لزوجها، فاختيارها لملابسها كان مختلفا عن فجاجة فريدة، في تلك الأيام التي بدأت تشعر فيها أن كل الأبصار انصرفت عنها، فغالت في وضع مساحيق التجميل والكشف عن مساحات متغيرة، فيوما يطل علينا ذراع أو ساق، ويوما آخر مقدمة صدر ورقبة، كما بالغت فيما سبق في تمييز أبنائها من حيث النظافة والملابس، حتى أنها أدخلتهم مدارس بعيدة خارج محيطنا، وكان على الأطفال أن يستيقظوا في الخامسة فجرا، كي يتمكنوا من اللحاق بالاتوبيس الذي ينتظرهم على أول الطريق في السادسة إلا الربع. هاجر كانت تضع الإيشارب فوق رأسها دائما، فتحجب عن الجميع رؤية شعرها الملون المصفف دائما، كما لا يظهر في وجهها شعرة سوى تلك الشُعيرات المرصوصة بعناية على شكل منحنٍ فوق عينيها، ارتدت الذهب في المناسبات، وقبلت أن تكون ـ وبكل تواضع ـ سيدتنا الأولى.

بيت جديد يبنيه سيد مصيلحي على ناصية الشارع، بحيث يصبح مطلا على الطريق حين يتم افتتاحه قريبا. أم ريهام لم تعد تملك شيئا تبيعه، ولا كسرة خبز في البيت، لكن ريهام لم تعد طفلة فهى تخرج للعمل، لكن لا تساعد أمها، هي توفر مصاريفها وتدخر لشراء الملابس وشرائط الكاسيت. علي قاسم يزور أمها كلما أمكنه مساعدتها بأي مبلغ أو حتى طعام، لكنه لا ينجح في شغل الفراغ أو سد العوز في حياتها، فزارها عادل ودفع نقدا، وزارها من بعد عادل عددٌ ضئيل، لكن عادل زار من بعدها عددا لا بأس به من زوجات الغائبين والمطلقات والأرامل، ولم يُخبر أحدًا

Twitter: @ketab_n

عما يفعله وأي نجاح حقق في هذا المجال، فعادل كان نوعا جديدا، يفعل كل شيء لا ليتفاخر به، بل فقط ليستمتع بلحظات فعله.

محمود قاسم أفتى في مجلس حشيش أن عادل هو الوحيد الذي يصلح للنجار، كي يعتمد عليه في توزيع صنوفا أخرى من المخدرات. لكن عادل كان يوزع لسيد خمرة مخدراته، وبذلك يستثمر أموال "باسيم بحث النجار مع عادل الأمر، ووصلا إلى نتيجة أن عادل للجميع، كما صعَّد النجار صيبته ليصبحوا رجالا، وبهذا أصبح مجرد وسيط بين التاجر الكبير والبائع المتجول، ولا أحد ينسى ما حدث. نحاول أن نتكلم عن المخدرات، المشاجرات، أو النسوان، إلا أن الكلام يدور وينتهي إلى ذكر المجزرة. من رأى بعينه وجها يعرفه قد شقته رصاصة، لا يمكن أن ينسى.. من باتت ليلة بين الجثث مختبئة وفاقدة للحركة في مدخل بيتها، حيث كانت القوات تجمع ضحاياها.. من فقدوا ابنا أو صديقا.. من ظل طوال الليل يحاول الهرب.. من اختبأ داخل بيته وبقي مرعوبا من اللحظة الأولى حتى الآن.. من تعاطف مع قضية أو حق القتلى.. كل أولئك لم تكن المجزرة بالنسبة لهم حادثة، بل كانت علامة في حياتهم. من أجبروا على أن يدفنوا أبناءهم في جنح الليل، دونما ضجيج أو حتى بكاء، ومن لم يجدوا جثثا لأبنائهم يدفنوها، كل أولئك هم كل السكان. تغطي على الجميع سحابة كآبة غير متساوية، حقيقة أن لا قيمة لك، ولن يكون أبدًا لك أو لحياتك أي قيمة، حقيقة مزعجة، دفعت البعض إلى نبذ العنف، ودفعت آخرين لتقبله والمشاركه فيه بحماس، ووجد البعض ـ كأحمد إبراهيم ـ مبررا لما حدث، وأشاد بالمجزرة، بعد أن حلق لحيته!

بهائم تمر من جهة القرية، التي لم تعد قرية. واكتظت شوارعها الضيقة بمحال صغيرة تبيع كل شيء، ملابس، بقالة، خردوات.. كل شيء يباع

Twitter: @ketab_n

منه شيء في تلك الدكاكين الصغيرة، المعتمة كي ينصرف الذباب.. سيدات يجلسن على عتبات بيوتهن، يرتدين عباءات سوداء وطرح ملونة، جوارهن بناتهن المتزوجات يرضعن أطفالهن، ومن حول الجميع أطفال حفاة يلعبون بحماس وتفرقهم دراجة تمر بسرعة جنونية، يقودها طفل تصل قدماه ـ واقفا ـ بالكاد للبدال. تفزع السيدات وينتشلن آخر الأطفال من أمام الدراجة، يصببن سيلا من الشتائم مفخمة الحروف على الطفل القائد، الذي يتحرك في الشوارع ـ المتعرجة، الكثيفة، المتقاطعة ـ بانسيابية تامة تجاه المخرج، حيث تمر البهائم من القرية، التي لم تعد قرية، تجاه الشارع الذي لم يكن شارعا، من تحت طريق لم يُصبح بعد طريقا.

تُعلق الكهارب ويقام العرس، ترحل واحدة تنجب أربعة، يزيد العدد وتتقلص الأرض، تختفي محاصيل وعائلات ودواب، ولا تصل بدائل، فلا مصانع ظهرت ولا سيارات سارت. أما العائلات، فهي في ازدياد مستمر، تتفرع إلى أقسام، ثم تتفرع الأقسام والعدد يتضخم، يرحل البعض ويعاني الباقون الفقر، ذلك الشيء الذي كان موجودا دائما وظهر فجأة، ذلك الشيء الذي كان بعيدا عن العائلات ذات الحيازة الزراعية، واحتل بيوتهم الآن.

فيما سبق، كان للمصيلحية الريادة في الإحسان والإساءة لشخص أو لمجموعة. لكن، وبعد انكماش أراضيهم، لم يعد لديهم سلطة على قوت الفلاحين، الذين يؤجرون أراضٍ، أو الذين يعملون لديهم باليومية، كما أن الحكومة قد نزعت ملكية "الغيط"، الذي يمر في قلبه الترعة، التي أصبحت الآن طريقا، وأصبح الغيط مجموعة من البنايات وخرابة وقطع أرض مزروعة متناثرة. كان لهم في كل فرح مكان مميز ونقوط أكبر، ترحيب برجالهم، تحكيمهم في أي نزاع، كل ذلك انتهى، بعد أن

Twitter: @ketab_n

صار عددهم أكبر من أن تكفيهم الغرف الجديدة لذلك البيت الكبير، فاضطروا للبناء على أرض كانوا يزرعونها، فتضاءلت مواردهم. غير أن سيد، الذي اختلف مع عرفة من قبل واستقل بميراثه، لم يرد ذلك الإرث حين عاد، ودخل في مغامرة ببناء "عمارة" جديدة، رغم فشل المشروع الأول الذي لم يؤجر منه سوى ثلاثة شقق، واحدة لحسن، الذي لا يدفع إيجارا، وأخرى لأم ريهام، التي توقفت عن الدفع لعدم قدرتها، والثالثه لموظف وأسرته. لكن ذلك الرجل الملتزم تماما بدفع الإيجار في ميعاده لا يكفي وحده لأن يقنع "سيد مصيلحي" أن مشروعه هذا ناجح، ويدفعه للبدء في بناء "عمارة" جديدة.

فريدة قاومت بشدة، ودافعت بشراسة، لكنه ـ كعادته حين يفشل في إسكاتها ـ يصفعها، وإن تمادت تصبح الصفعة صفعات وأرجل، وقد يستخدم عصاه في تأديب زوجته، التي كانت في السنين الأولى من زواجهما تطفش إلى بيت أهلها إن تجرأ عليها، والآن بعد كل ذلك الوقت لم يعد يزعجها سوى أن يترك الضرب أثرا على وجهها، يجعلها غير قادرة على الظهور أمام جمهورها، الذي انصرف عنها منذ زمن، والتحم بخياله مع ريهام وأمها. صار تجمع الشباب فوق سطح أحد البيوت أو تسلقهم للنخلة المزروعة خلف البيت الذي تسكنه ريهام، كي يختلسوا النظر إلى إليها منظر اعتياديا ومألوفا، وأضاف "حسن" لهذ المشهد زخما، حين تزوج في ليلة صاخبة من الراقصة التي يعمل "باسيم" لديها.

أراد باسيم، وهو صديق في الأساس لحسن، أن يجمع الاثنين في فرح، كي يُلمع سيدته، لكنه فشل في توفيق ميعاد لأكثر من مرة، فسيدته لا تدخل "المحل" الذي يعمل به حسن، لأنها طردت منه فيما سبق، وحسن حين ينتهي من فقرته يكون قد خرج عن الوعي تماما، ولا يمكن أن

Twitter: @ketab_n

تتفق معه صباحا، لكن باسيم أصر عليه واصطحبه بعد انتهاء فقرته إلى "المحل الذي تعمل هي به، وكان حسن يعشق الراقصات دونا عن كل النساء، شيء ما في ابتذالهن وإثارتهن للغرباء يجعله ضعيفا في حضورهن، وكلما كانت الراقصة أكثر ابتذالا وأقل حياء كان تأثيرها عليه أكبر. لذلك، حين أنهت فقرتها ودخلت الغرفة لتغير ملابسها أمام "باسيم" كما اعتادت، انبهر حسن، ولعب المخدر بأعصابه، ليغرق في تأمل تفاصيل جسدها الأبيض اللامع وحركاتها غير المبالية بوجود ذكر في المكان. تنحنح باسيم وأخبرها أن هناك شخصا ثالثا، فسبتهما بأقذع السباب، دون أن تداري عورتها، وبدا على وجهها الغضب. ارتدت شيئا ما، وجلست معهما على الطاولة يشربون بيرة ويدخنون الحشيش دون توقف، ولا يريد حسن أن يوافق على الأجر أو الميعاد كي يستزيد من جلستها الممتعة. دق الباب عليهم أحد، يخبرهم أن تلك الغرفة للتغيير وأن الكل يستخدمها فارحلوا، ارتدت عباءتها وخرجوا إلى الشارع، دون أن يتوقفوا عن تبادل الجوانات أو زجاجات البيرة المخبأة في أكياس سوداء، حتى سقط باسيم نائما عند الفجر، فتركاه في الطريق وبحثا عن مكان يؤيهم، وعندما وصلوا لأحد الفنادق الرخيصة، طلب موظف الاستقبال مبلغا مضاعفا لأنهما ليسا زوجين، تسكعا في محال الأكل والمقاهي، وما كان أحدهما يفيق حتى ينقض عليه الآخر بجوان أو زجاجة، حتى انتصف النهار، فتزوجا وعادا للفندق، كي يؤجرا الغرفة بسعرها الاعتيادي. انتهى الأسبوع الأول بكل ما فيه ورأى حسن أن يعود بها للبيت. وقد فعل، فأصبحت تلك العمارة التي يملكها سيد وشريكه أحمد إبراهيم ـ رغم كونها العمارة الوحيدة في المكان ولا تحتاج لأن تُعرف باسم ـ "عمارة اللبن"، حيث يسكن بها طالبتان جامعيتان

Twitter: @ketab_n

ترتديان الملابس الإفرنجية الضيقة، وعاهرتان، وراقصة، واصبحت تلك البقعة هي المكان الأمثل لتجمع الشباب، واستغل "باسيم" ذلك في بيع الحشيش والبرشام لهم، بينما يقص لهم بغل وتشفٍ كيف يبدو جسد تلك الراقصة، وكيف تتعرى أمامه دون خجل، لكثرة ما ضاجعها، وأنه قد "قطع تذكرة وركب، بينما حسن اشترى الترموای

ذلك التجمع لم يغير كثيرا في شكل الشارع، حيث أصبح مكانا وسيطا لأولئك الذين لم يسقطوا في عَجَز المقهى، أو يحملوا السلاح تحت الكوبري. هم أغلبهم طلبة، يعودون من مدارسهم دون أن يؤذوا أو يتعرضوا لأذى، حيث يكفيهم في اللحظات الحرجة ذكر نسبهم أو معارفهم وصداقتهم بأحد الذين يكفي ذكر اسمهم لدرء الخطر. كان ذلك المكان تطورا طبيعيا للعبهم في الشارع وحواري السوق، لكن ذلك الجيل لم يعبر تجاه القرية، ولم يعبر من القرية أحد في اتجاهه، كي لا تعرض نفسك لخطورة المرور من بوابة البهائم، وأصبح لدى أولئك المراهقين المتجمعين وصف جديد يُستخدم للذم أو المعايرة، لكل من تعتمد عائلته في رزقها على الفلاحة أو بيع منتجات الطيور والدواب، ولم يعد مهما لدى أحد مدى رخاء الأسرة، فالفروق بسيطة بين الموظف وذا الحيازة، أما الأُجرية والفواعلية والخفراء، فأبناؤهم لا يأتون لهذا المكان، ويقضون أغلب أوقاتهم في العمل، دون يحقدوا على أولئك المترفين الذين لا يفعلون شيئا سوى التدخين ومحاولة اصطياد صدر أو ورك يظهر من عمارة اللبن.

للحقيقة، لم تخيب ريهام ظنهم أبدا، غير أنهم قد يحصلون فوقها على مشهد آخر لأنثى أخرى، لذا كان أول سؤال يطرحه من يصل متأخرا: "ريهام جت؟"، فإن كانت الإجابة بنعم، يصاب بإحباط، وقد ينصرف

Twitter: @ketab_n

للعب الفيديو جيم، أو البحث عن شريك يقنعه بالتدخين، أو لعب الكرة فوق الكوبري، أو يتسلى بمعايرة أحد أبناء الفلاحين بالسُبة الجديده "فلاح"

الكوبري انتهت الأعمال فيه، ولم تعد تلك الماكينات الثقيلة تصدر أصواتا تذكر. كل ما حوله بدا جزءً أصيلا من المنطقة، وتعامل معه الجميع بحميمية، بدءًا من السكان والبهائم، وصولا للبيوت، الكل يتعامل معه بألفة وتلقائية، بل أنهم سيفتقدون علامات الطريق و"مُكن إخفاء المخدرات وممارسة الرذائل لكل من وجد إليها سبيلا، تلك الماكينات العملاقة التي تتحرك وتفعل الأعاجيب سترحل، هي بالفعل ترحل، تاركة خلفها مساحات شاغرة غير مبررة لأحد، لن نفتقد أولئك العمال الجادين الصارمة وجوههم، فأقصى ما استفدناه من وجودهم نكتة عابرة أو جنيها ثمنا لطبق كشري، لم يبق منهم سوى ذكرى مشاجرات دعمت موقف أحمد النجار، وأسست لسيطرته على منطقة الأشغال، ومن بعدها تسلل إلى السيطرة على القرية وأخذ يتوسع.

قيل عن ذلك الطريق كلاما وكلاما، حتى أن صورته كانت تطالعنا في التلفزيون كل جمعة، في برنامج يذاع بعد المغرب على القناه الأولى، ويذكر ذلك الطريق بين أسماء لا تجرؤ الأذن على نكران أصحابها، مهما كانت درجة الجهل، فنندهش، وعاد إلينا اليقين أن ذلك الشيء الذي يمر من فوقنا يحمل خيرا كثيرا، فهو ـ كما قيل ـ يحمل الخير لمصر، وبما أنه يحمل الخير للوطن كله، فكيف لا ينوب بيوتنا جانب، ونحن من نحيا تحته؟!

وانتشرت شائعات حول من سيمر من فوقه في لحظة استخدامه الأولى، وأن شيئا عظيما سيحدث في حياتنا. وانتظرنا ذلك اليوم، لا

Twitter: @ketab_n

نعرف كيف سنسعد، وليس لدينا أي تصورات أو احتمالات حول تلك السعادة التي ستأتي حين يُفتتح الكوبري، لكن الخيالات تداعب الجميع. البعض تصور أن من بعد ذلك الطريق ستصبح منطقتنا هذه من أهم المناطق، وسيتضاعف سعر المتر فيها، ويشتري الغرباء، إن كان مرور أي طريق جوار أي أرض يدخلها كردون المباني ويرفع سعرها، فما بالك بذلك المشروع العملاق الذي ينقل مصر للمستقبل، وتذاع التقارير عنه على خلفية موسيقية تشابه خلفية الضربة الجوية الموسيقية! البعض الآخر عاد له التصور القديم، وأنه سيتمكن من بيع كل شيء فوق ذلك الطريق، الذي تمر عليه السيارات مسافات طويلة، ويعاني ركابها من ظمأ وجوع، ومستعدين لدفع خمسة جنيهات مقابل شربة ماء. وآخرون ظنوا أنهم سيظهرون في التلفزيون، وغيرهم توقعوا توزيع الهدايا والجوائز كما في احتفالات الضربة الجوية، أو الصواريخ التي تضئ السماء والاحتفالات الصاخبة والسهر حتى الساعات الأولى من الصباح.. ولم يتخيل أحد أن ذلك اليوم سيمر كما اللاشيء، نحديدا! كأنه يوم حار عادي، فقط تجمع بضعة أفراد حول الطريق، وهم من السكان الأكثر سذاجة هنا، ومر شيء ما دون حتى ضجيج في عز الظهر واختفى، فانصرفوا دون أن يتخلوا عن ثقتهم في وعد النهضة.

لم يحبط أحد، فقد اعتدنا أن الحلم هو فقط للاستمتاع به في لحظتها، دون أدنى أمل للتحقق. فحلمنا كي نجد في الحياة ما يمتعنا دون تكاليف، وحين نضبت أفكارنا، أثرنا خيالنا بالحشيش، فأحببناه ولم ندمنه، تبادلنا الأحلام كي نجد لدى بعضنا بعضا أفكارا جديدة، استمعنا للقصص وتبادلنا الأخبار كي نجمع في عقولنا تفاصيل تمكنا من رسم أجزاء حلم جديد، نعرف أننا لن نحصل منه على أكثر مما حصل عليه الحالمون

Twitter: @ketab_n

بالطريق. لحظة عابرة، إحساس نصر، سعادة لحظية، ثم العودة لحياتنا.

* * *

عاد زوزا مره أخرى إلى المقهى، وعاد محمد للظهور، ولم تتوقف محاولاته الفاشلة في اصطياد النساء. عادل أصبح الرجل الأكثر حضورا في كل المناسبات وكل الأزمات، لكنه يبجل النجار ويرفع من شأنه أمام الجميع، ولا يجرؤ حتى على تسميته باسمه دون ألقاب أمام أي شخص، ويتسلل للبيوت التي يغيب رجالها، ليقتنص مداعبة أو يهدي شريط كاسيت به موسيقى غير مستساغه، موسيقى باردة بلا طعم نسمعها كل يوم وفي كل مناسبة، نسمعها مرة وللأبد لا يضاف إليها أداء أو كلمة أو تحية للحضور، لكنها تنجح مع النساء، تنجح وينجح أي شيء يقربنا من سكان الشوارع الواسعة والبنايات المرتفعة، سكان الأسفلت، الأتوبيس، المطاعم السريعة، والتليفون المحمول، لم يتغير شيء بعد افتتاح الطريق، فمازالت البهائم تمر إلينا وفوقها النساء ذوات السحن الجادة الهادئة، يرتدين السواد دائما، يحملون الخضرة والبرسيم وأجولة لم نعد نستطيع تمييز ما بداخلها، يسحبن في الصباح بهائمهن تجاه السوق، ويرحل الأطفال ـ بلونهم البني للإعدادي واللبني للإبتدائي ـ منهكين منذ اللحظة الأولى، يحملون حقائب ممزقة وزجاجات بلاستيكية في أكياس نايلون، يسخرون ممن يحمل كتبه مع زجاجته في نفس الكيس، ولم يشتر بعد حذاء غير الذي تطل علينا منه خمسة أصابع، يبدو كل شيء طبيعيا، فيتحرك الموظفون في القمصان والبنطلونات بعد ذلك الفوج من بهائم وتلاميذ، ويبدو أنهم الوحيدون الذين استفادوا من ذلك الطريق، فيتسلقون أحد حوائط قاعدته الهرمية ويصعدون أعلاه. سعيد الحظ منهم لا يضطر للعبور، ويركب شيئا في نفس اتجاه صعوده؛

Twitter: @ketab_n

لكنه في العودة يضطر للعبور، وبهذا يفقد الميزة الصباحية، يقف طويلا على الجانب الآخر يتحين اللحظة التي ينقض فيها على الطريق، يمر من أول سيارة، ويرسل عينه من فوق كتفه الأيسر، يشاهد اندفاع السيارات الجنوني، بينما ينطلق بأقصى سرعة، قاطعا المرحلة الأولى من مغامرته اليومية للمرور العرضي فوق الطريق، الذي لا يعترف بوجوده. حتى إن صدمته سيارة، تظهر التحقيقات ـ إن تمت ـ أنه هو من اخطأ.

بعد انتهاء أفواج الموظفين والمدرسين، يتثاءب طلاب الثانوي والجامعي في زيهم الحر، ويملؤون العالم ضجيجا، يطاردون بعضهم بعضا، ويطاردون أنثى أو كرة، يبحثون عن شيء يثير الحماس لديهم، فيندفعوا في فعله ويعودوا ليقيِّموا أداء بعضهم ويسخروا من أشكالهم وأقوالهم، يصل البعض إلى المدارس ويرحل سريعا، والبعض يستقر على المقاهي الأقرب للمدرسة، ويطارده مدرس مجنون يحمل عصا في الشارع، فيتلقى كلاهما ضربا يهين كرامته المبالغ في حجمها.. والبعض لا يخرج من حيز الغرفة الخلفية في مقهى "عم حمدي"، ويمدهم هو نفسه بالشاي والمعسل، بينما يلعبون الدومينو أو الكوتشينة، ولا يرحل أحدهم، بل يزداد العدد حتى يظهر زوزا ويعلن بذلك أذان المغرب، فيرحل الشباب مخليين أماكنهم لآبائهم، يتثاءب أصحاب الدكاكين وهم يرفعون الأبواب الحديدية من فوق تجاراتهم ويستعدون لاستقبال النساء قبل الظهر، ويتمنى كل منهم رؤية وجه معين أسكنه خياله وألهب به عواطفه وتمناه. يداعب الباعة السيدات اللاتي يذهبن لشراء احتياجات البيت كل نهار، ولا يغضب أحد، فالبائع يرضى بابتسامة ينالها عقب نكتة أو لفتة طيبة منه، وهي لا ترى في ذلك تجاوزا، بل ثناء على هيئتها دون تطاول. البنات الصغار يذهبن في الإعدادي والإبتدائي كما الذكور

Twitter: @ketab_n

بلا فروق، السيدات المتزوجات إما يذهبن للعمل بوجوههن المنزعجة وأعصابهن الفالتة، أو يتنطعن ـ وهن الأغلبية الكاسحة ـ في مداعبة البائعين، وتناقل الأخبار، وتبادل السباب والاتهامات مع الأخريات.

أما من ليس لهن مكان هنا، هن من لم يحددن بعد موقفهن إن كن أطفال أم زوجات، بعضهن تذهبن للجامعة أو العمل، وتناضل طوال طريق الذهاب السيارة الأجره سائقا وزبائن، العمل أو الجامعة، ثم العودة لتناضل من جديد في تجاوز الألفاظ النابية والأيادي التي تلاحقها، تدعي أن شيئا لا يحدث، تستأنف خطواتها السريعة الواثقة، فيأتيها اللفظ، ليس موجها لها، تدعي البلاهة، يُشهد أحدهم الآخر على بروز في جسدها المهتز، ليست هي أيضا، تطالها يد، ليست تقصد، تصل للبيت لتخلع ـ في ذلك الهواء المكتوم المعبأ برائحة الطبيخ ـ الحذاء، وتضيف لمسة أنثوية لخليط الروائح الراكد في البيت، تسألها أمها عن شيء ما، فتجيب بلا حماس، بينما تتخيل أن ما تفعله الآن ليس لشئ سوى أن تختلف عن تلك السيدة التعيسة التي أفنت حياتها في الطبخ والتنظيف. انتظرت أخريات تقدم العريس الأول أو اصطياده، كي يُعلن رسميا انتقالهن وبشكل نهائي من خانة الأطفال إلى السيدات المتزوجات من....

هنا سؤال جديد يداهم الخيال الطامح في التخلص من أسر الطفولة أو اضطهاد المراهقة، فبعد انقضاء العهد الذي يبدو فيه كل الرجال سواء، وظهور وجه مزعج في حياة الكثير من الأسر، وجه أن جاء لا يرحل، ويضيف على الحياة ألوانا من الشقاء والنكد، وجه الفقر، الفقر الذي كان حيا بين أهله لم يكن يزعجهم، واعتادوا على اقتسام الرغيف والخضوع للمرض والفرح الموسمي، ذلك الفقر يُظهر الآن مدى قبحه، بعد أن أصبح التخلص منه ممكنا، بعد أن كان عهدا على من يولد في بيت

Twitter: @ketab_n

قليل الأثاث كثيف السكان يذوق اللحم في الاحتفالات الكبرى، ويغير الجلباب في أحد العيدين، كان العهد على من يولد فقيرا لأب فقير، أن يموت فقيرا أبا لفقير؛ والحالات النادرة الشاذة التي تخلص فيها شخص من ذلك العهد الإلزامي هي قصص أسطورية وخيالات تزودنا بالأمل في أوقات الحسرة، حين نجلس على الأرض الطينية، نقتسم ملعقة السكر ونعيد استخدام تفل الشاي ـ نضيف ماء جديدا للبراد، ونعيد غليه مرارا، تتكاثف القصص الآن، ويثبت أنها لم تعد محض خرافة، الابن المتعلم الذي تخيلنا في مرحلة أنه المخرج أو الحل أثبت فشله، وفي حالات النجاح النادرة، نجح وحيدا في أرض بعيدة، محاولات التجارة في ذلك المكان وما حوله لم تأت بنتائج تذكر، فكل البائعين ـ عدا عم فرج رحمه الله ـ لا يمكنهم العيش في حال أفضل من حال الفلاح أو الموظف، والنقود القليلة التي تأتي من الخارج في أيدي بائعي الخضار أو الموظفين نتبادلها جميعا، وتستقر في النهاية عند أحد القلائل الذين يكنزون المال طوال حياتهم، وبعد وفاتهم يُقسم المال على الأحياء، فيبقوا في فقرهم. القصص التي تتحدث الآن عن النجار وأتباعه وأمثاله، تؤكد أنهم يمكنهم العيش كما يعيش كبار العائلات وملاك الأراضي، وربما يمكنهم العيش أفضل من ذلك، بحكم أنهم لا يتحملون عناء كبيرا في كسب رزقهم، إذ هم يبيعون المخدرات أو يجمعون الأموال ممن يطلبون الحماية والرعاية، هؤلاء الشباب الأكثر نشاطا وخطورة في الشارع، هم الأكثر شهرة وإلهاما، وكلما تردد اسم أحدهم ونسبت إليه أو عنه قصة، ازداد جمهوره من الفتيات المنتظرات في البيوت وصول أو اصطياد العريس الأول، كي يتخلصن رسميا من أسر المراهقة واضطهاد الفقر، وينتقلن إلى الأنوثة الكاملة والخطوات الواثقة والحياة المترفة. لكن تلك

Twitter: @ketab_n

الزيجات جاء الإحباط مرافقا لها، فحال الزوج الأرزقي تبين أنه لا يختلف كثيرا عن حال الأب، اللهم إلا لحظات من ترف تأتي بصورة عشوائية، لا يمكن تقنينها ولم يؤمن لهم الحياة سوى أن أغلب أولئك الأرزقية يملكون في أيديهم صنعة، فإن غاب عنهم أحمد مسعود وكل المخبرين، وغاب احتياج النجار لهم، عادوا ـ بدفع من الزوجة ـ إلى إصلاح مواسير أو كهرباء، أو خرجوا يبحثون عن ورشة أو دكان يمنحهم أي عمل، يرفعون دخولهم قليلا ببيع المخدرات في مكانهم الجديد، ويتعاطونها بنسب أكبر، فيذوب الدخل المضاف، ويذوب معه حلم الزوجات في أن يرسلن أولادهن إلى المدارس ومن بعدها الجامعات، فيرسلن الأولاد إلى الورش، الدكاكين، ومواقف الميكروباصات البعيدة.

الصنايعية بشكل عام يسكنون بيننا منذ أمد بعيد، وحالهم مثل أحوالنا، وأبناؤهم يرثون الصنعة كما يرث الـ"بيه" بهوية أبيه، ويرث الشحاذ سُحت أبيه، لكن الصنايعية الجدد لا يجيدون صنعاتهم، هم فقط تعلموها حين أرسلتهم عائلاتهم كي يساعدوا في المصاريف، وانصرف عنها الأطفال حين لمحوا عملا آخر أسهل أو دخله أكبر، تنقلوا بين أعمال كثيرة، وبقي أغلبهم تحت الكوبري فترة، لا يفعل شيئا، وكلما ضاق الحال عاد إلى الصنعة الأصلية. كان بينهم صبية للنجار وصبية لآخرين من مناطق أخرى، أصبحوا الآن أكثر خطورة وجرأة في استخدام السلاح من النجار وجيله.

المؤكد، أن في ذلك المكان، حيث نشأت عدة بيوت بين الطريق والشارع المفضي إلى السوق، لا يمكن لأحد تجاوز حدوده في مواجهة النجار، سيد خمرة، وعادل، فهم يثبتون بشكل شبه دائم قدرتهم على السيطرة وإيذاء الخصوم، كما أن ثلاثتهم، مضاف إليهم باسيم، يمثلون المصدر الرئيسي

Twitter: @ketab_n

لكل صنوف المخدرات في ذلك المكان، وبهذا يضمنون بقاءهم على قمة الهرم. لكن أسفل تلك القمة بقليل، يتناحر العديد والعديد من الرجال بشكل مستمر، لإثبات كونهم افضل، أو يثأرون لهزيمة سابقة، أو يبحثون عن عشرين جنيها مسروقة من رهان على كوتشينة، مزاحا ثقيلا، سجارة فِشل (طفش)، مغازلة حريم، وعشرات الأسباب تشعل الصراع فيما بينهم، فتتبدل التحالفات وتشوه الأسلحة البيضاء الوجوه. يظهر في كل شجار طرف منتصر يرتفع درجة، ثم يدخله آخر في معركة أخرى، فإما يعود لوضع سابق أو ينتصر مرة أخرى، ويصبح هو المرعب الجديد للمنطقة، فيتطاول على السكان. يشكوه أحدهم للنجار، الذي يتعمد إزعاجه، ويرسل له من يورطه في معارك دائمة ومستمرة، حتى ينال أحدهم منه ويعيده إلى حجمه الطبيعي، فيبقى النجار بشاربه العريض ولحيته النابتة و"ترينجه" الأزرق هو الأكثر احتراما، ويضيف له حجمه الضئيل وعلاقاته الطيبة هيبة. في نهار الثلاثاء، يشاهد الهاربون من المدارس المصارعة الحرة على المقاهي، فيعرفوا "ريى ميستريو ويختلفوا حول قدرته على هزيمة "بيج شو" ذي الحجم المهول، ويتشبث كل طرف برأيه، حتى يضرب أحدهم مثلا بضآلة النجار، فيحسم الأمر.

علي قاسم أنهى تعاسته وتزوج بأم ريهام، وانتقل إلى بيتها تاركا أولاده وزوجته في الغرفة التي بناها له والده فوق سطح البيت. لكنه ـ وللحق ـ ينفق عليهم قدر استطاعته، بينما تحتال زوجته الجديده على ابنتها كي تتمكن من الإنفاق على نفسها، بعد أن اكتفت بـ"علي" من الرجال. أخوه محمود لم يعد دخله كما سبق، وعاد للعهد الذي قطعه عليه أجداده، حين عاشوا فقراء، لكن زوجته ظلت تحافظ على نهجها في تجهيز بناتها، حتى إن اقتطعت من ميزانية الغذاء، لكن الأهم أن تحظى بناتها بجهاز يليق

Twitter: @ketab_n

بهن وبعرسانهن، حين يأتوا مهندسين وأطباء. حسن غارق مع زوجته في الحشيش والخمر، وبالكاد يفيق أحدهما حتى ينقض عليه الآخر، وتدخّل أكثر من مرة عمه "سيد مصيلحي ـ الذى بات يعرف بالحاج سيد ـ كي يحافظ على سمعة العائلة، ويمنع المهازل التي تفعلها الراقصة، ونجح بعد عناء في إقناع حسن أن يجبرها على التخلي عن الرقص. من بعدها تهدلت وترهلت، لكنها بقت مثيرة وملهمة، لحسن بسبب محافظتها على ابتذالها وتماديها فيه. الصنايعية الذين أقاموا في بيوت حديثة البناء حول الطريق الجديد لم يحصلوا على توصيلات ماء أو صرف أو كهرباء، فاستخدموا البيارات للصرف على أمل أن تصل إلى الترعة المغطاة، لكن ذلك لم يحدث وطفحت البيارات خلف البيوت من الجهتين. كانت المسافة بين الجهتين ضيقة للغاية، فأول من بنى في هذا المكان كان "النجار"، وكان يبنيه على امتداد الشارع القديم، بمحاذاة آخر البيوت، وكذلك فعل من بنى أمامه، فامتد الشارع القديم بنفس العرض حتى وصل إلى الطريق الدائرى، يفصل فقط بين أول البيوت وقاعدة الطريق الهرمية ممر ضيق لا يزيد عن متر، ممتلئ بالقمامة. تكفل الكهربائية بتوصيل الكهرباء للجميع، لكن الماء الذي نجح السباكين في توصيله للكل كان ضعيفا، ونشأت بسببه معارك عديدة، حتى إن النسوه تشاجرن على مواعيد الاستحمام، كي لا تستحم إحداهن فتقطع الماء عن طبيخ الأخرى أو غسيلها، واضطرت زوجة "عمرو سعد مدرس الرياضة أن تستيقظ في الخامسة صباحا إن أرادت الاغتسال أو الاستحمام قبل ذهابها للعمل. وكانت ـ رغم الثروة التي جمعها زوجها في الآونة الأخيرة بفضل الدروس، والتى ساعدته في جمعها بإعطاء دروس في أي شيء للفتيات اللاتي يتشدد أهلهن، متمسكة بوظيفتها كأمينة مكتبة في مدرسة حكومية، ليس في مكتبتها سوى مجلات

Twitter: @ketab_n

علمية مهترئة، وكتب دراسية قديمة، وقصة أو اثنتين يتشاجر عليهما ثلاثة أو أربع طلاب، في مدرسة يتجاوز عدد طلابها الألف رأس. تستيقظ في الخامسة تغتسل ـ إن وجدت ماء ـ وترتدي "التاير" البني الوحيد، وتضع "البونيه" فوق رأسها، وتخرج. تتجاوز بقعة النائم على مدخل البيت، ويده محتضنة عضوه داخل البنطلون، من تحت الجلباب المرفوع حتى صدره، تخرج للشارع قبل أن تشرق الشمس بكامل هيئتها، ترى مجموعة من الشباب يجرون أقدامهم محدثين صوت احتكاك بالأرض مزعج، وترى حسن عائدا مخمورا إلى بيته بصحبة زوجته، تسمع أمهات توقظن أطفالهن، رجالا يجرون أجسامهم ويتسلقون الحجارة كي يصلوا للطريق العلوي. بعد أيام قليلة من عودتها من الخليج اعتادت الأمر، وحفظت كل الوجوه التي تقابلها، بل تعرف أي الأطفال سيتم إيقاظه الآن، لذا لم يكن صعب عليها ـ رغم ابتعادها عن ثرثرة الحريم وعدم معرفتها بأسماء كل الجارات ـ أن تعرف أن ذلك الوجه ليس من هنا!

سيدة موفورة الصحة، شعرها الأصفر يُطل من تحت الحجاب المنزلق، وجسدها المرسوم متألق في عباءة ضيقة، والذهب يغطي ساعديها، رحلت "الأبلة" وعادت في العصر لتسمع الكل يتحدث عن عودة عبير، انطلقت مع وصولها الشائعات، وأحيا أحدهم ـ قد يكون والدها ـ شائعة أنها شؤم، والدليل أنها أرملة للمرة الثالثة، وعلى الجميع الابتعاد عنها.

بعض الوافدين للبيوت الجديدة، والذين جاؤوا من عمق السوق أو من قرى صغيرة مجاورة، لا يعرفون من تكون "عبير"، فتطاولوا عليها قولا، كما يتطاولون على كل النساء. ولقى كل منهم شبشبا على وجهه ورأسه، قبل أن يتدخل المارة لتخليصهم. عادل، الذي لم يبال بتحذيرات

Twitter: @ketab_n

زملائه، وظن لكونه قد وصل لغرف نوم زوجتين، وفي طريقه للوصول إلى ثلاثة على الأقل، قد دخل معهن بالفعل في مرحلة تبادل القبلات، منتظرا فقط فرصة غياب الأزواج، ظن أنه مختلف وقادر على إيقاع تلك الفرس الأرملة. استخدم حيله كثيرا ما نجحت، وجاء لها بشريط كاسيت "كوكتيل وبدأ في التحدث إليها، تلك الحيلة تعتمد على أن تشعر الأنثى أن هناك من يعاملها بلطف ويراعي أن تضحك، في عالم لا تعنيه سعادتها في شيء. لكنها ردت بصلف، فجذب يدها ووضع الشريط بها عنوة، فألقته في وجهه. وخرج رد فعله تلقائيا، وصفعها على وجهها، فردت الصفعة واشتبكا بالأيدي، وتدخل المشاهدون، لكنها لم تهدأ، وواصلت سبابه والبصق عليه، بينما هو يحاول الإفلات ممن يمسكونه، واختفى بعد ذلك الشجار ساعتين، ليعود مع رفيقين إلى بيتها. أحدث ضجة، وأعلن على الجميع إما أن ينزل له الرجال فيعلمهم كيف يحكمون حريمهم، أو تنزل الحريم لينكحها أمام الجميع. مر زمن دون أن ينفذوا أحد الخيارين، فرد أنه سوف يشعل النار في البيت بمن فيه، لكن السكان الآخرين تدخلوا كي يهدأوه، فاشتبك معهم في معركة طويلة انتهت بهزيمة السكان، واقتحم عادل ورفاقه البيت في نشوة النصر لكن السكان تجمعوا، وجاءهم مدد من البيوت المجاورة، فحبسوا عادل ورفاقه على السلم، وأغلقوا عليهم المصيدة. حين قفز بعض الشباب عبر الأسطح المجاورة إلى سطح البيت، وألقوا عليهم الحجارة، قرر عادل أن يبدأ في اقتحام "الشقق"، بحثا عن "عبير . لكن في محاولته الأولى، اجتمع الأطفال والنساء والعجائز والأثاث القليل بالداخل، وصنعوا متراسا يصد الهجوم، فأضطر عادل ورفاقه المحاصرون إلى النزول عبر السلم ركضا، بينما يلوحون بأسلحتهم في كل اتجاه، حتى وصلوا إلى المدخل. تم

Twitter: @ketab_n

إيقافهم بالحجارة، واستمرت المعركة وقتا طويل، وسالت الدماء بغزارة. صرخت النساء بينما السكان المحبوسين مرعوبين من أن يحاول عادل مرة أخرى اقتحام أي من البيوت، فبقوا المدة كلها مع أطفالهم وأثاثهم خلف الباب يصرخون. نجح في النهاية عادل في شق طريق للهرب دون أن يصاب بشيء، معه رجاله مصابون إصابات عديدة، تاركين خلفهم ما لا يقل عن خمس عاهات مستديمة.

ذلك الشجار في الغالب تكون له توابع، لكن عبير قطعت الطريق وذهبت للنجار، ومنحته "خاتم ذهب"، بعد أن وصل لعلمها أنه سيجبرها هي وأهلها على الرحيل من المنطقة، وذلك مؤكد لأن "عادل خمرة" من أقرب أصدقائه، وهكذا تحول موقف النجار إلى مدافع عنها، ووقف في وجه كل من حاول إيذاءها واستمتعت بكامل حريتها، ومر ذلك الشجار على كل من أصيب بجرح أو عاهة لن تشفى كأن شيئا لم يكن.

الوحيد الذي يستفيد دائما وأبدا هو أحمد النجار، لكن الخاتم الذي حصل عليه وأهداه لأم رجب ـ زوجته ـ لم يرضها، فهي منذ عرفت أنه موزع مخدرات، عكرت حياته وتسببت له في الكثير من الإزعاج بصمتها الدائم وعلامات النكد، وكلما حاول هو أن يستنطقها أو يلاطفها لا ينجح سوى في جعلها تبكي، يزيد الغم فينفعل لأنها تُصر على إزعاجه حتى عندما يحاول أن يرضيها، كثيرا ما انفلتت اعصابه وامتدت يده على وجهها أو ناولها قدما بغلٍ، لذلك حين رأى الخاتم فكر أنه بذلك يرضيها، لكنه لم يجد رد الفعل المتوقع من هدية ذهب، فرحل إلى مجلس أصدقائه وسمع كلمات مواربة حول بيعه لصديقه من أجل "مرة"، فانفعل ورفع السلاح في وجه أصدقائه، ولولا تجمعهم بعدد كبير لورط نفسه في أزمة

Twitter: @ketab_n

تقضي على هيبته وسلطانه، وأفتى له محمود قاسم أن ذلك الخاتم شؤم كمن أهدته إياه، فعاد وانتزعه من يد أم رجب وباعه واشترى لحما ـ ولم يكن قد دخل بيتهم منذ العيد الكبير (الأضحى) ـ واشترى له ولرجب ترينجين متطابقين، وقدم له في اليوم التالي في المدرسة، لكنهم لم يقبلوا الطفل بحجة أن الدراسه قد بدأت، فثار لكنه قاوم الغضب، وعاد إلى الشارع يتأمل خطوات عبير وهي تذهب وتعود تبحث عن دكان لتفتتح مشروعًا.

مشروع! تلك هي الكلمة التي تطارد خيال الجميع وتقيده. فإن سألت الطالب، الصنايعي، أو الفلاح، الكل يحلم بمشروع يدخله عالم الأثرياء عن طريق جمع المال من كل من في القرية وما حولها، لكن الكثيرين أدركوا أثناء تأملهم للمشهد في الصباح، حين تمر نسمة هواء باردة ويصعد إلى السماء قرص شمس يماثل في اللون، الشكل، والطعم، البيض غير مكتمل السلق، وتدخل كل الكائنات في ثبات مؤقت، تخرج بعده مجموعات العبيد يرتدون أحذية سوداء كالحة، وملابس يتسرب من ثقوبها السقيع، يتسلقون وهم نصف نيام الحجارة، التي ترفعهم إلى طريق يراهنوا كل يوم فوقه على حياتهم، حين يركضون جماعات بثقل أجسادهم وتيبس مفاصل أحواضهم أمام المركبات المعدنية القاتلة، ذلك المشهد من يراه من فوق الطريق الدائري، بعد أن يدخن آخر جوان، يعرف جيدا أن الـ"مشروع" العبقري الذي اهتدى عقله إليه لن ينجح، إلا إذا خرج من تلك البقعة التي لا يوجد بها سوى الفقر، وأكثر طموح أهلها في الحياة هو الكفاف، إذا استثنينا أسرة أو اثنتين يتمتع بينهم فردان أو ثلاثة بقدر من الرفاهية، ممثلا في أكل الزفر يوميا والفواكة الموسمية. أما البقية، فيبحثون عن شق يسكنونه بعد أن تضاعف عددهم، وينتظرون وصول

Twitter: @ketab_n

الماء ليغسلوا ملابسهم القليلة، التي يجب أن تجف سريعا كي يتمكن صاحبها من الذهاب للعمل في اليوم التالي، وكثيرا ما يرتديها مبللة بفعل الرطوبة في الجو، ودائما ما يحدث ذلك في الشتاء. أزمة الغسيل تلك مؤرقة لكل السكان، فالبعض يظل يرتدي أحدث ملابسه دون أن تحتاج لغسيل لمدة عام، لكنه قد يصادف عيدا أو موسما ويريد أن يتألق، فيخلع ملابسه وينتظر، لذلك لا توجد فرصه لتأجيل الغسيل، وقد اعتاد السكان أن يجدوا بدائل للماء في كل شيء، من تغوط إلى طبيخ، إلا أزمة الغسيل تلك التي أثارت المعارك بين النسوان، تطورت إلى حمل الأسلحة البيضاء وإحراق النوافذ والشرفات. لكن، وفي كل مرة، ينتهي الأمر دون عواقب وخيمة، ولا يبقى منه سوى بعض الإصابات والعلامات في الأجساد، غير أن تلكن النسوة الحفاة ذوي الكعوب السوداء الغليظة والأطفال العراة لسن بيئة لنجاح أي مشروع، فارحل!

ارحل مع الراحلين، ابحث عن عمل أو ارحل لعمل وجدته في الورش والدكاكين، أو اخدم الموظفين والعمال وأعد الشاي، أو املأ الأرغفة الفينو بالجبن فوق عجلتك أمام المصالح الحكومية.. دع زوجتك تخدم في البيوت، وارحل كما رحلت فاطمة ـ الصغيرة ـ وزوجها للعمل كخفراء ـ بوابين ـ في عمارة سكانها أيضا يبحثون عن مهرب في "مشروع" ارحل، فلم يعد ثمة شيء واحد يستحق البقاء، عالم يتعفن، عن يمينه ويساره برك ومستنقعات المجاري، تعوم فيها أكوام القمامة، ويلعب الأطفال بحفر أنفاق وبناء سدود للتحكم في سريان مائها ذئ الرائحة المنعشة لكل الأحاسيس البغيضة، عالم ينمو باطراد تحت طريق لا يتوقف فيه المرور لحظة، ولا يهدأ.. طريق يمر فوق حياتنا، فتشعر حين تستيقظ أنك هنا في القاع، عصابة من العاطلين عن العمل تدير كل

Twitter: @ketab_n

تفاصيل حياتنا، فقط لأنهم يحملون السلاح بدعوى أنهم منا ولا يبغون سوى حمايتنا من قوى الشر التي تترصدنا. حين ترفع صوتك في وجه أحدهم، سيرفع في مقابل الصوت السلاح، وسيتحتم عليه أن يلوثه بدمك كي لا يفقد رفع السلاح هيبته، فاهرب من أمامه واهرب للأبد. لذلك، حين تسمع الصوت الهادر الملح "ارحل"، تدرك أنك أنت من يجب أن يرحل!

لكن الحقيقة أن العالم بالخارج أكثر قسوة. أنت لديهم من جاء يبحث عن مخرج، فألقي به في السجن، حين خرج منه عاد إلينا مخبولا، يهذي أمام بيت آل سعد.

وأنتِ من تزوجت التاجر السعيد، وتحملت رائحة عرقه ومتعته المنتقصة بحثا عن ثروة أخذها آخرون، فسرقت ما استطعت وبحثت عن مكان آخر للرحيل، فعدتِ.

أنت من تحمل مشاق السفر والقيظ والغباء، ليعلم أولاد الرعاة في مقابل حفنة من المال ولو صحبها أذى، أنفق الحفنة ولم يبق سوى الأذى، فعاد.

هنا من سافر ليجاهد في سبيل الله، ونجا بحياته في الجبال وبين طلقات البنادق ونيران المدافع، ونجا في طريق العودة إلى بيته القديم من كل الأكمنة، عاد ليرتاح ويعيش بقروش يكسبها من تشحيم الأبواب الجرارة في السوق، لم يطلب سوى أن ينام ويصلي فروضه الخمس فشقت رأسه رصاصة دون سبب، ولم يجد أحد جثته.

هنا أنت لا تملك شيئا، وإن رحلت لن تجني شيئا، وستعود ـ كما عاد الجميع ـ تتذكر أيامك وتتحسر على عمر تسرب في وهم، وتُعِد ابنا

Twitter: @ketab_n

ليكون أفضل، فيدخن المخدرات في الحادية عشر من عمره، ولا يتعلم صنعة، ولا يجني شيئا من ذهابه للمدرسة سوى اضطراره لحمل السلاح الأبيض أو الشفرة، ليحمي نفسه ويتفاخر بقدرته على إيذاء الآخرين، فيرحل كي يستخدم تلك القدرة في جني المال من أولئك المترفين، فيعلق من قدمه إلى السقف في سراديب جهنمية من يدخلها مرة يعتاد دخولها، ويرتضي التعامل مع الملاك من البهوات ذوي السحن الناعمة اللزجة والبنطلونات الضيقة يتدلى منها السلاح الناري، ستعمل لديهم إن أردت الخروج، وسيجبرونك على العودة كي تدفع آخرين للتورط والرحيل، ثم تبلغ عنهم فيدخلون السرداب، ويعودون ليرشدوا عليك وترشد عليهم، حتى يأتيكم الأمر يوما فتذهبوا في مهمة لفض تجمع "فرافير" أو فرض السلطة على بقعة تمردت، وحين تفعل ما تؤمر به، يأخذونك مرة أخرى للسرداب، ومنه تُرحل للسجن، لتعود مريضا مخبولا تهذي أمام أي بيت من تلك البيوت التي تنشأ في الشقوق التي بين البيوت، وحين انهار أحدها جر معه آخر وأسقط نصف الثالث، ويبحث "الجدعان" عنك بين الركام المكدس، وتخرج جثة أو بقايا إنسان.

أيام قضيناها في البحث عن حي، وكلما وصلنا إلى جثة، تعشمنا في إيجاد أخرى، حتى انتهينا من دفن الموتى، وبناء البيت من جديد، وأقمنا عرسا جديدا، فرقصنا وشربنا واحتفلنا حول صَوانٍ ملأى بالجوافة والبلح والبرتقال، وضحكنا بعد نكتة باهتة، وتمايلنا بافتعال مع صوت حسن المهترئ وأدائه المستهلك، وعدنا آخر الليل نتشاجر مع زوجاتنا وأطفالنا لأي سبب كان، وتدعو الزوجات الله أن يريحها من تلك الحياة التعسة، فتدفعنا للرحيل، وكأن العالم بالخارج ينتظر وصولنا كي يمنح! والحقيقة أنه ينتظر وصولنا ليستهلكنا، كما يستهلك كل شيء من الطعام

Twitter: @ketab_n

المعلب إلى المرحاض، دورة واحدة تمر فيها من الرف، ثم تلتقطك اليد العابرة، وتكمل الدورة في أمعائها حتى تعود للصرف، الذي يغطى أغلب المساحات خلف البيوت، والذي يصنع فيه الأطفال أسوارا وأنفاقا باستخدام ركام البيت المنهار.

ليس هناك حل سوى مشروع ينجح، ولا يهم في أي مكان، المهم فقط أن تصل أو يصل أحدنا إلى مرحلة الرفاهية الممثلة في أكل وجبتين، وشرب ماء نظيف، وغسل الملابس كلما أردت، والتحمم في أي وقت.. إرسال أبنائك للمدارس والعودة دون علامات، كي يصبحوا بشرا أفضل، ومن يدري، فقد يصبحون سادة يناطحون أصحاب السراديب، أسياد البدل السوداء في الشتاء.

Twitter: @ketab_n

٤

حين اجتاحت شارعنا، والقرية، وبعض الأماكن المحيطة مركبات الأمن المركزي وسيارات الحكومة، تقنص كل من يرتدي جلبابا قصيرا أو يطلق لحيته، كان الجميع مختبئا، فلم ير أحد سوى لحظات وصول ذوي الأفرول الأسود، وأصوات الصراخ والانفجارات المتتالية.. ثم بعد أن ساد الهدوء رأينا جميعا أن أصحاب الجلاليب البيضاء اختفوا تماما لكن لم نر جثثا، ولم نسمع نواحا يتدفق يليق بالعدد الذي اختفى، لم نسمع سوى همهمات متفرقة متقطعة تليق بذكرى سنوية، أو بالذكرى الأربعينية لجد، عشرات الرجال والشباب اختفوا في تلك الليلة الرهيبة، كما اختفت سيدة من جهة السوق، لا يعلم أحد إن كانت قد هربت في الفوضى أم أن الفوضى طالتها، أم أن الفوضى لم تحدث أصلا!

الحق يقال، إن الأمر لشدة غرابته بدأ يختلط في عقول من مروا بتلك اللحظة، فكيف لا يختلط في عقول من عرفوا الوعي من بعدها؟ أساطير ومبالغات، ويُجزم البعض بعدم حدوثه من الأساس. والقصص التي تنقل هنا ليس لها شعبية إن بدا فيها الكذب جليا، وآذان المتلقين تلتقط

Twitter: @ketab_n

الكذب كما يلتقط ملقاط فريدة الشعرة البيضاء من الحاجب، فتبدو فيها كل صفات الشباب، لكن العين لا تخطئ كونها عجوز. كذلك القصة التي تتهم بالكذب، لا تسقط عنها تلك التهمة حتى وإن حذفت الجزء الفج بشأن مجئ الحكومة إلينا بوجه الخصوص.

لذلك، كان ظهور الشيخ صبري من جديد، وجهه تملؤه الابتسامة الودودة، عِجله يُنحر كل عيد، ولا يعادي أحدًا، جاءه أتباعا جدد، يُقصرون جلبابا جديدا، لكنهم يحاولون التبسم والتعامل بلطف، ولم يشكلوا أي خطر، بل كانوا بين السكان هم الأكثر وداعة وهدوءً، بعد أن أصبح كل الذكور يحملون ويجيدون استعمال السلاح في كل شيء، بدءً من الرقص في الاحتفالات، إلى تثبيت الغرباء، وتشويه الأعداء، ومن لا يحمل سلاحا إما فلاح جاء لشراء أشيائه ورحل سريعا، أو طالب ينتهي من دراسته ويرحل، أو شخص وجهه يكفي ليرهب خصومه وإن خف جسمه، يكفي اسمه: أحمد النجار، ظهوره ينهي أي أزمة، مؤقتا.

فحين ترى حلقة من شباب حول بيت أو شيء، أو ترى مجموعة من الشباب تركض رافعين أسلحتهم، تدرك أن تلك الليلة طويلة، يركضون في جماعات، يقابلون مقاومة من جماعات أخرى، زجاجات تلقى في الهواء ونبابيت مرفوعة، سيوف كذلك تعكس ضوءً فضيًا حادًا، سماء تمطر حجارة ونساء تصرخن، ينقبض قلبك وتتمنى ألا يطول الأمر أكثر من ذلك، ففي لحظات الفوران تلك، الكل معرض للخطر، فالعلاقات والصداقات والأخوه لا تصمد، ويبقى فقط في أي جانب تقف وتتمنى أن تنتصر تمر مجموعه أخرى، وأخرى، وفي كل ليلة تقريبا يتطور شجار بسيط ليصبح معركة، تستغرق دقائق وتنتهي، لكن تلك التي تتطور إلى

Twitter: @ketab_n

الركض ورفع السلاح وصراخ نسوة لا تنتهي تلقائيا، وتتطلب تدخلًا من كبار لعقد جلسة صلح.

وأحمد النجار لا يتدخل في جلسات الصلح، ولا يتدخل في الشجار، لكن بطانته وصبيته الذين أصبحوا رجالا سائقين ميكروباصات، فرارجية في السوق، نقاشين على باب الله، صبيان في مقاهٍ بعيدة، وعاطلين تماما عن العمل، أولئك لا يغيبون عن الأطراف الفاعلة، ودائما هناك أحدهم يمثل طرف النزاع الأكثر تطرفا، ودائما ما اشتركوا في افتعال المشاكل وإيذاء خلق الله، وكان الوحيد القادر على السيطرة على شجار أو نزاع يكونون فيه هم الطرفين، أي اقتتال داخلي، بطبيعة الحال هو أحمد النجار.

يظهر في الخلف، يصحبه عادل أو "زرجينه"، أو يسحب رجب ابنه في يده، يظهر من بعيد بجسده الهزيل وقميصه الملون وبنطلون الترينج، شعره مصفف بعناية من الأعلى والجانبين وطوله طبيعي، أما من الخلف فتتدلى خصلات شعره الطويلة مبتلة، تلمع بفعل المادة اللزجة، وتغطي ياقة القميص وقد تصل إلى ظهره، فقط خصلات شعره الخلفية هي التي تطول إلى ذلك الحد، وقد بدأ تلك "الفورمة" قبل "خالد ديدي" بزمن، شاربه يشكل نصف دائرة منسقة ومهندمة حول فمه، ويبدو كأنه استغرق وقتا طويلا قبل أن يصبح جاهزا للخروج، وفي أثناء ذلك يكون رجاله يتقاتلون أو يطاردون بعضهم بعضا. يظهر، فيفسح له الجمع مجالا يحيِّد كل المشتركين في المعركة إلا واحد أو اثنين هم أصحاب القضية في الأساس، هو يعلم جيدا أن لا سلطة له على أي منهم وإن كل ذلك الاحترام ما هو إلا تملق كي يصلوا من خلاله إلى المخدر ليبيعوه، وهو دونا عن باقي التجار لا يكسب كثيرا، ويعطيهم سعرا زهيد، والميزة التي

Twitter: @ketab_n

لديه هي أنه يتعامل منذ زمن بعيد مع تاجر بمعنى الكلمة، يعمل مباشرة مع "المكتب"، والمكتب هو الهيئة الحكومية المسؤولة عن بيع المخدرات وجني أرباحها، والقبض على بائعيها ومروجيها.

لذلك كانوا جميعا يبتغون رضاه، أما خشيتهم منه فهي غير حقيقية ومفتعلة، لأنهم جميعا يتصورون أن لا أحد يقدر عليهم. وبينما تدور تلك الأفكار في رأسه، يتطاول أحدهم عليه، فيدرك أن تلك اللحظة بالنسبه لوجوده هي النهاية، فقد يجتمعون ضده وهم لا يعرفون وفاءً أو احتراما، وسيقضون عليه في دقائق، وقد يعلقوه عاريا ـ كما فعلوا مع ذلك الذي حاول أن يحتال على أحدهم في ثمن ربع قرش ـ بعدها ستهجره زوجته، التي بدأت تعتاد حياته واحترمته فقط لأن كل أولئك يحترمونه ويرفعون من شأنه، ويتحول ابنه بعدها إلى شاب ضعيف هزيل، لا يملك شيئا، وقد ينتهي به الحال مخبولا كما بقعة، الذي أطلق لحيته وأصبح كما المجاذيب. تلك اللحظة التي يهرب من خياله الشجار، وينحرف إلى تأمل شخصيات أو أشياء أخرى، هي اللحظة نفسها التي تنجح فيها محاولات إخراجه من نوبة الغضب التي اجتاحته دون أن يدري، وبينما كان يسبح في تلك الأفكار، كانت يداه تعاقب ذلك الذي تجرأ وتطاول عليه.

ظهور النجار اعتيادي في المنطقة وما حولها، إلا أنه يحافظ على ظهور خاص في أيام الأزمات الكبرى والمعارك الطويلة. الأزمة الوحيدة التي اختفى فيها عن عمد، وجرى البحث عنه ولم يعثر له شخص على أثر لمدة أسبوع، هي حادثة انهيار البيت، ذلك البيت كان يملكه موظف باع بيت عائلته في قرية قريبة، بعد أن ارتفعت الأسعار، وأراد أن يسكن في مكان قريب ويحافظ على مبلغ يُجهز به ابنته، التي قاربت سن الزواج.

Twitter: @ketab_n

جاء إلى هنا، وكلما سأل كان يصل إلى اسمين هما القادران على مساعدته. أحمد إبراهيم أبو سعد، وأحمد النجار، فذهب لأحمد إبراهيم، وجده على المقهى يدخن المعسل ويسعل بوحشية، ويسب الدين لـزوزا لياناوله كوب ماء، ثم يسب الدين لشريكه في اللعب، الذي كشف عن ورقه بينما كان مشغول في الرد على وقاحة زوزا، فتنتابه نوبة سعال جديدة أكثر وحشية، ويتنهد ويهدأ. يمسح الدمع السائل من عينيه بطرف جلبابه، يدس اللاي من جديد في فمه، وتقرقر الشيشة، يزفر الدخان، يلقي كارت، يسحب نفس، ثم نوبة سعال ويسب الدين لـزوزا كي يغير الحجر، ثم يسب له الدين لأنه نسي التخشينة. جلس الرجل جواره ما يزيد عن ساعتين، لم يتمكن خلالهما من قول ما يزيد عن أنه يريد الانتقال للسكن هنا "واولاد الحلال دلوني عليك"، كلمات متناثرة بعد ذلك لم تشكل لدى الرجل أي معنى، أما أحمد إبراهيم، الذي كان يدرك ما يريده ذلك الجالس جواره في بنطلون رمادي خفيف منزلق إلى ما تحت الكرش، والحزام مقلوب، قميصه أصفر باهت يحاول جاهدا أن يبقى داخل البنطلون ولا ينفلت، على رأسه شعيرات بيضاء من كل جانب، ومساحه لامعة في المنتصف، لحيته نابتة بلون فضي.. هو ذلك النموذج التعس للموظف الذي يحصل آخر كل شهر على مبلغ ثابت، ولا يحتاج سوى الاستيقاظ مبكرا والجلوس على مكتب، ويتذلل له الناس جميعا كي يرضى عليهم ويمرر الورق، هو بذاته النموذج الذي يثير لدى أحمد إبراهيم شعورا بكونه ضئيل وبلا قيمة، لذلك تعمد ألا يعطيه إجابة شافية حول أي شيء، واستمتع أن يطيل عليه الوقت جالسا في انتظاره يشرب حِلبة.

خرج الرجل، وقرر أن يبحث عن الاسم الثاني، وهو أحمد النجار، فاستوقف صبيا ليسأله، فدله الصبي على "عادل"، الذي كان يمر

Twitter: @ketab_n

مصادفة. سمع عادل القصة، وطلب من الرجل أن يأتي في اليوم التالي ليتفقوا.. في تلك الليلة، وتحت الكوبري، بعد أن أعاد النجار زوجته وابنه من فسحتهم الليلية، أشعلوا نارا ليستدفئوا من البرد القارس الذي بدأ تلك اللحظة تحديدا، ودون أي مقدمات، وكأن الشتاء ولد يومها. عادل وزرجينه يقنعان النجار بأن يبنوا هم البيت، ويدللون على قدرتهم على فعل ذلك بقصص وهمية، بينما النجار يبحث في خياله عن طريقه أسهل وهي الدفع لـ"أحمد إبراهيم" ليبني هو البيت، ويأخذوا من الرجل فيما بعد الضعف أو أكثر؛ لكن في كل الأحوال ثلاثتهم متفقون على أن البيت سيبنى فوق قطعة الأرض التي بين بيت "آل مصطفى البقال وبيت زرجينه وأمه. اشترك الكل في بناء البيت، طوبا أحمر، خرسانة، خشب، وصفيح، وأخطاء جسيمة في البناء، رغم مشورة أحمد إبراهيم، الذي يُعرِّف نفسه بأنه مهندس مقاول وسمسار. اكتمل البناء، وأخذ كل من اشترك نصيبه، وتكفل زرجينة بإقناع والدته بأن ذلك الحائط المشترك لا يضير أحد، وأنفق الجميع النقود، وانتقل الرجل بستة أبناء وأم وزوجة وأخت إلى هنا.

سكنوا بيننا لفترة، يلعب أبناؤهم في نفس الوحل، واشترت إناثهم من نفس السوق، وكانوا يقضون الليل في مشاهدة التلفزيون بعدما ينام الأب، فيشاهدوا فيلم قديم تذيعه القناة الثانية بعد "أحداث أربع وعشرون ساعة" بينما الهدوء يخيم على الشارع، وينصرف الشباب إلى طرقهم البعيدة ليتصيدوا المارة، ويذهب آخرون لبيع المخدرات لدى القوم الأكثر قدرة على الدفع، والبقية من الشباب والرجال، إما ناموا ليستعدوا لعمل أو تعليم، أو استيقظوا للتو ويشعلون نارًا تحت الكوبري، فتبدو المنطقة غارقة في الهدوء، ساكنة إلا من صوت تلفزيون

Twitter: @ketab_n

هنا أو هناك، وضحكة بين الحين والآخر، وشاب يتسلل من أو إلى غرفة عشيقته. حينها، دوى صوت رهيب وصراخ، التفت الجميع إلى الصوت، وادعى النيام أنهم لم يسمعوا شيئا، فعاد الصوت وكان أكثر وضوحا وشدة، وزادت الصرخات وظلت تزداد، نسوة تركضن، تراب يملأ الجو، وصراخ، رجال ينادون، طلبات من كل مكان، دماء، سباب، شجار ينشأ بين أحمد إبراهيم ووالدة زرجينة، التي تمسك بالجلباب، وصراخ، أصوات حادة تخرج من الحناجر، ودماء تنتشر، استيقظ الكل، وجاء الكل، تركوا النار مشتعلة وركضوا تجاه الكارثة، الآن لم يعد سوى بقايا جدار في الخلف، وبناء كان طابقين صار ركام، وزرجينة يبكي أمام الفوضى، حائط منهار في بيت آل مصطفى، نصف بيت زرجينة على الأرض، وبيت الموظف اختفى.

جاء آل الضحايا في اليوم التالي، ولا أحد يدري كيف وصل إليهم الخبر، حضر كل من في المنطقة تلك الجنازة الكئيبة، الصامتة، حيث لم يبك أحد، ولم يجد أحد رجلا ليواسيه، أو امرأة ليمنعها من الصراخ بحجة أنه يُعذب الميت. كان الناجون ثلاثة، طفلان تسللا للطابق الأعلى الذي كان مخصصا لاستقبال زوجة الابن الأكبر، وذلك الابن الأكبر الذي لم يكن في البيت هو الناجي الثالث.

قام زرجينة وإخوته وبعض من أصدقائه بترميم البيت، واستخدموا كل ما ينفع أو لا ينفع في خليط الركام، وأكملوه بالصفيح والخشب، لكن ذلك لم يعفه من تأنيب أمه المستمر.

منذ وفاة والده، وتخلص الشاب من "العِدة" التي جمعها والده على مدار ثلاثين عاما، لم يكن الشاب مقتنعا بأن يقضي عمره في إصلاح

Twitter: @ketab_n

إطارات السيارات، ويكون أقصى طموحه أن يستقل بورشة بدلا من أن يتنقل في محطات الوقود، وتأتيه أيام طويلة لا يطلب أحد منه إصلاح شيء، أو حتى ضبط هواء، فيضطر إلى أن يخرج ويُلمع السيارات التي يتم تعبئتها بالوقود. وفي أثناء ذلك، كان ـ الأب ـ يجمع عدة، وشيئا فشئا أصبحت لديه تلك العدة، وشارك صديقا له في ورشة، وكان يصحب معه أكبر أبنائه ليتندر هو وأصدقاؤه بطريقة لفظه للحروف، وكان الرجال يلحون عليه أن يقول "زرجينة" فينطقها "سرتينه" وينفجرون في الضحك، رغم أنهم سمعوها مئات المرات، وكان المتوقع وفقا لطريقة اختلاق الأسماء الحركية أن يصبح "سرتينه"، لكن الاسم كان به قدر من الاستهزاء، وليس للفتى من يكرهه ويستخدم الاسم ضده، فصار زرجينة. يريد أن يجمع قدرا من المال يمكنه من شراء "موتوسيكل"، وأن يتزوج من فتاته، التي أرادت لنفسها بيتا به أثاث، وغسالة توماتيك ـ حيث لا ترضى أن تفسد بياض بشرة يدها ـ وأرادت أن يدخل أبناؤها المدارس، فدخل زرجينة ضمن فريق النجار لبيع المخدرات، وكان أحد القلائل الذين يبيعون كل ما معهم خارج المنطقة بحكم معارفه الكثيرين من الغرباء، وتمكن من جمع مبلغ جيد، وكان يستعد للزواج، وحتى بعد أن أنفقه كله في ترميم البيت، لم ترض أمه، وبقت تؤنبه كلما رأته.

رحل الناجون الثلاثة مع أعمامهم دون ضجيج، ولم يعد للأزمة أثر سوى الحطام الذي ظل يملأ المكان فترة، لكن المارة اعتادوا كلما قابلوا حجرا أن يلقوا به إلى الخلف، حيث البيارات الطافحة، وبهذا لم يبق سوى الحطام الكبير الحجم القائم مقام البيت. أصبح ذلك المكان يسمى بالخرابة، ويستخدم من قبل الأطفال والمراهقين في فعل كل ما هو غير مسموح، بدءًا من الاستنماء والتدخين إلى شرب المخدرات وركوب

Twitter: @ketab_n

بعضهم، ويظهر منذ تلك المرحلة العمرية من الذي يسيطر على الأمر، من سيصبح سيد هذا العالم، هو دائما الطفل الأكثر اعتداءً على الآخرين، هو الذي يمل أقرانه من إيذائه لهم فيتجنبوه، ويجد بعدها وسيلة لإيذائهم فيضرب أخوتهم الأصغر، يتحرش بأمهاتهم في زحمة السوق، أو يبصق في طعامهم إن خرجوا به من البيوت كي يثيروا غيرة الآخرين. هنا، يضطر الأطفال لإعادة العلاقات معه، وفي ذلك السن تبدو تلك الأزمة مرهقة ومهلكة، فيلجأ بعضهم إلى الخنوع ويصبحون ذراعه الأيمن أو الأيسر أو ينضمون لجوقته، ويقاوم آخرون.

في تلك اللحظة التي يختارون فيها المقاومة، يكون عليهم اتباع منهج المقاومة للأبد. يلفظهم الشارع فيضطروا للتعلم، وتنقلهم مرحلة إلى مرحلة، بينما يشاهدون صعود الآخرين وامتلاكهم للمال، وتعرفهم بالبنات ـ بعد أن تخلين عن السير متسخات في ملابسهن الداخليو ووصلن إلى التأنق وإبراز مفاتنهن الناشئة ـ لكن اللحظة الأسوأ تأتي حين يرى أولئك المجاهدون في سبيل التعليم أنهم لم يفلحوا حتى في ذلك الطريق التعس، وأنهم بسبب فشلهم يتلقون "عُلق وازدراء في بيوتهم والمدارس، بينما يدافع الأطفال الآخرين عن أنفسهم بأيديهم في مواجهة الأهل والشباب الأكبر الراغبين في سرقتهم أو استخدامهم في الوصول إلى الإناث من إخوتهم، أو استخدامهم هم شخصيا في اللواط، وتلك الخرابة هي المكان الذي يبيت فيه من ترك بيته مكرها أو طواعية، ويتغوط فيه المارة، ويخبئ فيه المراهقون مخدراتهم، والسلاح.

سرعان ما يتقلب ذلك المكان، ولا أحد يدرك لم تحدث هنا تلك الأشياء. فبعد أن استقر حسن مع زوجته وتركت الرقص، وتوقف هو عن إمتاع أي من المستمعين، لكنه استمر في الغناء دون أي استمتاع من

Twitter: @ketab_n

جانبه، تركته ورحلت إلى عشة زرجينة. أسبوع كامل يبحث عنها ولا يدري أنها أمامه.

بدأت مشكلتها هنا منذ أتت، تصحبها سمعتها كراقصة، غير أن "سيد خمرة" و"باسيم يعرفون أنها ليست مجرد راقصة، فهي تدمن إثارة صنف الرجال، سواء رقصا أو قولا أو كشفا عما لا يتوقع أحد أن يكون مكشوفا. وحين كانت تعمل مساعدة لراقصة، كانت تتعمد أن تثير الضيوف والزبائن، العاملين والمارة، الشحاذين، المجاذيب، والخصيان، لم يكن شيء في العالم يعنيها سوى إثارة رجل ورؤية الرغبة في عينيه وجسده، لذلك كان إيقاعها سهلا بالنسبة لعادل، فهو تعمد الظهور في محيطها، ومغازلتها من بعيد في الأفراح، أو السوق، أو أثناء نشرها للغسيل، لكنه فجأه ابتعد، صار يتجاهلها، وينظر لها دون حتى الابتسام، فاندفعت تحاول إعادته لطابور معجبيها، لكنه أبى، فتمادت حتى استدعته لبيتها بحجة أنها ترد إليه شريط الكاسيت الهدية، ولم يكن في نيتها أن تضاجعه، فقط كانت تنوي أن تظهر له مدى خسارته، لكنه بدا أمامها صلبا ولم ينظر حتى إلى ذراعيها أو بداية صدرها، فغلى في رأسها الغيظ، وداخلها إحساس أنها فقدت قدرتها ومقوماتها الأنثوية منذ توقفت عن الرقص وارتضت البقاء في البيت، وترهلت منذ ذلك الحين وصارت تشبه السيدات المسنات. كان عادل مازال واقفا أمام الباب، بينما هي في الغرفة تبحث عن "الشريط" المفقود، وتدور تلك الأفكار برأسها، فقفزت إلى رأسها الفكرة الجريئة وطلبت منه في غنج أن يسجل لها شريط به موسيقى رقص. عاد في الليلة التالية، حين كان "حسن يغني في الملهى دون أن يلتفت أحد إليه. كانت هي ترقص لعادل، وهو يتأمل كل تفاصيلها ويستمتع بنصره الجديد. ينتهي ذلك الاحتفال كل ليلة قبل

Twitter: @ketab_n

الفجر بقليل، أمضيا وقتا على تلك الحالة، لكن الليل هنا لا يستر. ففي ذلك الوقت الذي يختفي فيه عادل لديها ليشرب ويدخن ويشاهد رقصها وينهي ذلك بمعاشرتها، يكون العالم كله يبحث عنه. ومرة بعد أخرى، رأوه وهو يخرج من بيتها، كما أن حسن يعود في الليل دون مواعيد، وقبل أن تنكشف العلاقة، قرر هو نقل المقر إلى العشة، التى بناها زرجينة فوق بيته المشوه، حيث الأمان التام، ونقل الموعد إلى الصباح، حيث الكل مشغول في أموره، ويبدو خروجها من البيت اعتياديا. وتلك العشة كانت ملجئا لكل أصدقاء زرجينة الراغبين في أي "مُكنة" لأي فعل لا يصلح له الشارع، والمقابل كان واضحا وبسيطا، هو أن يأخذ زرجينة نصيبا مما يدور في "عِشته" وهكذا أصبحت تخرج عندما تحب، في عباءتها الواسعة وشعرها المصفف بعناية وزينتها الكثيفة إلى عشة زرجينة، وتقابله أو تقابل عادل. كانت تغيب أياما وتذهب أياما، دون مواعيد أو ترتيب، وإن ذهبت ولم تجد أي منهما، أمضت بعض الوقت في لف جوان أو اثنين وتدخينها، ثم ترحل. تلك العشه هي ملجأ للجميع، وصادف وجودها وحيدة دخول باسيم يبحث عن جوان، فلم يندهش، وهو أحد اللذين كانوا يشكون في أمرها مع عادل. دخنا سويا، وحاول إغوائها. لكنها قاومت، حيث كانت تستمتع برؤية الرغبة أكثر من استمتاعها بالعملية ذاتها. استمرت محاولات باسيم، بينما هي تستمتع بإذلاله، حتى عاد زرجينة وطرده. أخبر باسيم اثنين من أصدقائه المراهقين، وتابعها لمدة تزيد عن أسبوع، حتى رآها تتجه إلى العشة مرة أخرى. حين قاومت، كبلوها في الفراش، وتناوبوا عليها. جاء زرجينة، فاستغاثت به، اشتبك معهم، وانتهى به الحال مكبل على الأرض، وهي على الفراش، بينما هم يدخنون بانجو ويشربون زبيب. تعمد باسيم تمزيق ملابسها بحيث لا

Twitter: @ketab_n

تصلح لأي استخدام، ولم يستجب لطلبات أي منهما بشأن تأخر الوقت واقتراب عودة حسن.

أثار جلبة ليس لها مثيل، وأعلن على الجميع من اللحظة الأولى أنها هربت. حسن، الذي كان يشك في سلوكها منذ فترة، رأى فيها سببا جعله يفقد متعته الوحيدة في الحياة وهي الغناء، بعد أن أثقلت على صدره وحنجرته بدخانها، وخمرها، وعربدتها، كما أنها لم تعد تثيره، ولم يعد شيء يثيره، فأعلن بعد بحث قصير عنها أنها هربت، واستوجب ذلك الإعلان توضيح أنه سيشرب من دمها ولن يهدأ.

في الصباح، كان قد هدأ وشعر بتحسن، لكنه افتقد وجودها، فعاد ليبحث عنها، ويتذكر أنه وعد بقتلها، فيخبر الجميع دون سبب أنها ذلة لسان وأن "المسامح كريم أسبوع كامل مضى وهو يسأل كل الناس، ويتقصى عن الحقائق، فوجد أن باسيم أيضا قد اختفى منذ أسبوع، وأنه باع كل المخدرات التي كانت معه بسعر بخس، وحمل كل أشياءه ورحل. فصارت الصورة لدى الجميع أن الراقصة هربت مع مساعدها "الطري"، الذي لا يمكن أن يكون عشيقها، بعد أن ظل سنوات تابعا لها، وإنما فقط لحبها في المال عادت لترقص. ارتضى حسن بتلك القصة المفبركة، واقتنع بها، وساعد على نشرها كي ينجو من صورة الزوج القرطاس. وهي، ارتدت جلبابا فضفاضا، وايشارب غطى شعرها ورقبتها، ورحلت في الليلة الثامنة، إلى حيث لا يدري أحد.

أما زرجينة، فقد ظل يبحث عن باسيم أو أحد رفيقيه، ليس بسبب العاهرة التي لا تساوي عنده قرشا ـ وهو لم يعرف من النساء سوى العاهرات ـ لكن بسبب تعرضه للضرب في بيته، وتكبيله. شاهدهم وهم

Twitter: @ketab_n

يحملون كل شيء ذي قيمة في ممتلكاته، ويتلفون كل شيء آخر.. فقط أراد حقه. لولا أن عادل ظهر في تلك الليلة مبكرًا، لبقيا مكبلين زمنًا أطول. عاشا لحظات الذعر حين سمعا الضجة في الشارع، وتعرفا على صوت حسن وهو يقسم على قتلها. دخل عادل العشة وخلصهما، كان زرجينة قد تبول في ملابسه، وكانت تنتابها هي رعشات بسبب البرد ويداها مكبلتان، بينما تمكنت من فك ساقيها. أخذ عادل يقص لهما ما يدور في الشارع، ويهول من غضب حسن، وأن الأزمة الآن صارت تخص "المصيلحية" كلهم، حتى يقضي على فكرة أن تعود إلى بيتها. فقد أراد أن يبقيها يومين، يستمتع بها قبل أن يخسرها للأبد. بدأ زرجينة البحث عن باسيم من الليلة ذاتها، وضجر عادل منها في الليلة الثامنة، فاشترى الجلباب والطرحة وأطلقها. لكن زرجينه لم يمل من البحث عن باسيم، إلى نهاية عمره على يد "بيه" من ذوي البدل البيضاء والنجوم الصفر، أراد أن يُحمله وزر شهر ديسمبر وتقفيل القضايا.

تعثر فيه حين كان عائدا وقد باع كل المخدر، تعثر فيه على طريق بعيد، فطلب بطاقته، العنوان بعيد جدا

ـ ايه اللى جابك هنا؟

ـ شغل!

ـ تعالى!

وانتهى به الحال، بعد أن تم تفتيشه مرارا ومرارا، إلى أن لا شيء بحوزته، لكن الدرج ملئ بأشياء لا أحد بحوزتها، لذا رأى البيه أن "يابخت من وفق رأسين للحلال"، فاختر لنفسك شيء يُصبح حرزك، وإلا اخترت لك. الرفض يساوى صفعة، أو كشاف، والاستمرار في

Twitter: @ketab_n

الكلام والتفاوض يساوي ركله في الخصيتين، أو على الظهر اختر، فقد رأى فيك البيه وجها مثاليا يُقدم في ذلك الوقت متلبسا بحرز ثقيل. وأثناء الترحيل إلى النيابة، ومن دافع شعوره بالقهر، أقدم على المغامرة المجنونة. ولعدم اكتراث البهوات وأتباعهم، تمكن من فعلها، وهرب. وكانت تلك هي علاقته بالبيه. أما كيف قُتل، فليس الآن، فهو الآن مازال يبحث عن باسيم، أول من أهدر كرامته.

*

تسلل المحمول إلى حياتنا، حتى أصبح هو الحياة. رأيناه في البدء في أيدي أولاد الذوات في مسلسلات التلفزيون، حيث كان المشهد الاعتيادي للسيارة، والفيلا، الوجه الحسن، وكوب زجاجي به شيء برتقالي صافٍ مختلف عن لون البرتقال، وأثقل من الميرندا، التي يعشقها الأطفال ولا يشترونها إلا في نهاية الأسبوع إن ادخروا، أو في العيد من محمد ابن عم مصطفى، الذي أصبح يبيع الحلوى المعلبة المغلفة بعناية، التي تثير كل من يراها، ونسمع إعلاناتها في الفقرات الإعلانية، حين تظهر مذيعة فاتنة، ناعسة، تخبرنا أننا سننتقل الآن إلى فقرة إعلانيه، وتقطع صورتها لتظهر إناثا أكثر رشاقة وجمالا، يمضغون لبان، أو يقشرون أصابع شوكولاته مدفون داخلها بسكويت، أو يتمايلون على إيقاع أغنية راقصة، يظل صداها يتردد في آذاننا فترة، وحين نمر أمام الدكاكين في السوق، أو دكان محمد في الجهة الأخرى، ونرى تلك الأشياء التي كانت تثير البهجة في نفوسنا عن طريق الأغاني والفاتنات، نندفع إليها ونتذوق. في البداية تبدو مختلفة، فهى ليست في دسامة المفتقة، ولا حلاوة لقمة القاضي، لكنها أنيقه ومغلفة، مختلفة عن تلك الأشياء البوهيمية اللزجة. نقتنع فيما بعد أن ذلك المذاق المعتدل هو المذاق الممتع بالفعل، وأن الفارق ما

Twitter: @ketab_n

بين الفاتنة التي تمضغ اللبان على الشاشة وجاراتنا اللاتي يطاردن أبناءهن بالشبشب ليكملن تفليتهم، هو نفسه الفارق بين تلك الحلوى الراقية وتلك المكدسة في أجولة يجتمع عليها الذباب في الدكاكين الكئيبة مثل الملبِّس والفنضام. وهكذا وجدنا أنفسنا نتأمل المحمول الأول الذي ظهر في يد "الأستاذ عمرو مدرس الرياضة، الذي أصبح أحد الأثرياء وأعاد لعائلة سعد جزء من فخرها القديم، وأضاف على بيتهم الجديد بعضا من رفاهة الأفلام، فاشترى أثاثا إفرنجيا كثيرا، وأعاد طلاء كل شبر في الداخل والخارج، ولم ير أي فارق بينه وبين مصطفى فهمي الممثل، الذي يؤدي دور بيه في المسلسل الذي يذاع في الثامنة على القناة الأولى، فمصطفى فهمي يمتلك فيلا من طابقين بها تلفاز، غسالة، ثلاجة، وسلالم بيضاء، مفروشات جديدة، وأثاث إفرنجي.. لم يري أي فرق سوى السيارة التي لن تنفعه في شيء، والبدلة التي هي مبالغة. هو المحمول الذي انتقل إلى يد أستاذ عمرو، قافزا مباشرة من التلفزيون، ظل لفترة طويلة مسارا للجدل ومثارا للأحقاد، حتى اشترى سيد مصيلحي واحدا، كي لا يفقد المصيلحية موقعهم في المقدمة، ثم بدأ يظهر في أياد أخرى، لكنه بقس محدودا لفترة، يرسم في يد صاحبه الوجاهة والتميز والاقتراب من ذلك العالم الخرافي، الذي نطل عليه من خلال الصندوق السحري، ويقص لنا عن عجائبه سفراؤنا في التعليم والوظائف الحكومية، السائقون، وبائعو العرقسوس.. يحكون عن عالم بالخارج ضاحك، عابث، يمضؤ فيه الشباب نهارهم في مغازلة تلكن الجميلات اللاتي يظهرن على الشاشة، وفي الليل يصخبون احتفالا، يعيشون في تلك المنازل الهادئة التي يتوفر بها الماء طوال الوقت، والطعام، والابتسامة، لكن عيالهم فرافير، ونسوانهم معيوبة، ورجالهم خرونجات، وأن حياتنا هنا أصعب وأقل إمتاعا لأنهم

Twitter: @ketab_n

يخشوننا، ويتعمدون أن يبقى مع ديننا القويم في ذلك المستنقع، وإلا لماذا يتعمدون إيذاء الشباب والرجال الأكثر قدرة؟ ويستقطبون الأكثر علما ليعيشوا بينهم ويحرموننا من إضافاتهم، وكل من عرف الطريق القويم طُرد. لذلك نحروا هنا ما يزيد عن خمسة وعشرين شابا، حيں وصلت كلمة الحق قلوبهم، وأسسوا لمجتمع العدل والكفاية نواة أو حجر أساس تم وضعه، فلم يتحمل الفجار العصاة. وعليك أنت أن تتأمل.. هل حياتهم تلك هي الصواب؟ هم الذين تبيت حريمهم خارج البيوت، وتكشف عوراتهن في الطريق، رجالهم غارقون في الملذات والشهوات، ويسدون آذانهم عں الحق المبيں، يحاربون الوعاظ والتقاة، ويضيقون عليكم حياتكم كي تنفروا من الطريق المستقيم، فهل هذا ما تريدون؟ تليفوناتهم المحمولة ليست سوى بدعة لتجذبكم إلى الضلال. جاء الرد في الأيدي التي استطاعت للمحمول سبيلا، وذلك الكلام الموجه من داخل المسجد لا يؤثر في الأصل سوى فيمن يدخلون المسجد، والشيخ صبري نفسه ـ صاحب الخُطبة ـ صار يملك محمولا!

حينها، كان المحمول في يد كل من يحاولون إبرازه كثريٍّ في التلفزيون، لذلك التزمنا بالنص، وتحمل كل من يريد أن يحصل على الاعتراف بكونه ثريا تكلفه فوق الذبح في الأعياد، والنقوط الأكبر في الأفراح، هي تكلفة تسديد فواتير خرافية لذلك الشيء الذي لا فائدة منه، إلا أنه يأسر العقول، كذلك المخدر الآخذ في الانتشار.

شيء ما على شكل قرص، لا دخان له ولا طعم، فقط إحساس الدم يجري في العروق المثير للهرش، ونشاط زائد عن الحاجة، عيون مفتوحة عن آخرها، وكأنها في حالة اندهاش دائم. بيع ذلك القرص وسط البرشام، الذي كان يتولاه هنا عادل، ويمده به النجار، عن طريق

Twitter: @ketab_n

التاجر الذي يتعامل مباشرة مع المكتب، والمكتب ذلك في علاقته الدائرية بالمخدرات ـ حيث تبدأ من عنده وتنتهي إليه ـ يأمر فيطاع، فهو الذي يمرر كل شيء، ومن تستقر بين يديه النقود، وهو المطارد المعادي لكل البائعين، لذلك كان البائعون الصغار يخشونه، وكل ما يتعلق به يثير ذعرهم، ويحلمون بأن يصبحوا تجارا كبارا، بحيث يتعاملون معه بشكل مباشر ودون وسيط، فحاول بعضهم التميز واستقل بنشاطه لينمو، فاختفى، واختفى أيضا كل من تجرأ وتجاوز نفوذ النجار في هذه المنطقة. لكن "عادل" تولى بيع البرشام منذ زمن، وبموافقة النجار أُسند إليه هذا الصنف الجديد وحده دون غيره، وازدهرت تجارته وزادت مكاسبه عن كل البائعين من أمثاله، وقاربت من مكسب النجار، والفارق ظل لدى النجار في بعض المبالغ التي يُحصلها من دكاكين ومستأجرين لم يعودوا يذكرون لم هم ملتزمون بتلك المبالغ.

تحول عادل من مجرد بائع إلى أحد أعلام المنطقة، وضمه النجار إلى أصدقائه الذين يجتمع معهم كل ليلة، فوق سطح بيت آل سعد القديم، ودائما ما أبقاهم بعيدا عن البائعين الذين كان يقابلهم أمام بيته، أو في الممر أسفل الكوبري. وبيت آل سعد القديم في الجهة الأخرى، لذلك وجب عليهم جميعا أن يخرجوا من الشارع، ويسيروا بمحاذاة الطريق لمدة عشر دقائق حتى الممر الأقرب، والذي يجتمع فيه باعة المخدرات وأصدقائهم، الأرزقية، والزبائن، والهوام. بعد الممر، يدخلون القرية وهناك يقيمون حفلتهم المسائية فوق سطح البيت، المطل على حقل صغير يبدو كبقعه خضراء محاطة بسور متهدم من الحجارة الحمراء.

كانت تلك العصبة هي "أحمد إبراهيم، محمود قاسم، سيد مصيلحي، محمد البقال بشكل أساسي ودائم، وأحيانا كان ينضم بقعة، في تسول

Twitter: @ketab_n

مثير للغثيان، فيمضي الوقت كله في التنظيف وخدمة الجالسين، دون أن يطلب منه أحد ذلك، وينتهي به الحال نائما، فيتركوه ويرحلوا. وأحيانا ينضم أستاذ عمرو في الإجازات الصيفية القصيرة.. ينضم بتليفونه المحمول، لكنه لا يدخن كثيرا ويمضى الليلة كلها في القص عن نفسه وإنجازاته، معاناته في الغربة، وانتصاره على كل شيء، طرافته، خفة ظله، قوة شخصيته، حزمه، عشرات الأسباب التي تجعلهم يتوقفون عن التدخين والكلام والاستماع، ولا يتمنون سوى أن يصمت؛ لكنه لا يفعل. وزارهم أيضا، على فترات متباعدة، سمير المحامي، الذي تزوج وأنجب ثلاثة، وتحسنت حياته منذ انتقل للعيش في منطقة أقاربه. ولا يكف سمير عن التودد للجميع والضحك على نكاتهم وإن كانت سخيفة.. يُذكرهم بأحداث الطفولة؛ وإن لم يكن جزءً منها.. لكنه بكل المقاييس لا يتكلم كثيرا، كذلك لا يظهر كثيرا.

كان الكلام الذي يدور في ذلك المجلس ـ إن لم يكن الأستاذ عمرو بينهم ـ حول كل أحوال الشارع وأهله، وتتخذ في ذلك المكان قرارات مهمة وحاسمة، كمراقبة "عبير" والرهان على اصطيادها، أو تأديب أحد السكان بمبلغ نقدي أن تجاوز في حق أحد المجتمعين ـ وقد يصل الأمر إلى طرده ـ ومن يتخذ القرار في تلك الجلسات هو أحمد النجار بطبيعة الحال، لكن المفتي الوحيد هو الأستاذ محمود قاسم، ملك صيانة الدش، والذي أصبح قريب الشبه بممثل مغمور، أسمر، بدين، يظهر دائما في أدوار المدرسين، وكانت حالته المادية قد ساءت بعد نوبة الانتعاش التي صاحبت مشاركته لعم مجلع، وازدادت سوءً منذ تزوج أخوه الأكبر "علي من أم ريهام، وانتقل للعيش عندها وتوقف عن الإنفاق على أبنائه، واضطر محمود أن ينفق عليهم، بعد أن فشل في إقناع أخاه بالعودة،

Twitter: @ketab_n

وبعد أن اضطرت أمهم للعيش لدى عائلة "أم رجب زوجة النجار ةفي قرية قريبة، كـخادمة مقيمة ـ بعد أن ساءت حالة المصيلحية المادية ولم يعودوا قادرين على توفير رواتب تكفي كل الخفراء والخادمتين، اضطروا لتسريحها ـ لكن ذلك الدور كان يرفع من شأن محمود قاسم في الشارع، ويجلب له الكثير من الاحترام والإجلال، خاصة أن قصة أخيه علي تنتشر بسرعة ويتداولها الجميع. ولاحظ النجار أن الكثير من السكان صاروا يشهدونه في مشاكلهم وأزماتهم، على اعتبار أنه "يعرف ربنا وعنده ضمير"، وهكذا اقتصر دور النجار على المشاكل الأكثر عنفا أو جدية، أما المشاكل البسيطة اليومية فلم تعد من اختصاصه، وأفتى محمود للنجار في جلسة جمعتهم فوق السطح أن تلك الأفعال الطيبة الودودة هي التي تحافظ للرجال على هيبتهم وليس حمل السلاح أو إثارة الذعر. اقتنع النجار، الذي كان القلق يتسرب إليه من نفوذ رجاله وصبيانه، وقدراتهم غير المحدودة مقارنة بقدرته المتواضعة، فوافق أن يقوده محمود قاسم لأفعال غير أفعاله.

ذبح خروفا في العيد، ودفع قروشا لكل من وصلت معاناته إلى حد الجوع، وقف إلى جانب الأضعف ـ ولو شكليا ـ في النزاعات. دافع عن الأطفال الذين يُطحنون تحت الأقدام والعصي، الفتيات اللاتي تجبرهن أمهاتهن على الزواج. لم تكن نصائح الأستاذ محمود وحدها هي المحرك، بل كانت شعبية زرجينة المتزايدة أيضا تدفعه في هذا الاتجاه؛ لكنه لم ينجح في أن يبدو لطيفا، ونصائح الأستاذ قادته فقط إلى قلوب العجائز والمعدمين، وتدخله في شؤون البيوت، كإنقاذ طفل من أبيه أو فتاه من أمها، أفقده سريعا تلك الشعبية الزائفة، فلجأ لبائعه الأكثر ظرفا وطرافة، والأقرب لقلوب الأصغر سنا، بشعره الخشن ووجهه الأسمر الباسم،

Twitter: @ketab_n

زرجينة. لم يتمكن النجار من الحقد على زرجينة لشعبيته، بل أحبه هو أيضا، لخفة ظله ونشاطه في البيع ومعرفته الكبيرة بالعالم الخارجي؛ لكن ـ ورغم ذلك ـ لم يضمه إلى تلك الجلسات عالية المقام، وضم عادل إليها بعد أن باع دلك القرص الاختراع.

منذ أن بدأت تتوطد علاقة زرجينة بالنجار، بدأ يرى اتجاها جديدا في التعامل مع النزاعات، وكيف أنه يمكنه الدفاع عن المستضعفين دون أن يضطر للتعامل بنفس القدر من الرحمة والتسامح فيما يخصه شخصيا. وكانت تلك الأفعال تلقى لدى النجار استحسانا من الأصل، لكنه كان يخشى فعلها خوفا على هيبته. ومن بعد فتوى وقسم محمود قاسم، انطلق النجار، وأطلق ذكرى الولد الممسك بفرخة أمام المرحاض، تجول بحرية في رأسه، وتلك الذكرى التي قيدت شهواته فيما سبق وأفقدته أي رغبة في الاندفاع إليها أصبحت تمثل لديه ـ بعد أن طُمست معانيها ـ كل ما يعرف كونه صواب ولا يجرؤ على فعله، كالدفاع عن المتعلمين في المعارك التي يُسحقون فيها يوميا، وعدم احتياجه للاشتراك في حملات الضرب والترهيب لصالح أحمد مسعود وأمثاله من رجال الحكومة.. بدأ النجار ينفصل رويدا رويدا عن رفاقه ورجاله، لكن بقت علاقته بهم قويةأ والتفت أكثر لعائلتهأ وفوجئ أن فاطمة بنت فاطمة قد أنجبت وتركت ولدها في بيت أمها كي لا يكبر ابنا لبواب، ووجد "حراق" قد تدهور حاله، واحتله الذباب والصراصير والطعام المقدم لا يرضي حتى أولئك السكان، بعد أن تم افتتاح كشري وحلواني أبو كيمو في السوق. وجد زوجته قد اختلطت بجاراتها واندمجت معهن تماما.. هو لم ير أي شيء من تلك التحولات إلا بعد أن أصبح لقاؤه برجاله من الباعة شهريا، حين يسلمهم البضاعة ويأخذ أمواله؛ يومان شهريا على الأكثر، ويوم

Twitter: @ketab_n

ثالث يذهب فيه للتاجر يسدد ديونه ويحصل على بضاعة جديده. توقف عن جمع الجباية من الدكاكين والتجار الملتزمين بالدفع بشكل شهري، واكتفى فقط أن يزورهم كلما احتاج مبلغا ما بصوره طارئة، وقبل هدايا تقدم له في بيته نظير خدمة أو حماية، بدلا من مشاركة في الربح أو مبلغ شهري.

وفي ذلك الوقت الطويل، الذي انتزعه من الجلوس تحت الكوبري، أو الوقوف على الطريق والتدخين، أو جلسة المقهى لست ساعات ـ حيث رأى كل ذلك من عادات الصغار ـ أمضى وقتا أطول في بيته. وأكثر ما فاجأه هو سلوك "رجب" المنطوي الهادئ. في البداية ظن أنها تربية الحريم، فصار يصحبه في كل شجار، ويتعمد أن يرى الفتى أسوأ المشاهد ويسمعه أسوأ الألفاظ، لكن الفتى كان سلوكه مختلفا عن أغلب أولئك الذين ولدوا هنا، ذلك الجيل الذي لم يعرف شيئا سوى البيوت الأربعين مترا، والحمامات المشتركة.. حملوا السلاح، ودخنوا المخدرات، وصاروا أكثر خطورة من محترفي الإجرام قبل البلوغ.. اعتادوا مشاهدة الدماء وإحداث الإصابات، حتى صاروا خطرا حقيقيا يهدد كل السكان في السوق، أو في الجهة التي تعقب الكوبري. كانوا يخرجون في جماعات لسرقة دكان أو مزرعة، أو يذهبون ليردوا اعتبار أحدهم تم ضربه أو تفتيشه، أو يذهبون للمدرسة الأقرب كي يتحرشوا بجماعات تشبههم، ويتخذوا قروشا من فتيانا أكثر أدبا وانضباطا.

رجب لم يكن أيضا محسوبا على أولئك الأكثر أدبا وانضباطا، فهم يتعلمون في المدارس أو يعملون في صنعة ما. هو قضى طفولته في رؤى غريبة، تأتيه من اللامكان، يتأمل الشارع وحاله المضطرب دائما، رجل يتشاجر مع جاره بسبب طفليهما، وبينما الرجل في فانلته الداخلية يسحق

Twitter: @ketab_n

وجه جاره بقبضته، والجمع من حولهم لا يفعل شيئا، يتدخل والده ـ النجار ـ فتنتهي المعركة ويرحب الجميع بأبيه قصير القامة حسن الهندام. يتحرش به طفل في سنه، ويسخر من هيئته الوديعة، فيتدخل أحد أصدقاء أو أتباع أبيه ويضرب المعتدي كفا أو اثنين، ويحميه. كان يتجول دون هدف طوال الوقت، يتأمل كل شيء ويندهش، لكنه لم يخف من شيء، أو يحمل ضغينة تجاه أحد، فعاش في سلام بينما يغرق الجميع في عنف الفوضى. التقطته "أم بهاء"، وهي تسكن في غرفة مؤجرة في بيت بُنيَ مستندا على حائط "آل سعد" الخرساني، وتعمل خادمة في بيوت خارج المنطقة، وتحمل دائما في يدها كيسا بلاستيك أسود، به بقايا طعام أو ملابس رثة، هي بالنسبه لأبنائها ملابس جديدة ووليمة.. التقطته من السوق، قبل أن تسحقه العربة الكارو وهو شارد يتأمل ما يدور من حوله دون فزع أو ذعر.

استسلم ليدها وتأمل عباءتها السمراء القذرة، ورائحتها النتنة المزعجة، يدها الخشنة تمسك يده، فسارت في عروقه دماء جديدة، وود لو يمضي وقتا أكثر بصحبتها؛ لكنه ما إن ظهر لأمه، حتى اختطفته منها، وتركته غائبا في جمال " أم بهاء"، الذي لم يكن أبدًا موجودًا، ولو مسحة منه. صار في تجوله ومشاهدته لا يحمل أي مشاعر سوى لتلك السيدة النحيلة، التي قليلا ما تظهر هنا، مما زاد شوقه شوقا. لم يدهشه شيء مما يراه، فالمشاجرات التي تحدث يعلم تماما أن قليلا منها هو ما يصبح خطرا، أما البقية فهى مجرد تنفيث لغضب مكتوم، ما إن تتطور حتى ينسحب طرفاها ويعلنان اكتفاءهما بالسباب والتهديد. وحده أدرك أن ذلك المكان آمن تماما، وأن الخطر الوحيد الحقيقي قد يأتي من الذين يقضون أوقاتهم خارج الشارع، إما في بيع المخدرات أو في تأدية خدمة

Twitter: @ketab_n

لأحمد مسعود، وهؤلاء إن اشتبكوا مع أحد السكان من الموظفين أو الصنايعية استبق الطرف الأضعف الدماء وأعلن الرضوخ، فتمر أيضا هذه الأزمات في أغلبها.

هو سقط في شيء لم يكن يخطط له، ولم يخطر على بال أحد، حيث انفصل عن الواقع ـ كلعبة ـ وأخذ يتأمل ما يحدث ويحيله في خياله إلى أحداث أخرى، تبدو له أجمل أو أكثر منطقية بالنسبة لخياله الفتي. لكن اللعبة تمادت، وانجرف في ذلك الاتجاه دون أن يدري، فرأى "أم بهاء" سيدة عالية المقام مليحة، يشتهى لو يمضي معها وقتا، تُعرفه فيه على عائلتها، وتقص له عن العالم الخرافي بالخارج.. وكان مصدره في رسم تلك الخيالات قصص أمه، التي لم تكف يوما عن ذكر أمجاد عائلتها، وثرواتهم، ونفوذهم، وتحكي له بالتفصيل عن الحفلات والولائم، وتكمل بخيالها مافقدته ذاكرتها، وتضيف المشاهد الناقصة من مشاهد التلفزيون. وساعد الفتى أنه، في زياراته المعدودة لأهل أمه، رأى ما تقوله قريبا. أدمن مشاهدة التلفزيون مع أمه، بينما يأكل "شقة" البطيخ، أو يتسلى بتنقية الأرز. وتمكن منه ذلك الخيال الشيطاني، الذي جعله يرى كل شيء في صورة حسنة، حتى حين شاهد في الخرابة ثلاثة مراهقين يجبرون فتاة صغيره على التعري ويعبثون بجسدها، بينما هي تحاول الفرار ولا تكف عن السباب والصراخ، تصور أنها مزحة بينهم. وحين وصل أقاربها، وانهالوا عليها وعليهم ضربا، أدرك أنهم قد انزعجوا من مبالغتها في الصراخ واندماجها في اللعب.

حين حاول والده رده إلى الواقع، لم ينجح، وغاص الفتى أكثر في خيالاته ورؤاه، حتى أصبح هائما طوال الوقت، لا يجبره أحد على تعلم صنعة أو الذهاب للمدرسة، كما لا يجبره أحد على أن يرى العالم بغير

Twitter: @ketab_n

رؤيته الوديعة. لكن بعض الرؤى كانت تمتصه إلى أبعد، فيرى نفسه يفعل أشياء عظيمة، ويرى من حوله يتفاعلون معه ولا يتجاهلونه، فيندمج معهم في أحاديث، ويغيب بالساعات معهم. نمت تلك الرؤى في خياله، حتى أصبح لا يدرك ماهو الواقع، هل هو ذلك الذي لا يرى فيه أم بهاء مطلقا، أم أنه ذلك الذي يسهر معها كل ليلة ويتبادلان الأخبار بلا توقف؟ لكن كونها سيدة راقية من منطقة عظيمة، أصبح شيئا لا يقبل النقاش في رأسه الصغير الملئ بصور لعالم أكثر جمالا، دون أن يفقد أي من تفاصيل ومفردات العالم الذي لم يعرف سواه، داخل نطاق ذلك الشارع. ربما لو تُرك ليتذوق عرقها ذا الرائحة الكئيبة، ويتلمس الخشونة على بشرتها، لكان انصرف عن هوسه بها.. وربما لو تركه أبوه ولم يصحبه للمشاجرات وجلسات السكر والتحشيش في الأفراح، لكان انصرف عن تتبع أخبار العاهرات، والمشاجرات، والمخدرات، وأصبح شخصا وديعا مهتما بالموسيقى مثلا كـ"حسن" أو باسيم، أو تمكن من صنعه، أو أي شيء سوى ذلك التسكع الذي قضى عمره فيه، دون أن يدري ما الحقيقة وما الخيال، متتبعا أخبار الناس، ناقلا إياها، وظل العمر يتسرب منه وهو على تلك الحالة من الغياب.

كانت هاجر "أم رجب" قد انصرفت تماما عن اصطحاب الفتى معها في أي مكان، وتقلص دورها في رعايته منذ اتهمها النجار بالتسبب في رخاوة ابنه الوحيد، وحين اعترضت ـ في البداية ـ تلقت "علقة" هي الأسوأ في تاريخهما المشترك، وحاولت أكثر من مرة إفاقته من حالة عصبية مرعبة انتابته، جعلته يدمر كل ما يقابله، ولم تجد معه كل محاولاتها، بدءا بالصراخ وانتهاء بتنحية الأشياء القليلة القابلة للكسر عن طريقه، وتلقت بعد كل محاولة موجه من الصفع، والركل، والسب، واستمرت

Twitter: @ketab_n

تلك المعركة حتى أفاق وهدأ، فخرج ليبحث عن جوان وزجاجة بيرة تعيده إلى "دماغ" ما قبل العركة، واضطرت هي للبقاء في البيت أكثر من أسبوع، كي لا يرى أحد مدى الضرر الذي لحق بوجهها، ولم تر سوى فريدة تلك المأساة المرسومة على جسدها ووجهها.

نصحتها فريدة أن تبتعد عن الفتى وتترك شأنه لأبيه، خاصة وأن الفتى رخو فعلا، وبهذا تضخم وقت أم رجب وأصبح طويلا ومملا، وقضت فترات أطول بصحبة فريدة، ومن خلالها تعرفت على عبير، التي عادت الآن وافتتحت محلا لبيع العطور، قبل السوق بمسافة صغيرة، ورأت في ذلك "المشروع" الحل الأمثل لوضعها وأنوثتها المحرمة على الكل، حتى عادل الذي بذل كل ما في وسعه كي يصل إليها ولم ينجح. فقد كان هناك طريق واحد، أخبرته عنه منذ اليوم الأول، وهو الزواج. أمضت هاجر وقتا مع عبير في الدكان، وصارت تدعوها للبيت، ولاحظها عادل أثناء متابعته لعبير، وادعى أنه لا يعرف من هي، حين غازلها، لكنها عرفت نفسها بكونها زوجة النجار، فاعتذر وانتهت القصة.

فى أول مرة رأى النجار عبير في بيته، فقد القدرة على النطق وانسحب الدم من أطرافه. ظل طوال الوقت يحلم بها، وتطارد خياله، فيحاول إلهاء عقله بالمخدر، لكن المخدر يغرقه في رؤى منعشة تمتصه لساعات، يتخيل صوتها وهي تنادي باسمه، يتذكر ابتسامتها في وجهه، التفاتاتها لتبحث عنه، ويتأكد للحظات أنها تريده، فيهدأ، ثم يعود ويدرك أن ذلك محض افتراء، فيعود للخيال. يتذكر تفاصيلها، والمرات التي رآها فيها، منذ أن دخل بيتها مع سامح ليخطبها، وهو يدرك أن شيئا ما مميز في تلك الملعونة، شيء يجعله يتمنى أن ترضى عليه، لا لشيء سوى أن تراه عظيما، وكلما بحث عن شيء ينفره منها، ذاب في سحرها الصافي. وظلت تلك

Twitter: @ketab_n

الخيالات تطارده كلما رآها، وبعد أن كان يهرب من رؤيتها كي يصفي ذهنه منها، صار يبحث عنها ويتعمد المرور من أمامها في أفضل زي عنده، وأكثر مواقفه عظمة يقيمها أمام دكانها الصغير. ولم يعد يحتمل رؤيتها في البيت عنده، دون أن يتخيل أنها جزء منه، فتقدم لها بطلب الزواج، ووافقت.

رغم تحذيرات كل أصدقائه من كونها ملعونة وشؤم، وأن لها حتى الآن ثلاثة أزواج ضحايا، ورغم تهديد أم رجب بالعودة لأهلها واصطحاب الفتى، ومعرفته أنه لا يقدر على إجبار أهلها على شيء، الفرح يتم الإعداد له على أفضل صورة، المجاري يتم نزحها من الأرض الفضاء الواسعة المخصصة لإقامة أفراح ضخمة، تتكلف مبالغ مهولة، في أغلب الأحوال هي أفراح المصيلحية، الذين بدؤوا تجارة ناجحة جدا في اللحوم المستوردة، بعد أن توصل أحد أفرعهم المتعلمة أن تلك اللحوم الرخيصة هي التي ستعيدهم لزمن الرخاء. عادوا كما كانوا قبل زمن طويل، حين ملك أجدادهم كل تلك الأراضي، بما فيها المزارع الشاسعة على الجانبين، هم الآن الوحيدون القادرون على تنظيف أرض "الطفح" وتمهيدها لإقامة أحد أفراحهم، وقد كان آخر فرح أقيم في تلك الأرض أسطوريا، جمع بين أحد أبناء المصيلحية وابنة الشيخ صبري ذي اللحية الحمراء، الجلباب الأبيض، والابتسامة المتشنجة.

كل شيء يسير وفق هوى النجار، العربة سحبت ماء البيارات العفن ورحلت، تكفل أحمد إبراهيم المقاول بتغطية الأرض بالرمل، لم يزعج النجار شيء سوى هواجس أنه سيلحق بالثلاثة المتوفين وأنها أرملة للمرة الرابعة. يطارد تلك الأفكار بحقيقة واحدة، هي أنها لم تتزوج سوى مرتين، فعم فرج حين توفي لم يكن قد كتب عليها بعد، ثم إن زوجها

Twitter: @ketab_n

الأخير كان شيخا ووفاته طبيعية، لكن سامح صديقه وزوجها الأول، يتذكر منظره ممصوصا يلف الجلباب حوله ثلاث لفات، بدا وكأنه أقصر قامة، باع دراجته النارية. ولكن الإجراءات مستمرة، وحسن سوف يحيي الليلة، الأخشاب تنصب وتشد الأقمشة الملونة عليها، ثم تعلق الكهارب عن طريق الشاب الواقف على سلم خشبي، يتحرك به بسلاسة وكأنه قدمه، يدور السلم الخشبي ويتأمله الأطفال، الذين تسللوا إلى هنا كي يسرقوا من الفاكهة، التي تقطع في المطبخ المقام في الخلف، لتقدم أثناء الليل لكبار الضيوف. وكلما حصل طفل على موزة أو شريحة جوافة، يتم مطاردتهم جميعا عن طريق الشباب القائمين على إعداد الطعام والكيف. وتحت إشراف زرجينة، يعود الأطفال ليثيروا غضب الطباخين ـ أصدقاء النجار ـ ويتعمدون استفزازهم، يدلهم زرجينة على ألقاب سرية وفضائح لكل من يضربهم بقسوة أو يلقي عليهم حجرا. صناديق البيرة الخضراء تُجمع في زاوية من المطبخ، والليل يهبط، نُصب المسرح والكوشة، وجاءت راقصة من طرف حسن جلست في مدخل بيت زوزا، وجلب لها شيشة من المقهى. عيد، الكل يرتدي أفضل ملابسه، تم توصيل الكهرباء للسماعات، وبدأ الصوت يصل لآذان كل حي..

"تسه تسه تسه.... الله الله الله" ثلاث نقرات بالإصبع على الحديدة ـ الميكروفون ـ يخرج صوت كالطبل، وينجح الاختبار. أول الذاهبين دائما هم الأطفال، التواقون للاحتفال، ثم أهل العروس والعريس. أول من ظهر من أهل العريس كانت عائلة فاطمة وزوجها المريض وحفيدهم الهزيل في بدلته الجينز الغالية، التي تنظف وتُطوى تحت المرتبة من عيد إلى عيد، بينما ارتدت فاطمة إيشارب ذهبي دليلا على الاحتفال، رغم عدم سعادتها وإيمانها أن تلك السيدة شؤم. ثم جاء أعمامه الاثنان وزوجاتهما

Twitter: @ketab_n

الأربع، وأبناؤهم العشرون، وأزواج أو زوجات من تزوج من الجيل الثاني، وأحفادهم السبع. جاءوا جميعا في جلاليبهم الفقيرة وشباشبهم، ارتدت النساء العباءات الواسعة ـ والتي ظهرت كزي دائم يعفيهن من حرج ارتداء نفس الجلباب أو التبديل بين اثنين في كل المناسبات منذ سنين طويلة. بينما الأطفال والشباب يحشرون بلوفراتهم الصوفية في بنطلوناتهم القماش، وأحذيتهم الكاوتش الممزقة تناضل كي تبقي أصابعهم خفية عن العيون، وظهر بينهم شباب ينظرون من خلف النظارات، يرتدون قمصانا ملونة، وأحذية سوداء، ممشطين شعورهم بمادة لزجة لامعة، وفتيات في مختلف الأعمار، هن الأكثر اهتماما بالحدث والأكثر استعدادا له، قد تزين وارتدين أفضل فساتينهن الحمراء، الصفراء والخضراء، وعدة من ألوان أُخر، تزين الأشرطة الملونة شعورهن المحلولة على الكتفين أو ضفائرهن السميكة، يكشفن قدر المستطاع عن جلدهن، وقدر المستطاع أيضا يبرزن أهم التضاريس وأكثرها قبولا، تفوح منهن روائح زكية، وبدت وجوههن البيضاء المدهونة كأنها بلاستيكية، أو جديدة. عبرت تلك القافلة من جهة القرية إلى هنا لحضور فرح النجار، الذي لا يعرفه أكثرهم، لكنه من دمهم، ثم ظهر بعد صلاة العشاء العم الأصغر عمرا والأكبر مقاما الشيخ صبري، في جلبابه الأبيض، مصطحبا الذكور من أبنائه، مرسلا النساء لتهنئة العروس في بيتها، ولم يرض حتى أن يجلسن في ذلك القسم من الصوان المخصص للسيدات. ثم اندفع كل السكان إلى هنا، في تلك الأرض الواسعة، حيث الغناء والكيف يدور، والراقصة تظهر مفاتنها.. الرجال يحملون السلاح للرقص، والعريس جاء في زيه الرياضي ـ الترينج ـ الذي اشتراه خصيصا للمناسبة. كان أحمر طازجا، مشط شاربه وشعره، وجلس جوار عروسه، بينما الكيف يدور

Twitter: @ketab_n

عليه وعلى الجميع، يقوم عادل بتحية كبار الضيوف، ويعد النقوط ويبلغ به شاب يجلس خلف المسرح، ليسجل في كراس. جاء حسن ليغني، بعد أن أطار المخدر وعيه، وأنهكت السنوات صوته، فصار يتكلم بصعوبة، فما بالك بالغناء؟

لم يرحمه سوى أن الحديدة تبقى أغلب الوقت بين يدي عادل، الذي يحيي الحضور ويعد النقطة. الرقص في كل مكان، ولا فاصل شكلي حتى بين النساء والرجال، هناك بعض المناضد المنفصلة لكبار الضيوف، ينزل عليها البيرة ومراكب الفاكهة، وترص أحجار الشيش والجِوز ويدور الصبيان بالكيف.. ثم ظهر سيد خمرة.

القى عادل بالحديدة، وركض فتبعه سيد دون تردد، وبعد لحظة اندهاش، تبعهم أصدقاء عادل وصبيته الكثر، فأحدثوا حاله من الهرج، تبعهم المتطفلون والفضوليون والباحثون عن أدوار، فزاد الهرج. شاعت الفوضى، فتدخل الأطفال على الموائد العامرة، يخطفون ويضحكون، فضرب أحد الضيوف طفلا منهم، وجاء والده ليشتبك. في الفوضى، تحرش المراهقون بالفتيات، وانتشرت المعارك الصغيرة. هربت الراقصة من فوق المسرح، قبل أن يفتك بها الجمع، الذي بدا منذ لحظات أنه يحتفل.. صرخات من رجال يحاولون التهدئة، تضيف إزعاجًا على الإزعاج، تنفلت الأعصاب بلا سبب جوهري، بدأ الكبار من "المصيلحية" وبيت عم فرج وعائلة مجلع والمخبرون وتجار السوق يرحلون. رحل كل أب مصطحبا أسرته، كي لا يتعرض أحدهم لأذى في تلك الفوضى المتزايدة، فأفتى الأستاذ محمود قاسم لأحمد النجار أن "المرة شوم" لا محالة، وأن ما يحدث الآن رحمة من الله ومهربا أخيرا له.

Twitter: @ketab_n

بالفعل، انتهى كل شيء، ولم يجن النجار سوى أنه أنفق مبلغا مهولا، حتى بعد طرح النقوط من المصروفات، تبقى الخسارة هائلة.

* *

Twitter: @ketab_n

٥

تلك الأثناء بدا فيها كل الأشخاص متشابهين، مجموعات يتصرف أفرادها وفقا لبرنامج لا بديل له، والفروق بينهم بسيطة، لذا كان من العبث تتبع أخبار شخص أو أسرة أو أي شيء، وكان تتبع فئة ما يشي بحال كل المنتمين إليها.

فكل الموظفين يعانون فقرا لم نعرفه فيما سبق، ذلك لأنهم يرسلون أولادهم للتعليم ويضحون في سبيل ذلك حتى بطعامهم، ويرفض أبناؤهم الخضوع لتسلط المدرسة والمدرسين. أما الصنايعية، فهم يعيشون ذلك الترف الموسمي، الذي حين يأتي يشترون كباب، يشربون بيرة، يضاجعون زوجاتهم آخر الليل، وتلك الأيام تمنحهم القدرة على تحمل فقرهم (الدكر) طوال العام، واقتراضهم من طوب الأرض، والتغذي على الفول والطعمية فقط، وتعاطيهم لأدوية الجدول ـ وهي الأرخص في عالم الكيف ـ وضرب زوجاتهم. والأرزقية العاطلون عن العمل، الذين يعملون مع أحمد مسعود وزملائه من المخبرين الرسميين، يتبادلون الأدوار بشكل يومي، أحدهم مرشد والآخر مطارد، وفي اليوم

Twitter: @ketab_n

التالي كلاهما مرشد يطارد الآخر، ثم يتحالفان في عملية خارج المنطقة بتكليف من الحكومة، فيصبح كلاهما مطارد من المرشدين الآخرين، وفي حياتهم تلك، يضطرون دائما لحمل السلاح، دفاعا كل لحظة عن أنفسهم في مواجهة غرباء، ضحايا مزعجين، أو بعضهم بعضا، والطرف الوحيد الذي لا يرفعون سلاحهم في وجهه هو الحكومة، لا يملكون سوى الانصياع للأوامر العليا حتى للقوادة. هناك أيضا المجموعات الشابة، النشيطة في افتعال المشاجرات، التخريب، وابتزاز المال، تلك المجموعات تبدو في فوضويتها وعبثها بكل الأشياء خطرا على الجميع.

لكن ذلك التشابه ليس هو السبب الوحيد في التوقف عن متابعة شخص أو أشخاص بعينهم، ففي تلك الأثناء التي كانت أغنية "حجر الزمان" لـ"أشرف جابر" تُغنى في كل المناسبات، بل حتى دون مناسبة يردد أحدهم. "لا حبايب لا قرايب نافعة بتداوي الجراح"، أو تسمع من أحد البيوت كلمات الأغنية ذات الطابع اليائس واللحن الراقص، كنت أخرج من الحجرة، التي أنام بها مع عائلتي، كي أنتظر دوري في الدخول خلف الستار الأصفر، الذي يخبئ خلفه القاعدة البلدية التي لا تصرف الخراء إلا حين تكون البيارات منزوحة ـ وهي حالات نادرة ـ ويكون عليك في أغلب الأحيان أن تضع ما بداخلك فوق ما تركه آخر المستخدمين، ثم أرتدي البنطلون الرمادي ـ الذي كان أسود ـ والقميص البني ذا الياقة المتآكلة، وأحمل حقيبتي المدرسية، أدس العملة المعدنية في جيبي، وأخرج من البيت المُصلب بشَدة خشبية كي يبقى متماسكا ولا ينهار على من ينامون فيه، أتجاوز في رحلتي الصباحية أولئك الأطفال من سني العائدين من ليالٍ طويلة في بيع المخدر أو خدمة أحد المقيمين تحت الكوبري، أركض بموازاة الطريق الدائري حتى أصل للطريق

Twitter: @ketab_n

البعيد الذي تمر به سيارات الميكروباص، أتربص بإحداها وأقفز محاولا قدر المستطاع أن أبقى غير مرئي بالنسبة للسائق، فإن رآني توقف فجأة، كي أسقط من على السيارة، أو كان رحيما وتمهل ثم توقف، وفي الحالتين يطاردني.

تلك الأثناء، كنت أعلم يقينا ما يحدث داخل كل بيت، وداخل الغرف الصغيرة على الأسرة في آخر الليل، وفي تلك الحمامات المشتركة التي تسهل للرجال الوصول لكل النساء، فكل ما عليك هو إزاحة ستار حين يكون الوقت مناسبا واستمتع من بعدها بطعم طازج للنظافة وأدع فقط قبل إزاحة الستار ألا يكون خلفها زوجتك أو إحدى المحرمات عليك. أعرف أيضا الموظفين الذين يقترضون من اللصوص جيرانهم، وأعرف أين يخفي النجار بضاعته، وكيف بدأت سلطته تتهاوى في مواجهة جبروت وتوحش الجُدد. أعرف من تتقاضى أجرا نظير مشاركتها الفراش، ومن يأخذ سجائر نظير مشاركته في الخرابة، من يشحذ، ومن تبيع المناديل، من تخدم في البيوت، من يسرق في السر، ومن يسرق بالإكراه، ومن يراقب الطريق.. أعرف كل الفضائح والأسرار، وأعرف ـ كما الجميع ـ مواعيد استحمامهن. أهرب كل لحظة من أوغاد في سني يلاحقونني بلا سبب، أبحث عن صديقة أو صديق، ولا أتوقف عن ترديد حجر الزمان لأشرف جابر.

كانت أمي تعاقبني إن اشتركت في اللعب خلف البيوت، حيث تطفح البيارات، وتعاقبني إن صعدت إلى الطريق الدائري، وتعاقبني إن لم أذهب للمدرسة، وتعاقبني وإن لم تجد سببا. مرت تلك السنوات وحصلت على أول عمل بجانب الدراسة، كان سائقا على "توك توك"، وهو أحد المشاريع الرائجة جدا. وبينما كان محمود الليثى يغني آه

Twitter: @ketab_n

يالدنيا.. من دمع عيني رويت الصبر في بؤنة.. أقل منا.. يا عيني. من بدري سبقونا" كان أوغاد أصغر مني يسرقون الإيراد، فطُردت. ثم عملت في أحد المشاريع، التي بدت منذ فترة أنها كنوز، والآن لم يعد أصحابها يجنون سوى المشاكل والتعرف على الإناث. دكان لخدمات المحمول. ولم يكن إيراد ذلك الدكان يكفي مالكه وحده، فطُردت أيضا، وخرجت بعدها إلى العالم الواسع.

لذلك نجوت، ولذلك أيضا لم أعد أذكر كل ما كنت أعرفه فيما سبق. وحين وفقني الله وحصلت على رخصة قيادة مهنية، بعد انتهائي من تأدية الخدمة العسكرية ـ التي كانت رفاهة عكس ما يشيع "الفرافير" ـ حصلت على أول عمل حقيقي، كسائق على سيارة أجرة، في خط سيرها تمر فوق منطقتي القديمة. بدأت أفكر فيم يحدث لأهلها وسكانها، لكني طردت الأفكار من رأسي دائما، فوقتها كان لدي عمل يمكنني من دفع إيجار غرفة في العتبة، أسعى للعودة للدراسة المنزلية للحقوق. لكني حين طُردت من ذلك العمل، بعد أن أخذ السيارة ـ بركابها ـ أحد أمناء الشرطة، لم أعد قادرا على الدفع، وتحمَّلني المالك فترة، وتسللت للغرفة فترة؛ لكني في النهاية طردت أيضا من الغرفة. تسكعت في الشوارع أياما، حتى وجدت ـ وفي مكان قريب ـ أناسا يبيتون في الشارع، وبأعداد غفيرة، فاستقريت بينهم. لكن؛ ودون سبب واضح، طاردنا رجال يحملون العصي ويطلقون النار علينا، ويخطفون من لا يهرب، فهربت.. لم أجد مكانا سوى عالمي القديم، وتمكنت من تجاوز المجموعة الأولى من الشباب، حين تعرفت بالصدفة على أحدهم، والمجموعة الثانية تحرشوا بي وفتشوني، وحين لم يجدوا شيئا معي كان هناك رأيان، إما يضربوني للتسلية أو يتركوني أمر

مررت، جلست على المقهى، وتعجب البعض من وجود زبون

Twitter: @ketab_n

على المقهى، الذي لا يقصده سوى جيرانه. لكنى ناديت على عم زوزا بالاسم، اطمئنوا لي قليلا.. وكانت مجموعة تلعب الكوتشينة على طاولة مجاورة، تعرفت فيهم على الحاج محمود قاسم ورجب النجار.

بعد أن رحل الجميع، لم يبق سواي معه، خرج الرعاع من جحورهم، وهم الذين لم يروا الشمس منذ سنوات، يحملون السلاح علنا، يذهبون ليحصلوا على شيء ثمين ـ يضيفوه إلى ممتلاكاتهم ـ من المارين فوق الطريق الدائري في تلك الساعة من الليل. رجب هو مصدر كل الحكايات والقصص، وهو مصدر أمين وموثوق منه، وقد رأيت الكثير مما يقص عنه، أو رأيت شواهد على صحته، حين كنت أعيش هنا. أما تلك القصص التي كان هو طرفا في أحداثها وصادفت غيابي عن ذلك المكان، فلا أملك دليلا واحدا أو شاهدا على صحتها.

أُجبرت على قضاء وقت طويل معه، بعد أن أدركت التغيير الذي حدث، فالرعاع الواقفون على مداخل ومخارج المنطقة لا يدعونك تمر إن لم تدفع مبلغا يكفي لشراء نصف شريط ترامادول ـ ذلك هو الحد الأدنى، أما الحد الأقصى فيتوقف على قيمة ما تملك ـ أما إن كنت تعرف أحد رجال اللجنة، التي تقوم بعملها بحماية منطقتنا، التي غرقت في برازها بسبب انسداد البيارات وتوقف عربات النزح عن القدوم منذ زمن، فيدعونك تمر بعد تبادل التحية. لكن ركنا رئيسيا من عمل أصحاب اللجان والكمائن الليلية هو التنقل من مكان لآخر، لذلك لا يصادفك الحظ كثيرا في مقابلة وجه تعرفه. أما إن كنت تعرف الكثيرين منهم، فأنت بلا شك واحد من ثلاثة: أولهم أحد الرعاع، ثانيهم ثري تستخدمهم في حل نزاعاتك، وثالثهم عاهرة أو مخبر.

ليس لديّ مصدر دخل أكفي به الكارتة عند الذهاب والعودة، غير

Twitter: @ketab_n

أن العودة متأخرا، بعد أن يكونوا قد سطلوا تماما مهينة، حتى إن التزمت "ياباشا" و"يابيه"، ودفعت أخر ما تملك، لن يعفيك ذلك من تحرش جنسي أو صفعة على وجهك، فقط لأنك لا تعجب أحدهم. فبقيت في حدود المنطقة، ولم يكن عسيرا عليّ إيجاد جحر أنام به في حجرة والدي، التي ورثناها جميعا، لكن أكبر إخوتي هو الوحيد الذي بقي بها، فتزوج وأنجب ثلاث بنات، وبقيت أمي معه. بحثه لي عن عمل لم يكن بدافع المساعدة كما يدعي، ولكن ليتمكن من الاختلاء بزوجته. وأكد ظني وردية الليل التي حصل لي عليها، كـ"صبى" للفطاطري الذي يعمل هو به كأسطى صباحا. عملي كصبي ليس مهينا، خاصة في تلك الوردية التي ليس بها زبائن. دوري هو تنظيف الدكان، ورص المحتويات والعلب الفارغة المعروضة.. الدكان يكفي بالكاد لفرن صغير، وثلاثة صاجات سوداء، ومقعدين لجلوسي أنا والأسطى الليلي، لذلك لم يكن تنظيفه صعبا، ولا مهما. وغير تلك المهمة، أقطع الطماطم وأدهس المش فوق الفطير الحادق، وأبرمه في ورقة؛ أو أرش القليل من السكر البودرة فوق الفطير الحلو وأبرمه للزبون الذي يدفع ثمنه البخس، حيث كانت تساوي سعر سيجارتين كلوباترا.

أنام في الصباح قليلا، ثم أهرب من لزاجة الأطفال المبالغ فيها، إغواء أمهم، وجنون أمي.. أذهب إلى المقهى، حيث يجلس في تلك الساعة المسنون والطلبة الهاربون من مدارسهم.

أولئك الطلبة يتحدثون عن أشياء لا أعرفها، كما أن للكثير منهم طموحا يزعجني ويعكر مزاجي، وفي الأصل هم لم يقبلوني بينهم. لم أجد سوى مجلس الشيوخ، ومراقبتهم في لعب الكوتشينة، وكان أصغرهم سنًّا، رغم كونه يكبرني بعدة أعوام، هو رجب، الذي ينتهي من اللعب

Twitter: @ketab_n

ثم يجلس معي، ليروي عما يراه ويعرفه منذ أن كان طفلا.

الوضع الآن ـ وفقا لرجب ـ مخيف، وكل عاقل يجب أن يهرب من ذلك المكان التعس، فقد وصل إلينا من مكان أو آخر أسياد أحمد مسعود المخبر، بزيهم الموحد وطبيعتهم الحيوانية، يأكلون الأخضر واليابس. كلما جاؤوا، حرقوا الزراعات، قلعوا الغيطان ـ بحكم المخالفة ـ ثم يمرون من تحت الكوبري، وإن وجدوا أحدًا يأخذونه حيا، فيعود ميتا، أو يأخذونه ميتا إن قاوم. يدخلون علينا، فيهرب الجميع.. يغتصب كبارهم النساء، بينما العسكر يستنمون على المشهد، وإن قاوم أحد سال الدم؛ والدم هنا لا شيء أرخص منه.. تُقتل إن خالفت وبنيت، تُقتل إن زرعت، تُقتل إن صعدت إلى الطريق الدائري، وتقتل لأنك أقمت نصبة شاي، إن كنت مديون أو دائن، إن عملت معهم أو ضدهم، إن خرجت من ذلك المكان أو لم تبرحه.. وليس أمامك إن أردت الحياة سوى أن تهرب.

حين ظهروا آخر مرة، كانوا يبحثون عن شخص لا نعرف اسمه، وفي بحثهم عنه وجدوا عشرة آخرين آخذوهم، وهدموا بيتا، فقأوا عينا، أحرقوا المقهى ـ حين ظنوا أن من يبحثون عنه مختبئ هناك ـ ورحلوا. يختفي عميلهم أحمد مسعود في تلك الأثناء، ثم يعود للظهور بعد فترة، معتقدا أننا نسينا؛ لكنا فقط لا نريد أن نؤذيه، فليس هو من فعل كل ذلك، لكن.. ومن فعل؟

تلك الأشياء المتشابهة ذات الزي الموحد، التي تبدو كقطيع لا ملامح له.. عقله منفصل، يقف بزيه المميز النظيف ونظارته الشمسية، يتأمل ويضحك، يطلب من أحدهم تلميع حذاءه، فيأتي القطيع كله لتلميع الحذاء الغالي من أثر الدم الرخيص. عندما يرحلون يتركون رجلا جديدا

Twitter: @ketab_n

كتابع لهم، فيتسيد.. يعترض البعض، فتنشأ معارك أخرى، لا شيء فيها له ثمن، وكل شيء مباح.

يحمل نصف الشباب هنا علامات مستديمة في وجوههم الكالحة الرمادية، بعد أن سقطت أسنانهم في ذلك العمر، دافعوا عن حياتهم عشرات المرات، أودعوا أصدقاءهم قبورا.. دخلوا في المعركة مبكرا، حين كانوا يحاولون معرفة ماذا يجرى.. وجدوا أمهاتهم تبكيهم، بينما تحملهم الأيادي في نعوش.. لم يكادوا يلحقون بركب الحياة، حتى طُردوا منها. في ذلك المكان عليك الهرب، وهو ليس طريق النجاة، فليس ثمة نجاة!

بعد أن أسمع ذلك الكلام التعيس من رجب، أتجول قليلا، بينما أفكر في الهرب، أرى المقهى الصغير الذي أحرق عدة مرات، ودمر عشرات المرات.. أتذكر مشروباته الرديئة وأكوابه المتسخة، السكر الشحيح في الشاي، حجر المعسل حين يلقي بتراب في حلقي، قبل أن أزفر نفسا طويلا، رائحة البانجو من جهة الشباب الجالسين على الجانب الآخر وصوت ضحكهم، اهتزاز مؤخرة كبيرة في عباءة سوداء، إيشارب أخضر به ورود ملونة، أطفال يثيرون سحابة غبار، حين يسقطون على الأرض في محاولة كل منهم أن يثبت أنه الأقوى. أب يركض في جلباب بلا لون، يرفع طرفه ويكشف عن ساقه المشعرة، ليفض شجار طفلين. بنت في فستان أصفر وجهها متسخ، قدماها مقوستان وشعرها مبعثر في الاتجاهات، جميعها تركض من أمها كي لا تحشو لها فمها بالمزيد من الأرز الممزوج بالملوخية، أمها في جلبابها الوردي البيتي المثير، تركض خلفها حاسرة كاشفة عن رقبتها وجزء من قدمها البيضاء اللامعة، تهز كل شيء فيهتز العالم معها، ويقف لها احتراما. يصرخ أحد الشباب

Twitter: @ketab_n

من دكان الفيديو جيم، معلنا أنه قتل الوحش، فيندفع الجميع للدكان الصغير البني، المعلق على جدرانه كلها صورا لـ"شايمس"، "ذا ميز و"سي أم بانك"، نجوم مصارعة المحترفين الآن، بعد أن توارت صور "الاندرتيكا" و"تيرابيل إتش

رائحة المستنقع، الذي يكبر كل يوم، تتغير كل يوم. ومنذ أن أختلطت برائحة الطماطم، أصبحت أكثر وضوحا. ينزح أحد الشيوخ السائل الأسود المتدفق إلى مدخل بيته، بينما يسب الدين للمارة، ولعائلته، وللسائل الذي كلما أعاده للمستنقع عاد إليه. دجاجة منتوفة الريش عليلة تركض في كل مكان.. كلاب مقطوعة الذيل، معلق برقابها حبال تتحسس خطواتها قبل التقدم، صوت التلفزيون عالٍ، ويذيع فيلما قديما "للمبي" اسمه "تك تك بوم" بينما صرخات الضحك تأتي بلا سبب واضح، كما كل شيء هنا بلا سبب.. سرعة النسيان بلا سبب، الرغبة في الزواج والإنجاب، وإنجاب المزيد.. اعتلال الصحة، صفاء البال وروقانه، الحشيش المكميك، الكميا المضروبة، الكهرباء وصلت دون مصدر، للماء صنابير تعمل وتنقطع بلا سبب. رائحة الطماطم تنافس رائحة المصرف، بينما يحاول أحدهم اصطياد قرموط منه!.. والدم لا شيء أرخص منه.

أجد نفسي قد عدت للحجرة، وخلعت الحذاء، واستمتعت في اللحظة ذاتها بذلك المكان الذي أملكه، والمنطقة التي أسكن بها وأعرفها دون شك، وأدافع عنها قدر ما استطعت ضد هجمات البربر ذوي الزي الموحد والدروع.

Twitter: @ketab_n

بعد أن فشلت الزيجة، اضطرب النجار وصار أكثر توترا، ترتعش عينه على أتفه الأسباب، ينخرط في مشاجرات يومية، يُضرب في بعضها ويسحق أعداءه الصغار في البعض الآخر، الكبار فقط هم من يخشونه ويعتقدون أنه بطل، فيذكرون قوته وقلبه الميت وتعففه عن كل الشهوات الصغيرة، وإهداره لفرص كثيرة، لا لشئ سوى أنه لديه قناعات ومبادئ. كما أن أولئك الذين يرونه بهذا القدر من العظمة، لا يعرفون بديلا له "يمسك" البلد، فكل بلد لها من يمسكها، ولكل منطقة رجالها المسلحون، الذين يدعون قدرتهم على حماية السكان العزل، وفي مقابل ذلك تكون كلمتهم مسموعة ونافذة على الكل، أما الأصغر سنا، فكانوا يرونه بصورة مختلفة، فهو ضعيف لا يقدر على فعل شيء، وكل ما يُحكى عنه قد مضى زمنه، وهو الآن كهل بلا قيمة، بالكاد يستطيع قمع اعتراض سافر من أحد المتحمسين، أما إذا تجمع عدد كبير لمساندة الضحية، يستجدي الرحمة ويعلن أنه لا يريد شيئا، وكل هدفه هو حماية المواطنين الشرفاء من السفلة. والأصغر سنا يعرفون أيضا كذب ادعاء أنه يترفع عن الشهوات، فهو متورط في سرقات كثيرة تحت تهديد السلاح في المنطقة، يدخن الحشيش، كما أن جنونه صور له قدرته على الزواج منها ـ هي وافقت وانتظرته، لكنه فشل في إتمام الزيجة، وهرب من شؤم العروس ـ لتلك الأسباب اقتنعوا أنه كهل بلا قيمة، فتعمدوا الاحتكاك به، ولا يعلم أحد كيف وصلوا لتلك القناعة، في ذلك المكان الذي يُسبح بحمده على حماية حياتهم الهشة.

يتشاجر يوميا ويحمل السلاح دائما، يوزع المخدرات على الصبية، ثم يطاردهم ليجمع نقوده، عاد يجمع مبالغ من الدكاكين مقابل الحماية، وكل

Twitter: @ketab_n

ما كان يقدر عليه أن اعتدى أحد الغرباء على المنطقة أن يهدد باستخدام السلاح ويشير بسبابته، بينما يطلق لحنجرته العنان فتعوى وتنبح بأصوات غليظة، لا تؤثر في أحد، هذه هي قدرته الآن، وقد أصبح الكل يتعامل معه كشئ كريه لا يطاق، لكنهم لا يقدروا على إزاحته. وأزمة سيد خمرة مع عادل كانت أحد أهم المشاكل التي يجب حلها، كي يعود كما كان مرهوب الجانب رفيع المقام، وذلك وفقا لفتوى محمود قاسم، الذي أقسم على صحتها.

لجأ للشيخ صبري ليساعده في إعادة نفسه إلى الواجهة.. الشيخ صبري، بعد أن رفع البسمة المفتعلة في وجه الجميع، وعاد أتباعه من الجحور بعد أن استبدلوا السلاح بالسبحة، صار أكثر قبولا لدى السكان، الذين طلبوا مساعدته في أكثر من أزمة، ولم يردهم خائبين أبدا، واستخدم في فض تلك الأزمات كل ما يملك من قدرات، بدءًا من الدفع النقدي انتهاءً إلى استخدام القوة، لكنه كان قد تعلم الدرس، فلم يُقحم أتباعه في استخدام العنف، ودفع لآخرين ليقوموا بذلك. كاد أن يُصبح هو الزعيم الأكبر، لولا أن تدخل أولئك الرعاع الصغار في الأزمات المتكررة في المنطقة، والتى تبدأ دائما بشيء بسيط، كخلاف على أولوية الغسيل، مشاجرة بين طفلين، أو غضب سيدة على عشيقها السري، ثم تتطور الأحداث وتتشابك، فيظهر النجار في مرحلة أو أخرى ويفلح في حل النزاع. أما إن بدا له أنه لن يتمكن من حله، فلا يقحم نفسه فيه، كي لا يخسر المزيد من هيبته، يتدخل الشيخ وينتهي الأمر، لكن لا ينجح في فض النزاع إن كان أحد أطرافه هم أولئك الشباب الأصغر سنا والأكثر حماسا وقدرة على المواصلة.

أولئك المتشردون الصغار لا قيمة لهم على الإطلاق، ولا يعترف

Twitter: @ketab_n

أحد بوجودهم، أطفال كانوا بالأمس، واليوم يسرقون الثوم من أمهاتهم ويفركوه على وجوههم في بحثهم عن شوارب، يرتدون بنطلونات ضيقة أطرافها السفلية محشورة داخل أحذية ملونة مقدمتها بيضاء، شعورهم كثيفة لزجة وعلى اختلاف نوعيتها وطولها تستقر فوق رؤوسهم "كابات" بالكاد تحافظ على اتزانها، فانلاتهم تختلف، وهي أحد أهم المصادر لمعرفة مدى خطورة هذا الفتى أو ذاك، فذوي الفانلات الملونة المهترئة هم الأكثر انتشارا، وهم لا يشكلون خطورة إلا في مجموعات. وذوي الفانلات الداخلية البيضاء القذرة يحاولون جاهدين أن يبدون خطرين، وأولئك قد يدفعهم تهورهم لأي فعل. أما الفئة الأخطر على الإطلاق، هم الذين يرتدون شيئا أنيقا ثمينا، فهم دون شك قد استولوا عليه من أحد الشباب الفرافير في منطقة راقية، وهذا يعني أنهم يخرجون إلى العالم، ويعني أيضا أنهم قد بدأوا مسيرتهم في العمل المستقل، بعيدا عن تسلط بائعي المخدرات، بؤس الصنايعية، وسذاجة التعليم. لا أحد يشغل باله بأولئك الصبية ذوي الأجساد النحيلة، الذين مارسوا كل الرذائل وقالوا كل الكلام قبل سن البلوغ.

النجار اضطر للتراجع أمامهم، بعد أن تجمعوا حوله يحملون السلاح. في أحد الأيام المقيتة، كان المطر يعيد تقسيم الطرقات والتضاريس، عن طريق إزاحة الوحل وتوسيع المستنقع. رش أحدهم ماءً قذرا عن طريق الخطأ على النجار، الذي كان يأكل رغيف مشكل من عربة الحلويات في صدر السوق. اعتذر الفتى وأشار بيديه دونما اهتمام، وعاد ليكمل ركضه، فقام النجار وألقى الرغيف.. لم ينجح أحد في إنقاذ الطفل من بين يديه إلا بعد أن اعتقد الجميع أنه قد فارق الحياة، وحينها أفاق النجار من نوبة غضبه، وتركه واستأنف حياته الطبيعية.

Twitter: @ketab_n

لكن ليلتها، وفي طريق عودته من تحت الكوبري، وجد كمينا من عشرة أو أكثر من أقارب وأصدقاء الفتى المصاب بعلامة في وجهه لن تزول. لم يصل النجار إلى تلك الحالة الجنونية التي تنتابه حين يغضب، فأخرج بهدوء بعضا مما يحمله، ثم استقبل برضا طعنة في قدمه وأخرى في يده من الأخ الأكبر للفتى. لم ينتشر الخبر، لكن القدم المصابة ظلت حتى هروب النجار من المنطقة تسبب له صعوبة في المشي مسافات طويلة أو الركض. بعد تلك الحادثة تحديدا، بدأ النجار يبتعد قدر المستطاع عن أولئك الصغار الذين لا ترهبهم رؤيته، ولم يجد سبيلا في الحفاظ على وجوده سوى تملقهم، وحاول مرار تجنيدهم في بيع المخدرات لحسابه، لكنهم كانوا يسرقونه ويفضلون العمل مع زرجينة، الذي انفصل عنه؛ فاضطر لجباية مبلغ من الدكاكين، كي يكفي نفقاته وبيته الذي سكنه الغم والنكد منذ حاول الزواج، وأصبحت "أم رجب" أكثر النساء صرامة وحدة في التعامل معه، ولم يؤد ضربها إلا إلى المزيد من الجفاء بينهما، هي تقضي أغلب وقتها في بيوت صديقاتها اللائى يملكن بيوتا، كما أنها تتعرف على السيدات اللاتى يسكن في بيوتا مشتركة الحمام ـ كانت فيما سبق تترفع عن مخالطتهن ـ وبقي محرما عليها تربية رجب.

وكان ذلك الفتى أيضا مصدر إزعاج للنجار، فهو تمنى رؤيته قويا واقفا على قدميه، كما أولئك الذين لا يخشون شيئا على الأرض، ويسحبون البساط من تحت قدمه، رغم صغر سنهم. لكن الفتى كان هادئ الطبع جبان، يهتم فقط بسماع القصص وإعادة حكيها لأي من كان، وتبتعد القصص التي يحكيها عن الواقع بمسافة كبيرة، فيجعلها أكثر تشويقا وإثارة، لكن تلك طباع الحلاقين وليست طباع المعلمين، الوحيد الذي ظل يدعم النجار ويعضده هو عادل صديقه، الذي تولى نيابة عنه إرهاب

Twitter: @ketab_n

الخصوم والتفاوض مع رجال المناطق الأخرى في الأزمات، وتولى توزيع المخدرات على الصبية وجمع النقود منهم.

غرق النجار في أفعال مشينة، من ابتزاز نساء لمعاشرتهن، ضربه لهن بعد انتهائه من تفريغ حمولته، وسرقته من بيوتهن، كما قام بضرب كهل في السوق اعترض على سب الدين، حطم عربة خضار، عاد ليشارك جابر زوج أخته في إيراد "حراق"، الذي لم يعد يكفي نفقاتهم، وكانت فاطمة الصغيرة التي تعمل مع زوجها ـ حارس عقار في منطقة أرقى ـ هي من تنفق عليهم.

لجأ للشيخ صبري، لكن الشيخ استغل وجوده الضعيف لمصلحته، وتدخل هو لإصلاح ما يفعله النجار، الذي لم يبق له سوى عادل يدافع عنه، لكن عادل كثيرا ما يختفي بسبب الخلاف بينه وبين العملاق سيد خمرة، ووفقا لفتوى محمود قاسم فالحل هو الإصلاح ما بين عادل وسيد خمرة، هذا ما كان يحدث وهذا ما رأيته قبل أن أخرج من ذلك المكان في المرة الأولى، أما وفقا لرجب، فإن ما حدث هو ما آت.

Twitter: @ketab_n

رجب

حين أفاق من غيبوبة مراهقته، رأى المشهد الحقيقي، هو ابن الحاكم، حاكم بفعل الأمر الواقع لا أحد يعترف به أو يكترث به، ولا أحد يقدره أو يحترمه، الشباب يبنون أمجادهم في تحديه، الظرفاء ينتشرون بالتندر عليه، رفاقه لا يدافعون عن وجوده، بل فقط يستخدمونه كستار كي لا تنال الفوضى من هيبة من يخلفه منهم، هو ابن لذلك التعس الذي ظن أنه الزعيم.

تعس لا يجيد الكلام، لا يجيد التصرف، يتخذ قرارا ثم يتراجع، يتلعثم حين يحدث جمع، لا يقدر على الدفاع عن نفسه حين يواجه بالكراهية سوى بكلمات بائسة مستعطفة لا تؤثر في أحد، حاكم فاقد للسيطرة، يبتسم بافتعال، يحزن بافتعال، يغضب بافتعال، يتردد بين آراء تابعيه اللذين يملكونه، فيتظاهر حينًا بالدفاع عن الفقراء والمستضعفين دون إيمان منه بذلك، يتظاهر بالقوة والحزم، يتظاهر بخفة الظل، بالذكاء، يتظاهر في كل لحظة.. ولم ينجح للحظة.

رجب ابنه كان لديه الاختيار؛ إما أن يرى الحقيقة كما هي، أو يبتاع الأكاذيب. ذلك الطفل الهادئ الذي لم يعرف سوى الكلام، لم يهو سوى القصص، دافع عن أبيه بكلامه حتى صدقه وخلق من حوله واقعا آخر يبدو أكثر رحمة، فلم يلق سوى السخرية. لم يفق ولم يدرك أن وضعه وأبيه، أهلهم وعشيرتهم، بهذا القدر من الدناءة والضعف، واستسلم لتيار الأكاذيب. ضيَّق دائرة معارفه، حتى اقتصرت على رفاق أبيه، كي ينال أي قدر من الرضا على قصصه المفضوحة الكذب. روى للأستاذ محمود قاسم ـ ملك صيانة الدش في المنطقة ومفتي جلسات الحشيش في

Twitter: @ketab_n

عصبة والده ـ روى له عن تلك الليلة التي كان النجار فيها فوق جواده، في رحلة لجلب الخير لكل السكان، وقابله أحد العصاة المارقين، اشتبكا، انتصر النجار بالطبع، لكن العصاة ـ بطباعهم ـ يستقوون بالخارج، فبات النجار أسيرًا في قبضة الشياطين، وهرب الجواد.

حار الأستاذ في القصة وتفاصيلها، فنقلها للنجار، الذي سمعها وافتعل ضحكة، ثم أضاف

"مبدئيًا اللي ضاع كان حمار

وأقر أن تلك الحادثة حقيقية، لكن بها بعض التشوهات، ولابد أن الفتى سمعها من أحد اللذين قضوا الليلة في البحث عن الحمار. وفي الصباح شهدوا مع النجار أمام المالك الأصلي أن الدابة لدى الحكومة، وخشي الأستاذ محمود قاسم أن يسأل عن أصل القصة التي رواها الفتى عن علاقة النجار بزوجته، خوفًا من ذلك الطاعون الذي يشري في خيال رجال تلك المنطقة حول زوجاتهم وعلاقتهن برجال آخرين، معززين شكوكهم دومًا بجموحهم الجنسي، قدرات الشباب الجدد، مغامرات عادل، وتميز نسائهم.

رجب ليس لديه سوى القصص، في عالم لا يعبأ، عالم متصدع يقاوم الانهيار، تنشأ معركة هزلية كل ليلة، تنتهي الي مجزرة، يسرق السكان القوت من بعضهم، يتبادلون إغواء النساء بكل الطرق الفظة، ترد النساء بالسباب، يردوا عليهن باليدين، عالم فقير لزج ليس فيه سوى شقاء، ولحظات السعادة الصافية تتركها حين تترك الطفولة، حتى الطفولة شقاء، تدخل دائرة البؤس ما إن تولد، وتدور بها حتى يقطعها مرض يلزمك الفراش، ثم تموت، أو تقطع رصاصة طائشة دائرة بؤسك في

Twitter: @ketab_n

موقعة جديدة، أو تقطعها رصاصة تقصدك في مصيدة أو مكيدة، عربة نقل مسرعة فوق الطريق الدائري، نسبة مخدر زائدة، جوع، تلك الدائرة إن دخلتها لن تخرج حيًا، دائرة كل السكان، العوز، العجز، واليأس.

ذلك الذي يتابع الأحداث، أمامه خيار من اثنين، إما أن يرى مدى سوء الوضع ويعتاده فيستسلم، أو ينكر أن الوضع بهذا القدر من العفن، فيجد سببًا للأمل. رجب أنكر ورأى من اللحظة الأولى أن أم بهاء الخادمة سيدة راقية، مهذبة، وسعيدة. كان عليه أن يرى أن خدمته لبائعة العطور الأرملة في دكانها هي نكاح، وأن ريهام العاهرة حين ترسله في مشاوير لا تبغي سوي استدراجه لبيتها، عالم آخر لا يعرفه سواه ينمو داخل رأسه، حتى طغى على الواقع، وفقد في لحظة جنونية القدرة على التمييز بين أيهما حقيقي وأيهما محض اختلاق، فغرق في وحدته يجمع تفاصيل عالمه الخاص، يسعى بين الحين والآخر لرؤية الحقيقة، يحاول كبح جموح العالم الموازي الذي يتدفق من حوله، يبتعد عن رؤاه وخيالاته، فيزداد حبًا لها وبغضًا للواقع، الذي لم يعد شيء لديه يدل على كونه واقع.

* * *

قص لي رجب عن ليلة رحيل أبيه؛ وكانت ليله لا تُنسى. فقد دخل النجار إلى البيت مضطربا، في يده كيس بلاستيك أسود يضمه إلى صدره، يبدو عليه الإرهاق والقلق، جمع ملابسه بسرعة، وقفز من النافذة إلى الشارع. ركض رجب خلف أبيه، وحين لحق به لم ينطق، وإنما أعطاه الكيس، بداخله رأس حمار مقطوعة، والدم يغطي نصفها السفلي. تاه الفتى في تأمل الرأس والعينين ذوا النظرة المنبهرة، الأسنان الحمراء والدم الذي يقطر، حتى اختفى والده في الأفق، وكشفت الشمس عن وجهها البرتقالي المبكر

Twitter: @ketab_n

ثم رأى أمه تحمل رضيعا لا يشبهه، كبير الحجم، يرفع رأسه في المهد وينظر إلى العالم بريبة، لكنه أحبه، أخذت أمه الرضيع وعادت لعائلتها، وبعد فترة عادت وتركت الطفل لرجب، وعادت بين الحين والآخر لتطمئن عليه. كان الفتى يمر حاملا أخيه أمام الإناث، ولا يؤثر في أي منهن، في ذلك الشارع الطويل، الصاخب بأصوات التكاتك والتسجيل والسب والشخر طوال فترات الليل والنهار، لكن ريهام، التي أحبته، دعته للعيش عندها، وصعد معها في لحظتها إلى شقتها. اهتمت هي بالطفل، وشاركت رجب في مشروع "منجد أفرنجي الذي ظل يحلم به طويلا، يغيب في النهار بين رائحة الكولا وتراب القطن، وليلا يرى أخاه الضخم ـ مقارنة بعمره ـ وتعود ريهام من جولتها فجرا، لتنام حين يستيقظ. ولم يكن يحظى بها، فرأى نفسه يحمل أكياس القطن، ينقلها من دكانه إلى عربة ربع نقل، يصب القطن في العربة وينام فوقه، وتمر من أمامه تلك الطالبة المدرسية بنت الأستاذ، فيدعوها لمشاركته الفراش المتنقل، ترفض في البدء وتركض لتبلغ أباها عنه، لكنه يقنعها بالعودة، يقبلها، تتأبط ذراعه راضية لتشاركه الـفرشة. لكنه وجد القطن قد ملأ الطريق، والفراش المتنقل أصبح فراشا حديديا، والدكانة أفلست.. هربت هي منه، وأخبرت أباها، فاختبأ لدى بائعة العطور أرملة عادل، الذي تزوجها قبل اختفاء النجار بأيام، وظل يطارد ريهام العاهرة المحترفة، إلى أن توفي في حادثة غامضة، حيث وجد مكان رأسه أكياسا سوداء بها حشيش، بينما لم يجدوا رأسه أبدا. تأمل رجب بائعة العطر الأرمله للمرة الرابعة، ورأى زوجها الأول المراهق الفارع الوسيم، ذا الأفكار المشوشة واللسان المتردد.

رآه يجوب الأرض على دراجته النارية متأنقا مختالا، إلى أن رآى عبير

Twitter: @ketab_n

وانبهر، انحلت إثر رؤيتها عقدة لسانه، واتضحت أفكاره، فصار يحمل لها يوميا هديه علها ترضى، ولا ترضى، إلى أن اهتدى إلى إهدائها زجاجة عطر ثمينة، فرضت عليه وابتسمت. قضى أوقاته كلها يبحث عن أغلى وأجمل العطور يحملها لها، حتى جمع كل ما يملك، كل أقاربه، أصدقاءه وأفكاره، وذهب إليها يطلب يدها، فوافقت، وبقي يهديها العطر يوميا ويذوب يوميا.. يضعف، يفقد وسامته، يبدو أكبر سنا، وأقصر قامة.

عاد رجب إلى تأملها، وتأمل كيف ذاب الزوج الأول بين يديها، ثم رأى يديها تلمع بين الذهب في فرح شعبي مقام جوار الشارع الطويل الضيق، يجلس جانبها ذلك الرجل الهزيل القصير، والذي اشتهر بقوته، فيبدو واثقا من نفسه في كل المواقف، وحين يغضب يتساقط الواقع من حوله ويبدو له الموقف سبب الغضب ـ ككل المواقف ـ هو ذروة المأساة وقلب المؤامرة، فتتكاثف الأفكار في رأسه، ويصيب قرارا جامحا بوضع حد مهما تكلف الأمر، ويبدأ الواقع في الانهيار: فيرى وجوده فوق الكرة ـ كي يحفظ توازنه ـ يجبره على الالتزام بقوانين الدوران والانزلاق، الاقتراب والثبات، السقوط، ورفع اليدين أثناء الركض بينما تتحرك القدمان سريعا، والنصيحة الأبدية "لا تنظر إلى أسفل"، وإن نظر ـ ودائما ما ينظر ـ يرى الضحية بين يديه بلا حول ولا قوة، والأيدي تحاول التدخل بينهما لتُخلص، وبذلك تمر دائما لحظات الغضب دون وعي كامل بما يحدث، فيتعامل بعد انتهاء الأمر بهدوء، وهو ما يكسبه وقارا خاصا، فهو أحد القلائل الذين يستخدمون السلاح في أوجه الخصوم بانسيابية تامة، ثم يستأنفون حياتهم كأن شيئا لم يكن.

بدا في ذلك الفرح متواضعا وقورا، يحاول جاهدا أن يكون مرحا ويجامل عروسه باحترام، فيفرض على الجميع احترام الجميع. كان رجب

Twitter: @ketab_n

يجلس قريبا منه، وهو كالعادة له ذلك المكان المميز، يقترب إن شاء من الأماكن المحرمة على الشباب في سنه، يزور أغنى الموائد، يتحرك خلف المسرح ليشاهد مؤخرة الراقصة ـ التي ظلت تغمز له، ولولا أن انقلب الفرح بعد هروب عادل لكان أضاف اسمها في كشوف من ضاجعهن ـ في حادثة أخرى، ذكر أنها حين هربت طلبت أن تختبئ لديه كخطوة منها تجاهه، لكنه رفض، حيث كان منشغلا كما الجميع بمتابعة ما يحدث بين "سيد خمرة" وعادل.

حاول العريس بعد فشل الزيجة وظهور عادل من جديد أن يُصلح ما بين الصديقين، فانتظر حتى تماثل عادل للشفاء وتمكن من المشي، تأبط ذراعه على الطريق الدائري، ولسوء الحظ قابلتهم سيارة زرقاء، وخرج منها شقي طويل ضخم، له شارب مهيب ومهندم، أبيض الشعر، تبدو عليه الصحة، الرخاء، والجدية: "بطايقكوا"

تباطأ عادل قليلًا، ثم قفز إلى عرض الطريق، ثم فوق الجزيرة من أمام سياره نقل وبضع سيارات أخرى، إلى أن وصل للسور الآخر، وقفز في اتجاه المزارع. اضطر الباشا إلى أن يأخذ شخصا واحدا، وحين وجد أن لا شيء ذا قيمة معه، اضطر أن يأخذ كل ما كان معه، ثم ألقى به في مكان نائى، مفلسا تماما، واضطر النجار بدوره أن يمشي كل تلك المسافة في الليل. والليل شيء مخيف غامض، يسمح بحدوث كل شيء دون قواعد، ونصيحة واحدة هي التي تفلح: "اهرب"

لا تنظر حولك، اركض بأقصى سرعة، ثم التقط أنفاسك وتابع الهرب، إلى أن تصل إلى شيء واحد تأمن له، هو بيتك ولا شيء سواه. فالوجوه التي تعرفها تغدر بك الآن، الطرق التي تحفظها يخرج منها رعاع

Twitter: @ketab_n

يسرقونك ويتركون علامات في جسدك، الزوايا التي تقف بها يخرج منها جثث أو أشباحا برؤوس عدة، قد يمسكك جن، يُقبض عليك، يقتلك أحد المهووسين بالدم، أو قد تصادف أنثى يتضح أنها ليست كذلك.

اهرب، ففي الظلام كل شيء مباح، حتى الأشياء التي تبدو في النور مألوفة وطيبة تبدو في ذلك الهدوء النسبي والألوان المطفأة مريبة، حجر مُلقى على الأرض قد يُخفي كمينا، طفل نصف عار يبكي، قد يستدرجونك به، شباب يدخنون البانجو سيتحرشون بك لا مفر، حتى نظرتك لها وهي تتكلم سرا في المحمول قد تؤدي إلى نهايتك. تلك هي نصيحة رجب لكل من لا يجيد الهرب " الليل له ناسه، وهم من يهربون كل صباح

*

توترت قليلا علاقة النجار بعادل، بعد أن تركه للحكومة وهرب، لكنه ـ عادل ـ سرق من ريهام هاتفها المحمول، وعوض صديقه عما سُلب منه كي يخرج من العربة الزرقاء. وبينما كان عادل يحاول جاهدا أن يداوي هيبته المجروحة منذ هجوم خمرة الأخير عليه، كانت ريهام توقف الميكروباص على جانب الطريق، وتركض من أمام السيارات، بعد أن تشير بأصابعها الخمس تجاه السائقين "توقف" انزلقت على الحجارة الرمادية، بعد أن قفزت السور وتجاوزت كل المصاعب، حتى وصلت لعادل. رفعت شبشبها بحركة سحرية، وانهالت عليه. أفاق من الصدمة فقلبها على الأرض، وركلها بقدمه ركلتين، اجتمع الناس حولهما حتى أنقذوها وتحسسوا كل شبر من جسدها. ابتعد عادل بينما هي تسبه بأقذع السباب، وتبصق بين الحين والآخر عليه ـ وعلى المتحلقين حولها ـ وتقسم أن تضع رأسه في حقيبة يدها.

Twitter: @ketab_n

ارتبك عادل في تلك الفترة، وتمادى الرعاع في التطاول على سيده. كانت قدراته المهزوزة سببا أصيلا في ازدياد التطاول من قبل الرعاع على النجار، الذي كان يعتمد عليه ذراعا أيمن وأيسر وجهاز أمن ومعلومات، قبل أن يُصبح النجار لا يملك أي شيء سوى ولاء عادل له، وأزمته مع سيد خمرة تدمرهما معا. وكحل نهائي للقضية، دبرا معا خطة للتخلص من سيد نهائيا.

عادل، الذي لم يحمل في جسده علامة سوى تلك العلامة في رقبته، والتي لا يعرف أحد سببها، ظهر أمامنا بالجرح في رقبته، والكيس الأسود في يده، قميصه الملون وشاربه النيِّء. في البدأ عرفناه كزبون للمقهى الوحيد في الشارع، مقهى لا يقصده سوى جيرانه، لذلك لم يكن من الصعب تمييز الزبون الوحيد، وكان الأستاذ محمود قاسم هو أول أصدقائه، حين مر من أمامه مسطولا تماما، وسأله عن بفرة فقدم عادل له ورقتين بود شديد، فأقسم قاسم أن يشاركه التدخين. أحاديثهم الهزلية وتبادل الجوانات جعلهما أصدقاء، وحين تعثر الأستاذ بـ"سيد خمرة" واضطر كل الجالسين على المقهى أن يفصلوا بينهما قبل أن يؤذي الأستاذ، سأل عادل زوزا ـ العامل الوحيد في المقهى ـ من يكون ذلك العملاق؟ فأجاب باندهاش "ده خمرة"!

ظل عادل يتتبع ظهوره، ويرى احترام الجميع له، فظن أنه سيد هذا العالم. لكنه لم يكن كذلك، فهو كان يفضل البقاء وحيدا، يسكر، يأكل، ينام وحيدا ولا يشارك أحدا في شيء، إلا قليلا من كلام هنا أو هناك. هو ذلك الغول الذي تنظر إليه فتشعر كم أنت ضئيل، لكن إن دهست قدمه ثم سببته بل بصقت عليه وانتهيت بـ"لا مؤاخذة"، سيرضى ويبتعد في هدوء. ليس ودودًا بأي صورة، لكنه لن يستخدم يده إلا حين

Twitter: @ketab_n

يكون سكرانا، وسيستنفذ قبل استخدامها كل سُبل الحل السلمي، وقد اكتسب ذلك الطبع من عمله كـفرد أمن في ملهى ليلي رخيص، وتكفى مشاهدته واقفا على الباب كي يدرك الزبائن أن لا مزاح. فإن تأملته، ترى أن الله قد منحه كفا في حجم صدر طفل في العاشرة، ووجها مستطيلا بلا أي انحناءات، مستطيل مصمت تتوسطه أنف مهولة الحجم ـ يخرج من مقدمتها شيئا كروي قاتم بحجم حبة البازلاء ـ وفما أسود، عينين بلا رموش، أما باقي جسده فكان الأعجوبة، فهو طويل لدرجة تجعله ينحني كي يمر من أغلب الأبواب، الجزء العلوي من جسده ضعف طول الجزء السفلي وضعف وزن موظف في الخمسين، أما قدماه القصيرتان جدا فكانتا تبدوان كمسمارين يثبتانه إلى الأرض، يرتدي الجينز الواسع المنزلق والفانلة البيضاء القذرة، وفوقه أفرول الوظيفة، يتسكع طوال النهار ويرافق ليلا زجاجة "الزبيب" إلى العمل، وإن بدا الوضع هادئا ولم يصطدم بزبون أعوج، يشرب زجاجة أخرى، وكلما مر الوقت ازداد سكرا، فإن صادفه زبون بعد زجاجته الثالثة، تُصبح مأساة وتنتهي الليلة في المستشفى.

بعد مدة قصيرة، كان عادل يمتلك صداقات قوية مع الجميع، بفضل بيعه للمخدرات. لكن صداقته بخمرة كانت الأقوى، فهو الوحيد الذي يمكن لخمرة التحدث معه بحرية. وحين توطدت علاقتهما، أخذ سيد يقص له عن أهله وعن حقهم المهدر، عن حياته الرديئة وكرامته المهانة، وتمادى به السكر فبكى.

تأكد عادل في تلك الأثناء من كون النجار هو الزعيم الأوحد لتلك المنطقة، فابتعد عن خمرة رويدا رويدا. ظل خمرة يشعر بالندم وتأنيب الضمير على ما أخرجه من صدره وباح به لعادل، الذي نفر الآن منه

Twitter: @ketab_n

وابتعد، وعادت حياته كما كانت دائما، لكنه أضاف لوحدته وحدة انتظار صديقه الذي لا يجئ. وفي ليلة، عائدا بعد أن شرب أربعة "إمشاط" زبيب، رآه تحت الكوبري وقرر معاقبته، فضربه لكن لم يؤذه ـ رغم قدرته على ذلك بمنتهى السهولة ـ ، سرق ما معه من حشيش ونقود، ورحل.

أن يضرب خمرة أحدهم ليس أمرا غريبا، لكن عادل كان له صيته وسمعته، لذلك كان الخبر يستحق النشر وصداقته للنجار لم تكن تشفع له في مواجهة ذلك العملاق، فراقبه قليلا كي يجد منفذا إلى أيذائه ولم ينجح، حتى يوم كان جيبه عامرا، وقرر أن يذهب إلى نفس الملهى الذي يحرس خمرة ويستفزه لأقصى درجة، لكن بعد أن يشتري رضا المالك والراقصة والعاملين بكرمه، فيضع خمرة أمام اختيار من اثنين: إما يرضى بالإذلال، أو يثور عليه فيقطع عيشه. لكن تلك الخطة الهشة أبيدت تماما، حين وصل عادل إلى المحل ورأى خمرة مشتبكا مع ثلاثة مراهقين أثاروا جلبة بالداخل ورفضوا الامتثال لأمر الطرد، وبينما كان أحدهم ملقى على الأرض يحاول المقاومة كانت الأحزمة تتسابق على ظهر خمرة، وقبل أن يقرر عادل التدخل في الشجار، كان خمرة قد سيطر على الوضع تماما، وسلب الأحزمة، واضطر الشباب إلى إخراج ما معهم، وركضوا. لم تمض ساعة وعادوا تسعة، ألقوا الحجارة والفتائل على المحل، فخرج خمرة وثلاثة من رفاقه، وللعجب سيطروا على الوضع وهرب الشباب مرة أخرى، إلا أن عادل اصطاد أسوأهم حالا، وعرض عليه أن يقوده إلى بيت "سيد خمرة"، كي ينتقموا جميعا منه. وبعد مفاوضات قصيرة مع الشباب، تمت الموافقة، وتسللوا جميعا إلى حجرة خمرة في الصباح وهو نائم، وكبلوه في الفراش، ثم انهالوا عليه ضربا، وسرقوا كل شيء في غرفته التعيسة، التي ليس بها شيء.

Twitter: @ketab_n

خربوا قطع الأثاث القليلة، وتركوه بين الحياة والموت. وبينما كان السكان يتساءلون عن سر الجلبة في تلك الغرفة، وقبل أن يدخلوها، خرج عادل رافعا نبوته مغطى بالدماء.

في الفترة التي كانوا بها أصدقاء وشركاء في بضاعة ـ مخدرات ـ كنت إن سألت عن عادل وجاءك الرد سؤالا "عادل مين؟" تكون الإجابه "عادل بتاع خمرة"، وكان اسم خمرة يثير لدى الجميع رهبة خاصة، يذكره الأطفال على أنه الأقوى والأكثر هيبة حتى من النجار نفسه، وإن تحمس بعضهم للنجار. وفقا لنظرية "ريو ميستريو" القادر على هزيمة "بيج شو"، ينتقل خمرة إلى المركز الثاني. في كل الأحوال، عادل ليس في المنافسة على منصب الأقوى أو الأخطر، ولم يكن في القصص قبل ذلك، لكنه حين أخذ كل ممتلكات الغرفة، وظهر أمام الجميع رافعا النبوت، أصبح طرفا رئيسيا في الحكايات، وظهرت أساطير يتناقلها الشباب تحت اسم "معارك عادل ـ خمرة" وتغيرت القصص في تنقلها من فم لأذن لفم، وتولى زرجينة تعديل كل القصص، كي يبدو عادل هو الذي يستحق رتبة خمرة. استقر الأمر لعادل فترة، بعد عدة مناوشات ومطاردات اختفى بعدها سيد، وحين عاد فجأة، في ذلك الفرح الشعبي، حيث كانت بائعة العطور الأرملة تتزوج من جديد، هرب عادل الذي كان يجمع النقطة ويجبي الضيوف، وانقلب الفرح. ظل البحث عن عادل مستمرا، إلى أن وجدوه معلق من قدميه إلى السور الحديدي على الطريق الدائري، وجسده يتدلى فوق حجارة قاعدته الرمادية، والدم يسيل من كل جسده.

تلك الحادثة سحبت من هيبة النجار، الذي لم يتمكن من السيطرة على الفرح، ولم يقدر على حماية صديقه. وعادل، الذي عُلق كالذبيحة، ظل لفترة طويلة يعرج، ويبدو عليه الضعف. عاد سيد للظهور في

Twitter: @ketab_n

المنطقة، رافعا رأسه، وتحرش بأصدقاء عادل المقربين كلما رآهم، ومن بينهم النجار، الذي يتجاهله مرة ويلاطفه مرة ويبتعد عن أماكن ظهوره مرات. وقتها كان الجيل الذي يرعاه زرجينة يُشكل خطرا على الجميع، وأخذت شعبية النجار وسيطرته تتآكل، وغرق في نوبات غضب غير موجهة، كثيرا ما آذته وشوهت صورته، وكان عادل يختفي طوال الوقت، إما عند إحدى رفيقاته أو هربا من مواجهة خمرة.

تأبط النجار ذراعه في ليلة، كي ينصحه بالتصالح مع سيد، والتوقف عن محاولاته العبثية في الانتقام، ويعود ليدعمه في وجه النفوذ المتزايد للشيخ صبري، ثروة المصيلحية الجديدة، ورعونة الجيل الأصغر. أوقفتهم سيارة اتاري وقفز عادل في اتجاه المزارع. ركض خلفه أحد الأمناء قليلا، ثم توقف بعد أن أسقط عادل شيئا على الأرض، التقطه الأمين ووجد فيها وجد بطاقة شخصية، كتب بها سيد خميس في خانة الاسم، وفي اليسار صوره سيد خمرة. عاد النجار بعد أن أخذوا منه سجائره، ولاعته، نقوده، وكيس المناديل المهترئ، وتأمل كيف أصبح وضعه؛ بل كيف كان وضعه في أحسن حالاته، فهو الثري في ذلك الشارع المنسي المعزول الفقير، وهو الود المفتعل، القوة الكاذبة، الغضب المصطنع، كل شيء مزيف، قواعده وثوابته بلا معنى، فهو يوميا يخرقها، وكلما دخن جوان رأى صورة الحاج إسماعيل أبو سعد، بجلبابه المتسخ وزوجته السمينة تسحبه خلفها وتزجره، وكلما شرب اثنين تسرب الشك إلى نفسه. الشك في وجوده العابث ـ ضع جزءا منه في أكبر مواطن ثقتك، ولو من باب الدعابة، واعلم بعد كل ذلك الوقت كم كنت مخدوع ـ هو الشك ينتشر في شعيراته الدموية، يأكل كل رأسه، حتى بدأ يشك في كونه مجرد احتمالات، واتخذت الحقائق الزاوية، ووقفت خجولة تحاول

Twitter: @ketab_n

الظهور أو حتى الاشارة دون جدوى، يغرق في بغض كل شيء، زوجته، ابنه، شارعه وكل حياته.

أثارت البطاقة الملقاة في الطريق كل الذكريات لدى الباشاوات، ومجموع المحاضر والشكاوى المقدمة ضد سيد، غير حكم بثلاث سنوات مع إيقاف التنفيذ، وقضية شروع في قتل تنظر أمام المحاكم. اختفى من الشرطة، لكنه دخل في معركة مكانية غريبة، حيث يجب عليه التهرب من أماكن ظهوره المعتادة، وفي نفس الوقت البحث عن عادل في نفس الأماكن. كما كان عادل يتهرب منه، من أزواج يعاشر زوجاتهم، ويحاول في نفس الوقت أن يمارس حياة طبيعية أمام جمهوره من ناقلي الحكايات.

كاد النجار أن يغرق دون مساندة عادل في مواجهة الرعاع، الذين تسببوا في عشرات المشاكل التي لم يقدر على التدخل بها، واضطر للاختباء أثناء إحدى المشاجرات بين رعاعنا ورعاع من مكان آخر، دارت بينهم معركة بكل أنواع السلاح بين البيوت والحواري، ووضع النجار مع عادل خطة للتخلص نهائيا من خمرة، فاستدرجه النجار إلى مكان، وفجأه ظهر عادل أمامه. ركض خمرة تجاهه، وقبل أن يصل قفز عادل إلى قدمه، دس فيها سكينا وسقط على الأرض، ثم دس سكينًا آخر في العضلة الخلفية لقدمه الثانية، واستسلم ليديه الطائشة. لم يتأثر خمرة في البدء من السكينين، وسحق رأس عادل برأسه، وحطم له ضلعين بركبته وهم يسحبه إلى مدخل بيت ليُجهز عليه، فسرى في قدمه تأثير السم.. خدر غير مبرر ينتشر في جسده، حتى سقط على الأرض. استكمل أحمد مسعود الخطة، فسحب العملاق الغائب عن الوعي إلى

Twitter: @ketab_n

حيث ينتظر أسياده، وبعد بضعة أيام قضاها سيد في المستشفى، وبضعة أيام في الحجز، خرج بريئا. انهارت خطة النجار وعادل، التي كانت مبنيه على تسليم خمرة للحكومة بتهمة جديدة، فالبطاقة التي سرقها عادل حين اقتحم حجرة خمرة كان مرفق معها "وقية حشيش مقطعة ومغلفة، حين ألقاها للأمين الذي ركض خلفه. لكن الأمين أخذ أكثر من ثلاثة أرباع الحشيش، فحول القضية بقصد أو بدون إلى تعاطٍ بدلا من إتجار، وتولى محامٍ يسكن قريبا دفع كل ما كان يملكه خمرة ثمنا لإقامته بالحجز، وخروجه دون أن يُعرض على النيابة.

لكنه في تلك الفترة الوجيزة كان قد فقد قدرة قدميه وتركيبتهما السحرية، فسيد حين كان طفلا تعرض للضرب كلما رآه والده ـ سائق المقطورة ـ يستعمل يده اليسرى، وأجبره على استخدام اليمين، لكنه ظل يستخدم يسراه في المعارك، بينما تعلم استخدام اليمين في إشباع الغرائز وتناول الطعام، على عكس قدمه، حيث كانت اليسرى سريعة ومراوغة، بينما اليمنى كانت مسمار يثبته في الأرض، على كل الأحوال، فقد الآن تركيبة قدميه، وتراخت يمناه ويسراه.

اقتنع بالهزيمة مؤقتا، حين استند إلى عكازين، ثم نصحه علي قاسم ـ وقد كان صديقا لـ"صالح" أخيه، قبل أن تُطرد العائلة من المنطقة ـ أن يرحل، كي لا يعرض نفسه للمزيد من الإهانة، وحين يشفى وتعود إليه قدراته، يعود لينتقم. جمع أشياءه في الليل سرا، واختفى وهو يعلم أنه لن يستعيد قدراته، ولن يعود ابدًا. في اليوم التالي، اقتحم عادل غرفته، وحطم ما بقي فيها، وأعلن على الجميع أنه لا يوجد شخص ـ سواه ـ اسمه خمرة.

Twitter: @ketab_n

انتعش النجار بعدها قليلا، لكن عادل ـ الذي أصبح عادل خمرة ـ لم يقدر على مواجهة الصغار، فقرر مهادنتهم، وأدرك أنهم الأسياد الجدد للشارع آجلا أو عاجلا، فابتعد تدريجيا عن صديقه، الذي أخذ المخدر يعبث بعقله وصحته، وأصبح غريب الأطوار، فتعرض للضرب مرتين أمام الجميع، وفوجئ أن عادل أصبح يتعامل مع التاجر من دون وساطته، وأن توزيعه وبيعه للمخدرات أنجح، ثم فوجئ أن عادل تزوج من عبير، في فرح أقيم في الشارع نفسه، وغرق كل ضيوفه في البيرة والبانجو. حضر الفرح الشيخ صبري ورجاله وحريمه، وحضر أثرياء عائلة مصيلحي، كدليل على مكانة عادل العالية، وظل المخدر يأكل رأس النجار في جلساته الكئيبة الصامتة مع أصدقائه علي ومحمود قاسم، وكلاهما يعاني من حالة مزرية صحيا وماديا. حسن الذي فقد أي قدرة على الغناء واهترأت أحباله الصوتية، فصار يتكلم بصعوبة، أحمد إبراهيم الذي أطلق لحيته من جديد، وعاد شيخا كما كان، عمرو، الذي يتفرغ ساعة أو اثنتين ما بين المجموعات والدروس كي يستمتع بمقارنة نفسه بهم في تلك الجلسات البائسة التي يقوم بقعة ـ أخوه ـ فيها بخدمتهم جميعا، دون أن يُطلب منه ذلك، ويأتي بأفعال غير مبررة، حيث يزحف على أربع، أو يُلقي طعامه في عب جلبابه قبل أن يأكله، يمسح يديه في شعره، بعد أن يلحسها من آثار المعسل، زيت الطعام، وتراب الولعة.

لا يكف ذلك الجمع عن الحديث عن عادل، الذي أصبح كل شيء، وتزوج من أجمل النساء بعد أن عاشر كل النساء. النجار تائه في أوهام المخدر طوال الوقت، حتى حبلت زوجته من جديد. ظل يطارد فكرة أن عادل انتزع منه كل شيء، وأنه ليس أبا لذلك الطفل المنتظر، وبعد أن تعرض للتفتيش من قبل شباب صغار أخذوا مكانه تحت الكوبري،

Twitter: @ketab_n

ذهب لزرجينة عند بيته، كي يشفع له عند أولئك الصغار الذين أخذوا آخر ما بقي معه من حشيش ونقود، فوجد نفسه يقص عن معاناته، حالته المادية، كبر سنه، قلة حيلته، ووضعه غير المناسب. فتعاطف معه زرجينة وطلب منه أن ينتظره في العشة على السطح حتى يعود له بأشيائه، وحين كان ينتظر عودة زرجينة، كان يزداد حقدا وكراهيه وغضب على كل شيء، ودفعه الإحباط والشعور بالمهانة إلى التأكيد على أن ذلك الطفل ليس ابنه، وأن عادل ـ الذي يدخل الآن باحثا عن زرجينة وحاملا لأكياس بلاستيكية سوداء بها حشيش ـ هو الأب الحقيقي. اختفى النجار، ووُجد عادل مقطوع الرأس.

* * *

رجب باع كل شيء، وجمع كل ما معه من نقود ومنحها لريهام، ثم توسل إليها كي ترضى، فتزوجا. كان هدفه أن تراعي أخاه، الذي تركته له أمه بعد الفضيحة وعادت لأهلها، فتزوجت من جديد واشترط الزوج أن تترك أبناء "الجربوع" دفعته ريهام لأن يستثمر مالها في أي مشروع، فافتتح دكان "منجد أفرنجي" قضى على آخر ما يملك، لكن ريهام كانت قد تعلقت بالطفل، فسمحت لرجب بالمبيت عندها كي تحتفظ بالصغير، وانتهى الأمر برجب لا يملك أي شيء، ويأكل حينما ترضى عليه ريهام أو الأستاذ، ويقضي يومه كله على المقهى يلعب الكوتشينة مع رفاق أبيه.

يجمع أحدهم الكروت من أركان الطاولة، ويعيد خلطها ليوزعها من جديد، يفاجئ كل منهم بورقه، لكنه يحافظ على مزاجه العام، فالشيخ أحمد إبراهيم يرى أن الحظ يسانده اليوم، فيملؤه ذلك ثقة، والثقة تجلب ثقة، وبالتالي يصل إلى درجة تجعله يلعب الورق اعتباطا،

Twitter: @ketab_n

واعتباطا يحرز تقدما. علي قاسم يرى الورق لا يسانده، فالورق الجديد مثل الذي سبقه، وكل ما سبقه وتلاه، فيملؤه إحساس الهزيمة، ويتسرب إليه اليأس، فيلعب اعتباطا ويتراجع. بينما الأستاذ محمود قاسم ـ الذي أصبح حاجا دون أن يخرج من ذلك الشارع ـ يعرف أنه الأذكى، يعامل الورق بحذر، يتأمله كثيرا، ويتوه في الاحتمالات اللا نهائية، فيفاجئه صوت يأمره باللعب، فيرتبك ويبحث: أي الاحتمالات أكثر واقعية؟ وأزمة الاحتمالات تلك دائما ما أحرجته، فمجرد وجود الاحتمال وإن كانت نسبة تحققه تصل إلى واحد من كل ألف، مجرد وجوده، حتى إن كان خياليا بعيدا، يجعله قابلا للتحقق، وإن حدث وتحقق يصبح هو الواقع، ولا تعود للنسب أي قيمة، فيستفتي قلبه، ويتذكر أنه دائما ما نصح الجميع وأفادهم برأيه السديد وعقله الراجح، دون أي تردد أو تخبط، فيأمره صوت أكثر شراسة أن يلعب الآن، فيختار ورقة اعتباطا. أما رجب، الذي يفاجأ كلما أمسك الأوراق وكأنها جديدة، فيندهش من كيفية صُنع الاختلاف رغم التطابق، فمن لونين، عشرة أرقام وثلاث صور، تحصل على اثنين وخمسين متغيرا، مترابطين إلى درجة تقارب التطابق، يجمعهم أفقيا الشكل الموحد، ورأسيا يجمعهم تكرار الرقم أو الصورة، كل ورقة مختلفة تمامًا، حتى إن تشابهت في الرقم واللون مع أخرى، بتغيير بسيط لتفصيلة بسيطة في ورقة، ينقلب الوضع من مكسب لخسارة، وبالعكس، ينقلب المغزى بتغيير الترتيب، تنقلب الحقيقة بتغيير الأسماء، تبديل ورقة واحدة من شخص لآخر يقلب العالم، وإن تم ذلك التبديل لا توجد طريقة للإثبات، فما يحدث وينتهي لا يتم تسجيله، ولا يوجد مرجع نحتكم له ونتفق عليه، فيما يخص قضية الحقيقة، كل الجالسين من حوله يغيرون تفاصيل صغيرة فيما حدث وانتهى، فيبنون

Twitter: @ketab_n

عوالمهم الخاصة داخل عقولهم، تفاصيل صغيرة تتراكم لسنوات، فيري اللص نفسه شيخًا، ويصدق، يرى الخنيس نفسه مناضلًا، ويرى العاجز نفسه زعيمًا، لكل منهم عالم لا يراه سواه، لا يشبه أي عالم آخر، ولا يشبه أي العوالم للواقع، الواقع الذي هو لا شيء سوى ما تصدق.

لكنها في الأصل ليست أكثر من بعض الأوراق الملونة، بها صور وأرقام، وبعد أن ترهق ذهنك في إدراك ذلك، تعود لتخلط الورق، وتكتشف أنه تغير كله أو جزء كبير منه، وتغرق من جديد في ترتيب التفاصيل وتنسيق الأوراق، وتتفتح لديك عشرات الاحتمالات كلها حقيقية، حسابات جديدة، وفي النهاية سيجمع أحدهم الورق ويخلطه مرة أخرى، فتصل إلى القاعدة الوحيدة: الاعتباط.

حينها، لم يكن لأحد أي سلطة على المنطقة سوى رعاعها المسلحين والشيخ صبري الذي يتملقهم دوما، فيحمونه ويتخذونه وأتباعه الآليين ستارا. فقد الرعاع آخر صلة تربطهم بالسكان، حين خرج زرجينة على ماكينته الصيني، مرتديا ترينجه الصيني، يدخن سجائره الصيني، وعاد برصاصة في رأسه وبعض الخرطوش متناثر في جسده. كان قد توقف لينقل أحد المصابين في مجزرة دارت بعيدا عن ذلك المكان، ولم يكن يعلم هو، أو الباشا الذي أطلق عليه الرصاص أنهم قد تقابلا في زمن آخر.

* *

يبدوا الوضع الآن هادئا من جديد، فبعد الموجة التي أزاحت كل الرعاع السابقين، ظهر الرعاع الجدد بصفاتهم الجديدة، وأمثالي الذين يتمنون الابتعاد عن المخاطر هم هنا الأغلبية، يمكننا التكيف مع أي شيء، نحن الذين ولدنا في غرف لم تتسع لنا، ولحقنا إخته زادوا الفراغات

Twitter: @ketab_n

انكماشا، نتمنى فقط أن نكفي أنفسنا من الغذاء ونستر أجسادنا، قبل أن تشتعل بنا تلك الرغبة البلهاء في الزواج والإنجاب، في ذلك الفقر الساكن معنا وإن ادعينا الغنى والاستغناء. نعرف أنهم بالخارج لديهم شوارع مرصوفة وأبنية ملونة، نساء مهذبات، جميلات، سافرات، لا يمانعن في أي شيء، ولا يطلبن أكثر مما نقدر عليه، ثريات، رائحتهن الزكية تُنعش كافة حواسك، وخفة ظلهن تبقيك دوما سعيدا. في الخارج يحترمونك، ويعطونك حقك فتثرى وتسعد، وتقيم مشروعات وتمتلك سيارة، وتنجب أطفالا يصبحون تجارا، لاعبي كرة، فنانين، أو حتى أطباء. لديهم هناك أعاجيب، أنوار تضئ بمجرد مرورك، ونظارات تدخلك عوالم خيالية.. لكن أمثالي، الذين خرجوا، يعرفون أن كل ذلك موجود، لكنه ليس لنا. كل من خرج عاد، وتولى الرعاع أخذ ما رجع به. وإن تمكن من تهريب مبلغ، لا يجد سبيلا لتشغيله سوى تجارة الشيخ صبري الحلال، ولكونها حلال فأنت شريك في الخسارة قبل المكسب، ولأنه قدرك، تأتي الخسارة ولا يأتي المكسب. لكنه ـ والشهادة لله ـ يساعد كل محتاج، ويتكفل بتزويج أتباعه، يذبح عجلا ويوزع لحمه كل موسم، يوزع أكياس السكر وزجاجات الزيت، يجد لمن يبحثون عن عمل عملا، فنترك لِحانا كي نرضي الوحيد الذي مد لنا يدا في لحظات الحاجة، وما أكثرها.

يبدو الآن الوضع هادئا، لمن يمر من فوق الطريق العالي.. إن نظر شرقا لن يرى شيئا بسبب الظلام الدامس. لن يرى سوى لمبة أو اثنتين تضيئا بيتا من طوب أحمر هنا أو هناك. أثناء الصباح، حيث النور الإلهي، سترى حتما بضع بيوت من طوب أحمر، خرسانة، أقفاص، أقمشة وصفيح، لن ترى تلك العشش التي بنيت فقط من الأقفاص والصفيح إلا إذا دخلت

Twitter: @ketab_n

ذلك الشارع، وسرت تجاه السوق.. سترى العشش بألوانها المتناقضة، التي انتشرت في كل فراغ ما بين بيت ودكانة، السكان الحفاة، رائحة المستنقع المختلط برائحة الطماطم ستزكم أنفك، ذلك إن تمكنت أصلا من تخطي أولئك الذين يبحثون عن غريب، كي يأخذوا كل ما يملك، وإن لم يأت الغرباء استداروا لنا.

ومنذ فترة، لا يعرف أحد مداها، لم يمر من هنا غرباء، حتى إن الأطفال الذين يولدون هنا لا يعرفون أن هناك وجوها أخرى غير تلك الوجوه الرمادية الخشنة، لذلك كان من الطبيعي أن نحتفل بقدوم الغرباء ونسرقهم، وكان من الطبيعي أيضا ـ حيث لا يأتي غرباء ـ أن تستدير القوات إلى الخلف، وتصوب سلاحها تجاهنا، وعلى من يتعرض لهم أو يعترض عليهم تحمل العواقب. رائحة الطماطم التي تطغى أحيانا على رائحة البيارات، كانت سببا في اكتشاف غنائم الطريق الدائري. فحين كان طريقا سريعا، تمرق من فوقه السيارات دون توقف، كان على من يبيعون المناديل أو يشحذون أن يمشوا حتى أقرب مطلع أو منزل به زحام، والحالات التي حدث بها زحام فوقنا، كان على من يسترزقون من سرقة السيارات التخفي والسرعة، أما بعد الحادثة التي انقلبت فيها سيارة نقل كانت محملة بالطماطم، صعد الجميع إلى الطريق يجمعون الثمار السليمة، ثم سرقوا كل محتويات السيارة. منذ ذلك الحين، والأرزقية يوقفون السيارات بطريقة أو بأخرى، ليسرقوا ما بها ويرحلوا. وقتها كان النجار قد فر هاربا من جريمته، ومن كراهية السكان له.

يوم انقلبت سيارة الطماطم، وقبل أن نجمع كل الثمار، كانت السيارات التي تمر على الطريق إلى جوارنا تهرب بسرعة جنونية من شيء ما. كما كان عدد السيارات قليلًا بصورة لم نشهدها من قبل أو بعد.

Twitter: @ketab_n

دهست تلك السيارات الطماطم، وقبل أن تختفي آخر سيارة، ظهرت عربات مُجنزرة، تحمل في مقدماتها مدافع، لونها كاكي، وصوتها مخيف، وعلى ما أظن، أن تلك المركبات قد خلطت الطماطم بالأسفلت، فتسببت في بقاء الرائحة للأبد.

استلم الرعاع السُلطة نهائيا، وحالفهم الشيخ صبري، فأداروا السلاح سويًا في وجوهنا وأعيننا، حتى أن هناك جيلا سيولد لا يعرف كيف يرى، لأن كل السكان عميانا، حدث ذلك في الشتاء السابق لوفاة زرجينة، تحديدًا قبل عشرة أشهر ينقصها ثلاثة أيام من وفاته، وانقطاع آخر صلة بيننا وبين الرعاع.

١٧/ ١٢/ ٢٠١١ - مجلس الوزراء
١٦/ ٧/ ٢٠١٢ - أول فيصل

خالد أحمد

Twitter: @ketab_n

شَرْقُ الدَّائِري

ستعمل لديهم إن أردت الخروج، وسيجبرونك على العودة كي تدفع آخرين للتورط والرحيل، ثم تبلغ عنهم فيدخلون السرداب، ويعودون ليرشدوا عليك وترشد عليهم، حتى يأتيكم الأمر يومًا فتذهبوا في مهمة لفض تجمع "فرافير" أو فرض السلطة على بقعة تمردت، وحين تفعل ما تؤمر به، يأخذونك مرة أخرى للسرداب، ومنه تُرحل للسجن، لتعود مريضًا مخبولًا تهذي أمام أي بيت من تلك البيوت التي تنشأ في الشقوق التي بين البيوت، وحين ينهار أحدها يجر معه آخر ويسقط نصف الثالث، ويبحث "الجدعان" عنك بين الركام المكدس، وتخرج جثة أو بقايا إنسان.

Designed By: Ahmed Atef Megahed

Photography By: Nadia Mounier

تم إنتاج هذا العمل بمنحة من المورد الثقافي

المورد الثقافي
Culture Resource

المصري للنشر والتوزيع